جامعة محمد بن زايد
للعلوم الإنسانية
MOHAMED BIN ZAYED UNIVERSITY FOR HUMANITIES

نظرية الرحمة في القرآن الكريم

تأصيل وتحليل وتنزيل

الطبعة الأولى
1447هـ - 2025م

سعيد عايد الكتبي

بسم الله الرحمن الرحيم

جامعة محمد بن زايد
للعلوم الإنسانية
MOHAMED BIN ZAYED UNIVERSITY FOR HUMANITIES

تأليف

سعيد عايد الكتبي

الطبعة

الطبعة الأولى 1447 هـ - 2025 م

الترقيم الدولي

ISBN 9789948676591

جَمِيعُ الحُقُوقِ مَحْفُوظَةٌ

يمنع طبع هذا الكتاب أو أي جزء منه بكافة طرق الطبع والتصوير والنقل والترجمة والتسجيل المرئي أو المسموع أو استخدامه حاسوبيًا بكافة أنواع الاستخدام وغير ذلك من الحقوق الفكرية والمادية إلا بإذن خطي من الناشر

+971 2 4999000 info@mbzuh.ac.ae www.mbzuh.ac.ae

mbzuh MBZniversiy for humaniies

الرسائل الجامعيّة

نظرية الرحمة في القرآن الكريم

تأصيل وتحليل وتنزيل

جامعة محمد بن زايد للعلوم الإنسانية

MOHAMED BIN ZAYED UNIVERSITY FOR HUMANITIES

مقدمـة

سواء اعتبرنا أصل البشرية خاضعًا للجينات الخلوية المحفوظة في الميتكوندريا، أو خضعنا لنظرية تطور الأحياء في الجنس البشري؛ فإن العقل يندفع ضرورة نحو اعتبار الأحاسيس بِنية متجذرة في الكينونة البشرية.

ولم تكن تلك الأحاسيس لتترجم إلى مفاهيم محددة وملموسة لولا هذا الاتفاق الواقع بين أطياف الناس المستحسنين للخير والمنافع، والمستقبحين للشر والقوارع. ذلك أن المعاني التي تنشأ من ترجمة الأحاسيس الجميلة لها طعم في فطرة البشر يستطعمها كما يستطعم المرء الشهد الحلو، مثلما يجد المعاني النابتة عن مكامن الشر تتقاذفها النفوس ولا تستمرئها كما لا يستمرئ السوي مرارة الحنظل.

إن البشر لم يكونوا لينتشروا في الأرض لولا تلك النفوس التواقة إلى البحث عن المنافع، وهي -لا محالة- مجمع على أنها توزن بالأصلح للإنسان في معاشه. وحينما يتحول الإنسان من فرادى إلى جماعات تبدأ موازين ضبط حدود المصالح، وغير خاف أن المصالح قد يعتريها تجاوز لدى الآخر المتعمق في التلذذ بإنسانيته دون معيار.

لذلك تأتي الحدود العقلية بين الجماعات لتقنين المفاهيم، وكبح الاسترسالات العشوائية، إذ من المعروف أن الصيد مثلًا لدى الإنسان كان وما يزال بقدر حاجته المعيشية، ومثل هذا سائر الارتفاقات بين البشر التي طرأ عليها التقنين.

ولما تنوعت أساليب التشريع المجتمعي بين الأمم رافق ذلك نصوص ومقولات دامت في البشرية كديمومة النصوص الدستورية في العصر الراهن، وقد احتفت تلك المقولات بطابع القداسة لدى كثير من الأمم، لاسيما في الجانب النفسي الذي هو من بنية الإنسان كما أسلفت الحديث عنه؛ على اعتبار طبيعة الإنسان كهيئة بذرة لا تنبت إلا بماء معين سهل يتسلل إلى أعماقها ليحييها.

من أجل ذلك ظل البشر كلهم يستحسنون المفاهيم الدالة على الرحمة باعتبارها ذات دلالات متشعبة في حياة كل كائن، وأصبح العالم كله اليوم يرنو إلى التراحم جراء ما شهدته حوادث الدنيا من حروب طاحنة أتت على الأخضر واليابس، وأهلكت الحرث والنسل، وبات لزاما على جميع حملة العلم ورجالات الثقافة أن يبثوا في الناس مرتكزات المرحمة الإنسانية، ويشيعوا التوافقات بين زعماء الطوائف كيفما كانت.

ونتيجة للحاجة الملحة لوجود الرحمة بين الخلق؛ فمن الطبيعي وجود إيديولوجيات لا تأبه بقيم التعايش والتراحم، بل تتشبث بشبه مآلها الإفناء والدمار، لذا لابد من إيجاد دراسة علمية ذات تأصيل وتحليل: تجمع بين العمق التاريخي لهذا الموضوع سواء من الناحية الإلهية أو الوجودية الإنسانية، وبين التنزيل الواقعي وتفكيك الخطاب المتشدد المعاصر الذي لا يؤمن إلا بمفهوم البغضاء تحت ذريعة الولاء والبراء، وكأن أصحاب ذلك الخطاب يتناسون مقصدية الرحمة التي اختصرت فيها بعثة محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله.

أهميـة الموضـوع:

يكتسي كل موضوع أهميته من خلال ما يعالجه، وبما يتناسب مع حاجة الإنسان لتلك المعالجة، غير أن موضوع الرسالة ليس ذا أهمية فحسب؛ بل أصبح من اللازم على الباحثين في الدراسات الإسلامية والإنسانية إبراز الرحمة في القرآن الكريم ؛ لاسيما في هذا العصر الذي كثرت فيه القالات والمقالات التي تصف القرآن بعدد من وصمات النكال والنقمة بحجة احتوائه على مصطلحات القتل والعذاب والحدود.

وليس من السهل مناقشة هذا الموضوع تحت الرؤية العامة للبحث حول النظريات، ولذا تشعب البحث ليلامس مجريات التاريخ، ويماحك عالم الجينات، ويدارس الأنثروبولوجيا، ويغوص في الكونيات والوجوديات، ويقارع طائفة من الشبه، ويسبح في روحانيات الإلهيات الفائضة بنسمات الرحمات للبارئ الرحيم جل شأنه، ويسفر عن كبريات الدلالات النبوية التي اشتملت عليها الأحاديث الصحاح للنبي الكريم عليه أزكى صلاة وأسمى تسليم.

ومع تضمن الرسالة لجانبي التأصيل والتحليل فإنها واكبت إطارها الواقعي قصد تطبيق مفاهيم التنزيل على الواقع ابتغاء إفادتها ومحاورتها لعقلية الحاضر، علاوة على أنها تشربت أهمية أخرى من الجانب الاستقرائي، سواء في المباحث الدلالية أو التاريخية أو الميثولوجيا الخاصة بالديانات في إطارها القيمي، باعتبار أن الدعوة إلى أي دين يستفتح في العادة بأن مآله الرحمة أو الجنة أو السعادة في الدنيا وما بعد الموت.

مشكلات البحث:

تستوقفنا ثلة من المشكلات العلمية أثناء دراسة موضوع تتجاذبه تخصصات كثيرة، مثل موضوع الرحمة، حيث يمكن إجمالها في الآتي:

1. ظلت عدد من الدراسات الفلسفية سواء منها القديمة أو الحديثة متشبثة بالرأي القائل بثنائية الخير والشر وتغليب الرأي القائل بأن الإنسان ميال إلى الشر ككثير من البهائم التي لم يظهر منها أي ملحظ للقيم ما عدا استغراقها في إشباع نزواتها، وهذه مشكلة قديمة عالجتها هذه الرسالة من خلال البرهنة على أن بنيوية الإنسان الأصلية يستحيل أن تكون ناشئة من الشر، وإنما نشأت على الرحمة، ولا يمكنها أن تحيا لولا وجود تلك الرحمة التي تتقاسمها المخلوقات كلها.

2. امتلأت كثير من كتب التراث بوصف آيات السيف بالقرآن بأنها الناسخة لكل موادعة أو مهادنة سبقتها، وهذه مشكلة أتت جراء المعلومة الدخيلة في كتب التفسير، وقد قام الباحث بتحليل هذه القضية التي تسببت في وصف القرآن بكتاب دموي لدى بعض المعاصرين.

3. يبدو على سمات فئام من المنتسبين إلى الإسلام وتطبيق الظاهرة ضرب من القنوط من رحمة الله، لاسيما أثناء دعوتهم إلى الدين، فتجد بعضهم لا يرى من الدنيا إلا جانب الامتحان منها، ولا يبصر من أسماء الله وصفاته إلا ما يقتضي العذاب والجبروت والانتقام. ولا شك أن هذه مشكلة ظاهرة خاصة في المجتمعات التي تشهد انتشار جماعات نشأت على غير بينة أو علم، بحيث يغلب عليهم طابع الدروشة الممنهجة بأسلوب

الترهيب والانطواء على رأي زعيم الطائفة فقط، واعتقاد الحق محصورًا في منهاجها، والجزم بأن كل مخالف لها سوف يصلى نار جهنم؛ مما يولد مجموعة من التصرفات أقلها ظاهرة التنابز بالألقاب المليئة بالكراهية، وتسفيه الأديان والطوائف، وترويج عدد من المعلومات الدخيلة على الدين كان من أشهرها وصف رسول المرحمة بأنه (الضحوك القتال)، ونبي الرحمة من هذا الوصف بريء.

4. من العادة المجتمعية أن كلّ من يتبع دينًا يحاول رفعه على كل دين، وبالتالي يقع أحيانًا في جزء من ازدراء الآخرين من حيث لا يشعر، وهذه مشكلة قد تعالج حينما نؤمن بأن كل الأديان متفقة على اعتبار الرحمة بالخلق أصل الأصول، وأن الناس كلهم يشتركون في محياهم ومماتهم وهم يرجون ما لدى الله تعالى من الرحمة والعفو، ولذا ركزت الرسالة على علاج هذه المشكلة التي ينبغي بث حلولها عن طريق سرد أهم النصوص المقدسة المؤكدة على وجود نظرية الرحمة في الديانات كلها.

منهجية البحث:

يبدو أن أنجع المناهج في العلوم الإنسانية ما يعتمد على الجرد الطويل، وغربلة الدخيل، وتمييز الأصيل، ووفرة الإيضاح بالنقد والتحليل، وهذا ما سعت الرسالة إلى تطبيقه في هذا الموضوع المرتبط بأصول تراثية، ووثائق مقدسة تتجذر في عمق التاريخ، وتمس أبواب الديانات، وتواكب مستجدات العصر.

والمزج بين التأصيل والتحليل أمر في غاية الأهمية في الموضوعات الدينية والاجتماعية، لاسيما إن كان فيها تمحيص أو نقد لبعض الموروثات التي تستدعي تصحيحًا أو إعادة لهيكلتها وفق منظومة جديدة تستجيب لمقتضيات العصر الجديد؛ الذي يعيش ضمن تحالفات دولية تسلك مسلك التعايش واحترام رأي المخالف.

وإذا كان منهج التحليل يعتمد على تفكيك المعلومات المنضوية في باب معين، فإنه من الواجب التنصيص على ارتباط موضوع الرحمة أو نظرية الرحمة بقائمة من المعلومات التاريخية والاجتماعية والنفسية والتشريعية التي تجعل من الباحث يضطر إلى جرد عشرات من المصنفات للوصول إلى بلورة المعلومة الصحيحة وسط هذا الكم الهائل من الكتب في العلوم الإنسانية والاجتماعية، إذ يؤدي الجرد الدقيق إلى تفعيل حيثيات التحليل من نقد واستنباط ومقارنات ووصف لكل الملابسات.

كما أن المنهج التأصيلي يضفي على الموضوع -لاسيما إن كان دينيًا- طابع التتبع التام لمنابته، أو بمعنى أدق تطبيق منهجية الاستقراء التام وفق ما تقتضيه نظرية الرحمة من خلال القرآن الكريم، حيث تم ربط ركائز الموضوع بمجموعة من الجزئيات التأصيلية للكتب المقدسة للوصول في الأخير–وبشكل موضوعي- إلى صحة نظرية وجود الرحمة في كافة الديانات. ولا يخفى أن المنهج الوصفي بحاجة إلى الرجوع إلى التراث اللغوي والديني والتشريعي قصد توثيق المعلومات المراد تحليلها من المنظور الإنساني أو التشريعي الفقهي.

الدراسـات السـابقـة:

قد تم عقد مؤتمر في قسم الدراسات الإسلامية –كلية التربية- خلال سنة 2016 بجامعة الملك سعود تحت عنوان (المؤتمر الدولي عن الرحمة في الإسلام) وكانت أبرز المباحث التي تتلاقح مع رسالتي المحور الأول: تأصيل خلق الرحمة في الإسلام ضمن الرحمة في القرآن الكريم، وفي طيات هذا المبحث مقالات للمشاركين تتقاطع مع ما تم ذكره في مبحث استقراء ألفاظ الرحمة في القرآن الكريم، وقد تقدم سلطان الصاعدي بدراسة (مضامين الرحمة في القرآن الكريم) وبحث حمدان العنزي (رحمة النبي في القرآن الكريم)، وبحث خلود العبدلي (خلق الرحمة ومنهج القرآن الكريم في الترغيب فيه)، وبحث محمد رومان (خطاب الرحمة في القرآن الكريم مقاربة في الأبعاد والدلالات)، وبحث قاسم قادة (آيات الرحمة في القرآن الكريم دراسة لسانية في البنية والمحتوى)، وبحث إيمان عامر (الدلالة المعجمية في الآيات الواردة في الرحمة)، وبحث أنور خطاب (الرحمة في القرآن الكريم)، وبحث محمد سعيد (الرحمة في القرآن الكريم دراسة تأصيلية موضوعية)، وبحث عائشة هزاع (استراتيجية الإقناع في آيات الرحمة المبدوءة (بـ قل)، وبحث عبد الرؤوف عيسى (الرحمة في القرآن الطفل نموذجًا)، وبحث ليليا شنتوح (الرحمة في القرآن الكريم والكتاب المقدس دراسة مقارنة).

ويلاحظ على غالب البحوث اعتمادها على الجرد المطلق، وضعف جانبي التحليل والتنزيل، وهذا يلاحظ كذلك على كتاب راغب السرجاني باسم

(الرحمة في حياة الرسول ﷺ)، وكما نجد بعض الدراسات المورِدة لنمطية جرد النصوص كذلك لدى الشيعة مثل كتاب نبي (الرحمة من منظار القرآن وأهل البيت) لمحمد الري شهري.

أسئلة الدراسة:

إنما اعتمدت عنونة وسم الرسالة بنظرية الرحمة في القرآن الكريم كي أطلق عنان الاسترسال في التباحث الموضوعي من دون قيود تكبح صيرورة المعطيات والنتائج بتلقائية، لأن النظرية بغية انتقال الهاجس أو الخاطر من مجرد فرضية إلى نظرية يعتمد في الأساس على وجود مستمسكات الاستدلال واعتماد البرهنة المنطقية، ثم تأتي مرحلة تثوير المعلومات لتحويلها من المبادئ العامة الموحدة إلى نظريات متجردة مطردة تتماشى مع طباع البشر في التحليل، وعندئذ يمكن البت في تلك النظرية بأنها قابلة للتطبيق المتكرر من دون وجود أخطاء أو ثغرات مضطربة أو غير مفهومة، وبعد صفاء مراحل التحليل تتحول تلك النظريات إلى حقائق تصلح لتوظيفها قوانين عملية في المجال الذي يوائمها. ومن اعتبار الرحمة فوق طاولة الدراسة نستطيع أن نطرح الأسئلة المباشرة التي ينبعث بادئ الرأي على النحو التالي:

1- كيف يمكن إقامة البرهان على أن الأصل في بنيوية البشر الرحمة؛ مع وجود مذهب القائلين بأن الأصل في الإنسان الشر؟

2- ما مدى وجود المرحمة والدعوة إليها في نصوص الديانات كلها؟

3- هل اعتبار وجود الحدود في الشريعة ينافي نظرية الرحمة؟

4 - ما هي الأسباب التي تجعل من الإنسان عديم الرحمة، لاسيما مع وجود تمثله للسلوك الديني؟

5 - كيف يمكن تحليل أسماء الله وصفاته والاستدلال بها كلها في إثبات الرحمة الإلهية؟

مميزات هذا البحث:

يبدو أن كل بحث يستمد مميزاته من خلال النتائج المفردة التي توصل إليها، علاوة على الجوانب الأخرى كزخم المراجع، ودقة التحليل، وتوظيف النقد، واستصحاب منهجية التأصيل، لاسيما إذا كان البحث متعلقًا بالعلوم الإنسانية.

ويمكن اعتبار هذا البحث متميزًا بالآتي:

1 تحليل سور القرآن كلها ليدل جميعه على الرحمة باعتباره السمة الأولى للإسلام، بحيث تم التنصيص عليه في القرآن المكي مثل ﴿فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ [الأنعام: 157] والمدني مثل ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾ [آل عمران: 159].

2 نقد ما زعمه كثير من المفسرين بأن آية السيف ناسخة لآيات الموادعة والصفح.

3 تحليل خطاب الفكر المتشدد من خلال استقراء أسباب قنوطه وتقنيطه من رحمة الله.

4 إيجاد أوجه التقارب بين نصوص الكتب المقدسة في نظرية الرحمة.

توظيف مجموعة من المعلومات في العلم الحديث لإثبات تسيير الكون برحمة الخالق سبحانه وتعالى،وأنه يريد بنا الرحمة والعدل والخير﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: 108] ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمۡ وَيَهۡدِيَكُمۡ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَيَتُوبَ عَلَيۡكُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾ [النساء: 26] ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمۡۚ﴾ [النساء: 28]، ولا ريب أنه سبحانه ﴿فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [البروج: 16].

5 تحليل جملة من الأحاسيس القلبية وتعلقها بالسلوك الظاهري من خلال نصوص الوحي.

خطة البحث:

يحوي هذا البحث أربعة فصول، سقناها على النحو التالي:

- **الفصل الأول: الرحمة والأنثروبولوجيا، وفيه ثلاثة مباحث:**

المبحث الأول: تأصيل بنيوية الرحمة في البشرية

المبحث الثاني: أثر الأخلاق في تاريخ الديانات القديمة

المبحث الثالث: الرحمة في نصوص الديانات قبل الإسلام

- **الفصل الثاني: نظرية الرحمة في القرآن الكريم، وفيه ثلاثة مباحث:**

المبحث الأول: استقراء ألفاظ الرحمة في القرآن الكريم وتحليلها

المبحث الثاني: تأصيل نظرية الرحمة في علم الأسماء والصفات لله تعالى

المبحث الثالث: علاقة الرحمة ببعث الرسل ومنهجهم في ممارستها

- **الفصل الثالث: النظرية الكونية للرحمة في القرآن الكريم، وفيه ثلاثة مباحث:**

المبحث الأول: حقائق التراحم في تسيير الكون من خلال القرآن

المبحث الثاني: الرحمة في التشريع من خلال القرآن الكريم

المبحث الثالث: الحدود في القرآن ومقصدية الرحمة

- **الفصل الرابع: شبهات وردود، وفيه ثلاثة مباحث:**

المبحث الأول: مزالق الفهم لنظرية الرحمة وعلاقتها بالوسطية

المبحث الثاني: أسباب القنوط من رحمة الله في الفكر المتشدد

المبحث الثالث: نظرة الرسالة القرآنية إلى ميزان أعمال القلب وما يترتب عليها من السلوك

ثم ختمت البحث بخاتمة ضمنتها أهم النتائج والتوصيات.

الفصل الأوّل

الرحمة والأنثروبولوجيا

المبحث الأول

تأصيل بنيوية الرحمة في البشرية

المبحث الثاني

أثر الأخلاق في تاريخ الديانات القديمة

المبحث الثالث

الرحمة في نصوص الديانات قبل الإسلام

الفصل الأوّل

الرحمة والأنثروبولوجيا

المبحث الأول: تأصيل بنيوية الرحمة في البشرية

إن التطلع نحو معرفة الوقائع الماضية والمستقبلية من الأشياء التي شغلت الفكر الإنساني من جهة أن الإنسان تربطه جذور تاريخية بنسَبه وعرقه وموطنه، وتشغفه استشرافات مستقبلية ممزوجة بهمّ مدروس أحيانًا، واستسلام للمقدرات مرة أخرى. ومعلوم أن صبغة التأصيل من محترزاتها الاستقراء، ولازم من هذا المصطلح تأريخية الحدث المدروس، من حيث كونُه أمرًا مشاعًا بين البشر، على اعتبار التأريخ للتاريخ من المظنونات العقلية التي تتجاذبها الآراء؛ شريطة اقتران الآراء بوسائل البحث، كالأخبار والآثار المستفيضة، وتوظيف الأنثروبولوجيا والبيولوجيا.

غير أن النظر التاريخي قد يغلب عليه التوقع والتخمين، بسبب قصور الإنسان في الحفاظ على المآثر؛ عينيةً كانت أو علمية أو خبرية، مما يستدعي ربط البحث بجملة من القرائن قصد الوصول إلى جواب هذا المبحث. وثمة علاقة تركيبية بين التأصيل والبنيوية من خلال قاسم مشترك بين المنهجين معًا، إذ التأصيل وجودي، والبنيوي نفسي، والمزج بينهما يُسفر عن هذه الكينونة غير المتناهية في مسالك صفات البشر.

تلك الصفات التي هي أعراض تلتفّ حول جوهر الإنسان، ويتشرّبها جراء المتغيرات المتنوعة، التي يكتسب منها الإنسان أشتاتًا من الصفات المتلائمة، والمتضاربة أيضًا، وإذا حُتّم على الإنسان أن ينشأ بين فردين على الأقل، فإن تلك المتغيرات تصاحبه كمصاحبة مكوّنات التربة لما ينبت عليها، وهي من دون شك جدلية ضاربة في التاريخ، ومصدَّقةٌ بالبيولوجية المثبتة للتطابق بين الطين والإنسان، فكما أن الطين مكوَّن من ماء ومعادن ونحو ذلك، فإن الإنسان معادن، تتفاوت منازلها بين المتين والمهين، مما ينتج لزوم القول بأن الصفات التي تتحلى بها الأنفس ماهي إلا صورة عن ذلك الجوهر.

كما أن دراسة أصل الممارسات البشرية وطبائع المجتمعات يقودنا بطبيعة الحال إلى الاستقراء والبحث في التاريخ القديم، وكل دراسة تاريخية حتمًا لا يمكن الجزم بها يقينًا، بل هي من قبيل الظن والافتراض، غير أن التاريخ يُبحث فيه ويُتقصّى بالنظر في علل الحوادث، حيث إن الحوادث الحاصلة في تاريخ البشرية تؤثر بطبعها في مجريات الزمان اللاحق، ويُعلم من هذه اللواحق طبيعة السوابق المسببات، إذ التاريخ بأسره حلقات متتابعة متصلة بالعصور القديمة السابقة، يستطيع أولو الألباب في كل عصر أن يتفطنوا لهذا المنهج بسبب كونه محتملًا للوقوع في المستقبل، أو أن يُتصور به حوادث الزمان المنصرم[1]، وإن كنا في هذا المنهج سنخالف الفلاسفة اليونان الذين لا يؤمنون باتصال التاريخ في قضايا الأسباب، ولا بتأثير حوادثه[2].

وعند الحديث عن الجنس البشري فإننا نحاول فهم ذلك الإنسان المليء

---

1. لوبون، غوستاف، **حضارة العرب**، (ترجمة: عادل زعيتر)، الأهلية للنشر والتوزيع، الأردن، ط 3، 2019، ص 33 - 41.

2. فوكوياما، فرانسيس، **نهاية التاريخ والإنسان الأخير**، (ترجمة: فؤاد شاهين والآخرون) مركز الإنماء القومي، لبنان، 1993، ص 81.

بالعواطف، والتي يعبِّر عنها بالحالات البيولوجية[1]، وهو يعيش تلك الحالات في نشاطاته مع الإنسان الآخر، فتاريخه حافل بتلك الممارسات العاطفية إيجابية كانت أم سلبية، ولا شك أن هذا التاريخ قد صور لنا تلك الممارسات في المجتمع المدني للبشر، فالباحث في طبائع البشرية، والمتمعن في تاريخهم، يجد صورًا من تلك العواطف متحققة بين أفرادها في معاملاتهم، ونشاطاتهم الاجتماعية، إذ الإنسان مدني بطبعه كما تقرر عند الحكماء، فيكون بذلك منسجمًا مع أبناء جنسه في تحقيق حاجاته المادية والمعنوية[2]، في نسق تبرز فيه العاطفة باعتبارها سبيلًا للحوار والتعايش، أو الخصومة والحرب.

وفي سياق الحديث عن الرحمة لا ننكر النزاعات الحاصلة بين فئام من البشرية في بعض المجتمعات، لكن لا نجزم بأن النزاعات في حد ذاتها خالية من شوائب الرحمة، فالنزاع أيضًا محرك للمجتمعات عن طور الجمود، ومعين لها على التطور والتكيف مع الظروف الحادثة[3]، وإن كانت النزاعات بطبيعتها تورث الألم، فإننا لا يمكننا العيش في هذه الحياة الدنيوية من غير اجتراع الألم باعتباره مكونًا مهمًا فيها، فإذا فقد الإنسان لذة الشعور بالوجود، أو الانتصار على الشر؛ يفقد على إثره أسباب الرغبة في العيش ومواصلة الحياة. فلا يتصور أن يكون المجتمع في حالة من الاطمئنان والركود دون ألم ومنازعات، وإلا فلا سبيل إلى النمو والتقدم في الحضارات، وهذا الألم وإن هالت مفاجعه فإنه محمود مآله، فإن الشيء لا يعرف إلا بنقضيه.

1. Damasio, Antonio R. "Emotion in the Perspective of an Integrated Nervous System." Brain Research Reviews, vol. 26, 1998, pp. 8386-. ScienceDirect, doi:10.1016/S0165-7-00064(97)0173.

2. ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، **ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر**، تحقيق خليل شحادة، دار الفكر، بيروت، 1401 هـ - 1981 ، 1/594.

3. الوردي، علي، **مهزلة العقل البشري**، دار كوفان، لندن، ط 2، 1994، ص 20.

فلو نظرنا إلى الإنسان البدائي في أمريكا الشمالية مثلًا؛ فإننا لا ننفي الصراع الحاصل بين تلك القبائل البدائية في تلك المنطقة، لكننا نجد قبيلة (كاميا) تبادل قبيلة (ديغونيو) محصول البلوط بجزء من مزروع البطيخ، في نوع من أنواع المقايضة التي لا يتصور حصولها دون نزعة الرحمة والحاجة.[1] ومن هذا السياق نعي أن الأحداث الواقعة منذ آلاف السنين تؤثر على البشر في وقتنا الحالي، وهي كذلك على الصعيد النفسي أوضح وأبلغ، فكثير من الحالات المعنوية التي يكون عليها الإنسان البالغ هي نتيجة ترسبات قديمة سبقت هذه الحالة، فأنتجت إنسانًا عاطفيًا بشكل من الأشكال، يؤثر ويتأثر، ويتفاعل مع محيطه ومجتمعه، رغم اختلاف الخصوصية الفردية بين شخص وآخر.

وتلك الحالة المعنوية التي يكون فيها يمكن الكشف عنها، ومعرفة أولها بالنظر والتتبع في الأحداث الحاصلة في مقتبل عمره، وتفسيرها بالنظر والتحليل الصحيحيْنِ للعوارض التي أثرت على جوهره، وأنتجت منه سلوكيات تعد عوارض مؤثرة في أفراد آخرين في مجتمعه، وبذلك «تتكون الأمم من مجموع أفرادها».[2] لذا يقول المفكر محمد أسد:

تطور الأمم ومكوناتها الفكرية مرتبط بالخبرات والتجارب والأحداث التي مر بها أفرادها في طفولتهم، قد تكون تلك التجارب والخبرات مبهجة، وقد تكون مؤلمة تبعًا لتصورات الطفولة البسيطة عن حدث معين، وأثر كل حدث وتجربة ويتوقف على درجة حدته، والألم الذي يسببه.[3]

---

1. ليبس، يوليوس، **أصل الأشياء: بدايات الثقافة الإنسانية**، (ترجمة: كامل إسماعيل)، دار المدى للثقافة والنشر، سورية، ط 2، 2006، ص 118.
2. أسد، محمد، **الطريق إلى مكة**، مكتبة الملك عبد العزيز، الرياض، 1424هـ، ص 37.
3. السابق، ص 19.

ومن هـذا المنطلـق يكـون السـبر عـن سـلوك الإنسـان، وتلمـس اللبنـات المؤسسـة لبنائـه، وتعـرف أصولـه المكونـة لذاتـه وخواصـه المعنويـة، والمؤدي بطبيعـة الحـال إلى إدراك الحالـة المعنويـة لمجتمـع من المجتمعـات أو البشـرية جمعـاء، باعتبارهـا سلسـلة مـن التأثيرات المتواصلـة، وإذا أدركنـا أن الإنسـان قابل للقراءة والتفسير، وأن صفاته وسلوكياته تفهم بالتحري ومعرفة التأثير، أدركنا أن البشر كتاب مفتوح ختامه هو نتاج مطلعه. وإذا ما نظرنا في صفحات هـذا الكتـاب -البشـر- وجدنـا علامـات الخير والشـر في سـلوكياتهم وأحوالهـم؛ بحيث لا يمكن لمن اغتر بزهو العيش أن ينكر وجود الشر، ولا من ذاق مرارة الحياة أن ينكر وجود الخير، فهما نقيضان موجودان بطبيعة النفس البشرية المعرَّضة لتأثير الحوادث الطبيعية والبشرية أيضًا، بل إنَّ كلاًّ منهما يميز الآخر ويبينه، حيث إن إدراك حال بوصف معين هو علم بنقيض ذلك الحال. يقول ابن خلدون: «قد لا يتم وجود الخير الكثير إلا بوجود خير يسير من أجل المراد، فلا يفوت الخير بذلك على ما ينطوي عليه من الشر اليسير».[1]

إذًا فالشر واجب الحدوث كما هو في الخير، وذلك مؤداه التنازع والتدافع المستمران بين البشر، وبالرغم من ذلك فإن البشر ميالون إلى الخير ومندفعون إليه بفعل طبيعتهم البيولوجية، وانخراطهم في الحياة الاجتماعية المدنية، القائمة على أساس التراحم والتضامن، بينما نجد السلوك الشرير نسبيًا عارضًا، حتى قال جون كارل (John Carl Flügel): «الإنسان حيوان يعيش بصحبة غيره من بني الإنسان، ويكاد يعتمد في سنواته الأولى على الآخرين اعتمادًا كليًا، لذلك كانت لديه ميول طبيعية كثيرة تؤهله للحياة الإنسانية

1. ابن خلدون، **مقدمة ابن خلدون**، تحقيق عبد الله محمد الدرويش، دار يعرب، دمشق، 1425هـ 2004.

المتناسقة ولحماية الصغير والضعيف، وكان قدر كبير من السلوك الأخلاقي غريزيًا وتلقائيًا». [1]

ونجد في التراث الإنساني الإسلامي أنه اعتبر الشر كله راجعًا إلى العدم، أي عدم الخير وأسبابه المفضية إليه، ويقول ابن عبد العز الحنفي في شرح العقيدة الطحاوية:

وهو من هذه الجهة شر، وأما من جهة وجوده المحض فلا شر فيه. مثاله: أن النفوس الشريرة وجودها خير من حيث هي موجودة، وإنما حصل لها الشر بقطع مادة الخير عنها، فإنها خلقت في الأصل متحركة، فإن أعينت بالعلم وإلهام الخير تحركت به، وإن تركت تحركت بطبعها إلى خلافه. وحركتها من حيث هي حركة -خير-، وإنما تكون شرًا بالإضافة، لا من حيث هي حركة، والشر كله ظلم، وهو وضع الشيء في غير محله، فلو وضع في موضعه لم يكن شرًا، فعلم أن جهة الشر فيه نسبية إضافية. ولهذا كانت العقوبات الموضوعة في محلها خيرًا في نفسها، وإن كانت شراً بالنسبة إلى المحل الذي حلت به، لما أحدثت فيه من الألم الذي كانت الطبيعة قابلة لضده من اللذة مستعدة له، فصار ذلك الألم شرًا بالنسبة إليها، وهو خير بالنسبة إلى الفاعل، حيث وضعه في موضعه، فإنه سبحانه لم يخلق شرًا محضًا من جميع الوجوه والاعتبارات، فإن حكمته تأبى ذلك. فلا يمكن في جناب الحق تعالى أن يريد شيئًا يكون فسادًا من كل وجه، لا مصلحة في خلقه بوجه ما، هذا من أبين المحال، فإنه سبحانه بيده الخير كله، والشر ليس إليه، بل كل ما إليه فخير، والشر إنما حصل لعدم هذه الإضافة والنسبة إليه، فلو كان إليه لم يكن شرًا، فانقطاع نسبته إليه هو الذي صيره شرًا [2].

1. فلوجل، جون كارل، **الإنسان والأخلاق والمجتمع**، أقلام عربية للنشر والتوزيع، 2019، ص 26.
2. الحنفي، ابن أبي العز، **شرح العقيدة الطحاوية**، 2005، 232/1.

كما أن التراث البشري، لاسيما في الكتب السماوية تحدّثنا عن أصل بدء الخليقة، وأن آدم خلق من طين، وأنّه كُرّم بأن خلقه الله بيده وأسجد له ملائكتَه وعلمه أسماء كلّ شيء، ومحال مع كل هذا التكريم أن يكون أصل بنيويته الشر الذي لا يُمكن نسبته إلى الخالق الرحمن، فالخالق رحمته ذاتية، ولو كان الشر منسوبًا إليه ما خلق وما رزق. ولذلك ورد في دائرة المعارف الكتابية «الرحمة صفة من صفات الله الأساسية، والرب صالح للكل، ومراحمه على كل أعماله»[1].

وعند الصابئة في كتابهم كنزا ربا الإشارة إلى هذه البنيوية حيث ورد فيه: «يا آدم أنت لستَ من الشّر، ولا أنت من الخصام، وأنت لستَ جزءًا من الظلام»[2].

وقد بين السيوطي نحو هذا عند قوله تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ﴾ [النحل: 53].

فالنعم الدنيوية والأخروية عامة للمؤمن، لأن الضر نعمة من الله عليه لصبره، كما أن النعمة نعمة عليه لشكره، لكنه يتأدّبُ فلا يصرِّح بِنِسْبَةِ الشرّ إلى ربِّه، وإن علم أن الكل من عنده، ويعتقد أن نعمه فضلٌ من الله، ونقمه عدل منه، ألا تراه كيف ذكر النعمة بأنها من الله، ثم سكت عن الضر، بل وصف الإنسان بالاستغاثة والتضرّع عنده. وفي هاتين الآيتين عتابٌ، في ضمنه نَهْيٌ لمن يدعو الله عند الضرّاء برَفْعِ الصوت، ويَغْفُل عنه عند العافية[3].

1. حبيب، ص موئيل وآخرون، **دار المعارف الكتابية**، دار الثقافة، (د.ت)، 89/3.
2. كنزا ربا، **قسم اليمين**، ص 28.
3. السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، **معترك الأقران في إعجاز القرآن**، دار الكتب العلمية، بيروت، 1988، 350/2.

ولذلك فإن الأصل في الإنسان الرحمة، إذ هي غريزة متجذرة فيه بما دلت عليه الممارسات البشرية، ويتصدر الدلائلَ في ذلك ما نراه متناغمًا مع غريزة الأمومة والأبوة، وصفات العطف والحنو عند بني البشر، غير أن الشرور هي بمثابة نتائج لمسببات كان مآلها نوع من السلوك البهيمي كالجهل والظلم والعدوان، وهو شر نسبي ليس بسابق أزليّ، وفي ذلك يقول ابن القيم: «فالأول -يعني الشر المحض- لا يدخل في الوجود؛ إذ لو دخل في الوجود لم يكن شرًا محضًا»[1]، ويمكننا أن نعبر عن تلك المسببات بأنها انعدام ضروريات وجود الشيء، إذ أن لوازم الوجود كلها خيرة، كالعدل والعلم والإحسان والرحمة، بينما مضاداتها كالظلم والجهل وانعدام الرحمة والإحسان هي من لوازم الشر، التي لم تترتب إلا من عدم، فتكون المسببات للسلوك البشري خارجة عن أسباب الوجود، حيث يقول ابن القيم: «الشر لم يترتب إلا على عدم، وإلا فالموجود من حيث وجوده لا يكون شرًا ولا سببًا للشر»[2]، فالشر نسبي مضاف، يطرأ عن عوادم صفات الخير الوجودي.

وإن من الشرور ماهي شرور متوهمة، وحقيقتها رحمة خفية، لو تأمل العقل البشري خفاياها، ومحص عن حقيقتها، لانجلى وهمُها، وبانت مستوراتها. بل ذكر ابن عجيبة أن «الأكوان ظاهرها أغيار، وباطنها أنوار وأسرار، فمن وقف مع ظاهرها لزمه الاعتراض والإنكار، ومن نفذ إلى شهود باطنها لزمه المعرفة والإقرار»[3]، فالناظر إلى صفة الغضب باعتبارها خصلةً ذميمة، قد يغيب عنه

---

1. ابن القيم الجوزية، محمد بن أبي بكر، **شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل**، دار الفكر، بيروت، 1978، ص 181.

2. السابق، ص 181.

3. ابن عجيبة، أحمد بن محمد، **البحر المديد في تفسير القرآن المجيد**، القاهرة، 1419هـ، ص 204.

أن الغضب أيضًا سلوك دفاعي لازم لتحقيق الحماية، وقهر الأذى والضرر، وإنما شر الغضب في توجيهه في غير مجراه كالظلم والبغي والعدوان، ولهذا كان الشر إضافيًا على السلوك البشري.

ومن الجدير بالذكر أن الأنثروبولوجيا الباحثة في العلاقة المزجية بين التكوين البشري واللسانيات تُعطينا إشارات إلى بنيوية الرحمة في الأصل التكويني الأول، من خلال اعتبار (الرحمة) نعمةً، بدليل أن جمعًا من دارسي اللسان العربي وعلى رأسهم ابن سيده في المخصص يذكر ما خلاصته أن:

أصل الرحمة النعمة من قوله: ﴿هَـٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي﴾ [الكهف: 98] أي نعمة وقد يقال في قلب فلان رحمة لفلان على معنى الرقة وليس بأصل، ويدلك على أن أصله النعمة دون الرقة قولهم: رحمه الطبيب بأن استقصى علاجه أي أحسن إليه بذلك وأنعم عليه وإن كان قد آلمه بالبط وما جرى مجراه من الجبر وغيره. قال الزجاج: وحقيقة الرحمة الإنعام على المحتاج؛ يدل على ذلك أن إنسانًا لو أهدى إلى ملك جوهرًا لم يكن ذلك رحمة منه، وإن كان نعمة يستحق بها المكافأة والشكر[1].

وتحليل هذا من المنظور الأنثروبولوجي: أن الرحمة إذا كانتْ نِعمةً، فهي الأصل في التكوين البشري؛ لأن إيجاد الإنسان من العدم لا يكون إلا مِنّة من الخالق، وتفرض الضرورة العقلية والوجدانية الوجودية، أن الشرّ مناقض للوجود إذ هو وسيلة الإفناء لا الإيجاد، وما دامت الرحمةُ نِعمة فلا بد من اعتبارها هي الأصل في بنيوية البشر.

1. ابن سيدة، علي بن إسماعيل، **المخصص**، تحقيق خليل إبراهيم جفال، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1996، 255/5.

بل إن التراث الإنساني في المفاهيم الإسلامية ليصرّح بهذه البنيوية الضاربة في الأزل، مثلما يُفهم من الحديث الذي يرويه أبو داود عن عبد الرحمن بن عوف قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «قال الله تعالى: أنا الرحمن، وهي الرحم، شققتُ لها اسمًا من اسمي، مَنْ وَصَلها وَصَلتُه، ومَنْ قَطَعَها بتتُّه»[1]. وفي لفظ آخر «إِنَّ الرَّحِمَ شَجْنَةٌ مِنَ الرَّحْمَنِ، فَقَالَ اللَّهُ: مَنْ وَصَلَكِ وَصَلْتُهُ، وَمَنْ قَطَعَكِ قَطَعْتُهُ»[2]. وحريّ بسامع هذا النص أن يستحضر البعد الجيني (Genetics) لهذه القضية الخطيرة في التراث الإسلامي، حيث اعتبرت بنيوية الرحِم هي كلّها مشتقةً من اسم الله (الرحمن)، ولا شك أن الرحم هي بوتقة التكوين البشري، وهي المحيط المنبِت للنواة الإنسانية التي تُحفظ فيها خلايا الكروموسوم والميتوكوندريا.

أضف إلى هذا ما يؤمن به كثير من علماء الميتافيزيقا أن أفعال الإله تُشتق من أسمائه، وأما المخلوق فأسماؤه تُشتَق من أفعاله[3]، وتعليل ذلك في موضوع هذا المبحث: أن الرحم لما كان اسمها مشتقًا من الرحمن فضروري منطقيًا الجزم بأنها مجبولة على الرحمة لا غير، وأن الجنين الذي فُطر ضمن مشيمتها وشرايينها إنما يُفطر على ذات الطبع وهو الرحمة.

وإذا كانت صفة الرحمة من الصفات الذاتية لله كما سيأتي بيانه في الفصل الثاني؛ فمن الجدير بالإيراد هنا أن الروح الإنسانية تكتسب بنيويتها

1. أبو داود، سليمان بن الأشعث، **سنن أبي داود**، تحقيق تلطف حسين الدهلوي، المطبعة الأنصارية بدهلي، 1323هـ، كتاب الزكاة، باب صلة الرحم، رقم الحديث 1694، 60/2.
2. البخاري، محمد بن إسماعيل، **صحيح البخاري**، تحقيق أحمد معبد عبد الكريم، دار التأصيل، 2012م،كتاب الأدب، باب من وصل وصله الله، رقم الحديث5992، 8/ 16.
3. ابن منده، محمد بن إسحاق،**التوحيد**، تحقيق محمد الوهيبي وموسى الغصن، دار الهدي النبوي، 2007م، ص 47/2.

من ذلك السر غير المتناهي، إذ لو كانت الروح متناهية لفنيَت، والروح لا تفنى، وإنما تُرفع، وكل ما لا يفنى فهو من أمر الله، ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي﴾ [الإسراء: 85]، ومن هذه الحيثية وجب التنبيه على قضية معنى المبالغة في صيغ أسماء الله مثل (الرحمن) حيث أشار القسطلاني بقوله:"ولا مبالغة فيها؛ لأن المبالغة هي أن ينسب للشيء أكثر مما له، وصفات الله تعالى متناهية في الكمال، لا يمكن المبالغة فيها، وأيضًا فالمبالغة إنما تكون في صفات تقبل الزيادة والنقص، وصفات الله تعالى منزهة عن ذلك"[1].

وعند تأمل أصل إيجاد الإنسان، وأنه من ماء وطين، ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٖ مِّن مَّآءٖۖ﴾ [النور: 45] ﴿إِنَّا خَلَقۡنَٰهُم مِّن طِينٖ لَّازِبِۭ﴾ [الصافات: 11]. والأصل في امتزاج الماء والطين النفع لا غير، لاسيما بعد نفخ الروح التي ظلتْ - ولا تزال- سرًا من أسرار الله، ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ [الإسراء: 85].

وقد شهد العصر الحديث تطورًا لعلم الجينوم، القاضي تمامًا على عدة نظريات، من أشهرها نظرية التطور الداروينية، وفي الوقت نفسه تم الإثبات به بأن البصمة الوراثية لها جذور في فطرية القيم والأخلاق، ويقول هاني خليل:

1. القسطلاني، أحمد بن محمد، **إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري**، تحقيق المكتب العلمي بدار الكمال المتحدة، دار عطاءات العلم، 2021م، 9/14. ونقل الزَّبيدي في تاج العروس ج32 ص226 عن القاشاني قوله: وقال القاشاني: الرحمة على قسمين: امتنانية ووجوبية، فالامتنانية هي الرحمة المفيضة للنعم السابقة على العمل، وهي التي وسعت كل شيء، وأما الوجوبية فهي الموعودة للمتقين والمحسنين في قوله تعالى: {فسأكتبها للذين يتقون}، وفي قوله تعالى: {إن رحمت الله قريبٌ من المحسنين} قال: وهي داخلة في الامتنانية؛ لأن الوعد بها على العمل محض المنة، وفي تفسير الإمام أبي إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي: إرادة الله الخير بأهله، وهي على هذا صفة ذات، وقيل: ترك العقوبة لمن يستحق العقوبة وإسداء الخير إلى من لا يستحق، وعلى هذا صفة فعل.

إن معلوماتنا عن آلية التأثيرات البيئية في النمط الجيني وانعكاس ذلك على النمط الشكلي ما تزال في بداياتها، وبخاصة ما ينجم عن التأثير في الطبقة الثالثة من المعلومات الوراثية (والسمات ما بعد الجينات). وقد يكون لهذا التأثير علاقة مباشرة في الصفات التي تميز أفراد النوع الواحد بعضهم من بعض، وقد تتمخض أبحاث المستقبل عن براهين قوية تثبت دور هذه الطبقة من المعلومات الوراثية في توارث الصفات المكتسبة التي تحدث عنها لامارك[Lamarck] قبل مئتي سنة تقريبًا[1].

فكما صار الجينوم دليلًا في علم الأنساب، فهو أيضًا دليل على ما تحمله الخلايا الجينية من صفات وراثية، سواء الجيدة كالذكاء، أو السيئة كبعض الأمراض، وأصبح هذا الأمر دارجًا لدى علماء (الجينالوجيا).

إن المادة الوراثية (DNA) الموجودة في كل خلية من خلايا الإنسان تحتوي على 3.2 بليون عنصر كيميائي، كل عنصر منها يمثل ما يسمى جزيئًا، وهو عبارة عن أحد العناصر المسماة أدينين، سايتوزين، غوانين، ثايمين، ويرمز لهذه الجزئيات علميا بالأحرف (T.G.C.A) على التوالي، وإن كل حرف له محله الخاص، واكتشف العلماء الكثير من الطفرات التي تصيب (DNA)، وأن من أصعب الأمور التي تواجههم (الشفرة الوراثية)، لاسيما في الفهم الصحيح لقراءتها، إذ بمجرد إتمام مشروع قراءة الشفرة الوارثية سيصبح ممكنًا الغوص بعيدًا في أمور كثيرة كانت خافية علينا.[2]

وعندما تأسس في برلين عام 1927 معهد القيصر (فيلهلم) لأنثروبولوجيا ووراثة الإنسان واليوجينيا ويترأسه الأنثروبولوجي يوجين فيشر (Eugen

1. رزق، هاني خليل، **الجينوم البشري وأخلاقياته**، دار الفكر، دمشق، 2007م، ص 216.
2. الخلف، موسى، **العصر الجينوم**، عالم المعرفة، الكويت، 2003، ص.ص 65-73..

Fischer) لدراسة بناء شجرة الأسلاف في صفاتهم، وتم إثبات ذلك فعلًا، وكان (دافينبورت) يستنبط أن الخصيصة لا بد أن تكون وراثية بيولوجيا، وفي عام 1988 عقد في مونترو بسويسرا مجلس تأسيسي لمنظمة الجينوم البشري؛ كان الهدف منه هو المساعدة في تنسيق بحوث الجينوم البشري دوليًا. [1]

وقبل هؤلاء بأمد يرى جان جاك روسو(Jean-Jacques Rousseau) مستدلًا على أن فطرة الإنسان ميالة إلى الخيروالرحمة قائلًا: إن حكمنا على أفعالنا هو الذي يضفي عليها قيمة أخلاقية. إن صح أن الخيرخير حقًا وجب أن يكون كذلك في قلوبنا وأفعالنا، إن كان الإنسان طيبًا بطبعه، فلا يكون سليمًا عقلاً وجسدًا، إلا إذا تحلى بتلك الفضيلة. إن كان قلب البشر يتحاشى الأخلاق؛ من أين له هذا الإعجاب المفرط بأعمال الأبطال؟! وهذا التحمس المتجدد للفضيلة؟!، انزع من قلب الإنسان حب الجمال تسلب الحياة روعتها وجاذبيتها، من طغت على نفسه الشهوات الخسيسة وجردتها من كل عاطفة رقيقة، فتخندق داخل ذاته حتى لم يعد يحب أحدًا أو ينجذب إلى سواه، هذا البئيس لا فرحة تحرك أبدًا قلبه الجامد، ولا خفقة حنان تبل أبدًا عينه الجافة، لا شعور له، لا حياة له، فهو ميت قبل أن يموت[2].

غير أن نيتشه (Friedrich Nietzsche) قد أقام نكتة الإشكال من جنيالوجيا الأخلاق على تقابل طريف وصارم بين المعجم الأخلاقي والديني، وبين التعبير الإتيقي والإستطيقي، وإذا كان من اليسير أن ننقل عبارة (الخير

1. كيفلس، دانييل، وهود ليروي، **الشفرة الوراثية للإنسان**،(ترجمة: أحمد مستجير)،عالم المعرفة، الكويت، 1997، ص 16.

2. روسو، جان جاك،**دين الفطرة**، (ترجمة: عبد الله العروي)، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 2012، ص 71.

والشر) في أخلاق الفتوة عند العرب، فإننا لم نغفل عن أن ذلك ليس بالحد الوحيد، إذ وددنا مثلًا أن نقول بدلًا عن ذلك «حميد ودميم»، ويبدو في نظر نيتشه أن قيمة اللئيم مثل قيمة الكريم: هي نمط من إدارة الاقتدار، وليس وصفًا موضوعيًا[1].

وفي العصر الراهن يذهب طه عبد الرحمن إلى أنه:

يعتبر الأنموذج الائتماني أن الأخلاق الحية مستمدة أصلًا من الفطرة التي خلق عليها الإنسان، لأن هذه الفطرة تحفظ ذكرى شهادتها للإله بالوحدانية كما تحفظ شهادة الإله على هذه الشهادة، وقد ولدت هذه الشهادة الغيبية الأولى في أعماق الإنسان قيمًا أخلاقية، ومعاني روحية لا تلبث أن تصعد إلى طبقة شعوره ما أن يتعاطى شهود آيات التكوين، وآيات التكليف في نفسه، وفي الآفاق من حوله، لأن قانون الآيات يوجب ألا تنفك عن الدلالة على الشاهد الإلهي؛ وعلى هذا كانت الأخلاق التي تورثها الصورة الفطرية للدين من حيث مآخذ قيمها أخلاقًا روحية، ومن حيث توسلها بالشاهد الإلهي أخلاقًا ائتمانية؛ وتوسلها به لا يقف عند حد رؤية أنه شاهد، بل يتعداه إلى رؤية أن هذا الشاهد الأسمى موصوف بكل أسمائه الحسنى التي هي معين كل القيم الخلقية والمعاني الروحية، وعلى هذا تكون أخلاق الصورة الفطرية في ذات الوقت أخلاقًا روحية ائتمانية أسمائية[2].

---

1. نيتشه، فريديريتش، **في جنيالوجيا الأخلاق**، (ترجمة :فتحي المسكيني)، دار سيناترا، المركز الوطني للترجمة، تونس، 2010، ص 21.
2. عبد الرحمن، طه، **بؤس الدهرانية**، 2014، ص 101.

المبحث الثاني: أثر الأخلاق في تاريخ الديانات القديمة

يبدو من المنظور الفلسفي أن كينونة الإنسان بوصفه كائنًا يقيس القيم ويميز بين الأوصاف العليا التي يتخذها المثل الأعلى بين أقاربه، وبين السمات الدنيا التي تسحبه نحو مشابهة البهائم؛ كل ذلك يتراكم نحو بلورة المزيد من مقاييس الكمال المجتمعي الذي لا يمكن إلا أن يحيا بزمام الأخلاق.

ثم إن نشأة الكون وما عليه من الكائنات الحية تعدت قدرة العقل البشري على أن يقيم تصورًا صحيحًا يقينيًا لتلك البداية، ويعود ذلك لاستحالة المقدرة على خلق الكائنات الأولى من جديد، أو تهيئة ظروف عملية الخلق الأولى للقيام بالتجارب العملية أو الملاحظة[1]، وبالرغم من ذلك فإن تصنيفات الأجناس البشرية تثبت اشتراك البشرية كلهم في أصل واحد، وتشابه حضارات سكان القارات في العصر الحجري القديم، ومخلفاتهم الجسمية تدل على انحدار البشر من موطن وأصل مشترك، ومن ذلك الأصل المشترك كان التكاثر للخليقة في الأرض سعيًا في طلب الغذاء وسبل العيش الأمثل[2]، حاملين معهم جينات وراثية تعود إلى تركيبين أساسيين من الذكر والأنثى، وتلك الجينات حملت صفات البشر الجسمية والمعنوية من التركيب الأول ثم الذي يليه، يتوارث كل صفات جيل عن جيل، بالإضافة إلى قابليتهم للاتصاف بمحاسن الصفات أو بمساوئها حسب تأثير البيئة المحيطة.

1. يلماز، عرفان، **التطور نظرية علمية أم إيدلوجيا؟**، دار النيل، القاهرة، 2013، ص 37.
2. خضر، عبد العليم، **أصل الأجناس البشرية بين العلم والقرآن الكريم**، تهامة، جدة، 1407هـ، ص.ص 88-90.

ومن بين واجبات الوالدين أن ينقلوا إلى الأبناء تشريع الأخلاق، لأن الطفل أقرب إلى الحيوان منه إلى الإنسان؛ وإنه ليتلقى إنسانيته شيئًا فشيئًا، كلما تلقى جانبًا من التراث الخلقي والعقلي الذي خلفه له الأسلاف؛ والطفل من الوجهة البيولوجية سيئ الإعداد للمدنية، لأن غرائزه تهيئه للمواقف الرئيسية والتقليدية، ولا تشتمل إلا على الاستجابة للمثيرات التي توافق الغابة أكثر من موافقتها للمدنية؛ كل رذيلة كانت يومًا ما فضيلة ضرورية في تنازع البقاء، ولم نسمها رذيلة إلا لأنها تلكأت في وجودها بعد زوال الظروف التي كانت تستلزم وجودها- فليست الرذيلة- إذن- ضربًا من السلوك الراقي، بل هي في العادة ارتداد بالإنسان إلى سلوكه القديم الذي حل مكانه سلوك جديد؛ فمن الغايات التي ينشد تحقيقها التشريع الخلقي أن يوائم نزوات الطبيعة البشرية التي لم تتغير- أو التي تتغير ببطء- مع حاجات الحياة الاجتماعية وظروفها المتغيرة[1].

وفي تراكيب هذه الأخلاق يقول ابن حزم: «وَمن عرف تراكيب الْأَخْلَاق المحمودة والمذمومة، علم أَنه لَا يَسْتَطِيع أحد غير مَا يفعل مِمَّا خلقه الله عز وَجل فِيهِ»[2]، أي أن الأخلاق قد انسجمت مع تركيبة الإنسان الخَلقية، فليس للإنسان أن يتصف بغير ما جُبل عليه من الصفات الخلقية الداخلة في تكوينه البيلوجي الوراثي، إلا أن يطرأ عليه تأثير خارجي يكون محفزًا لأحد هذه الصفات بالبروز لـ(قابلية) الإنسان واستعداده للتغير.

---

1. ديورانت، ويل وأريل ديورانت، **قصة الحضارة**، دار الجيل، بيروت، 1988، 90/1.
2. ابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد، **الفصل في الملل والأهواء والنحل**، مكتبة الخانجي، القاهرة، 25/3.

ونجد الرازي يعبر عن الأخلاق الحميدة بأنها (لذة عقلية) تكمن لدى الإنسان المتخلق، تقابلها (اللذة الجسمانية) والتي تبرز عند نقص اللذة الأولى، في تعبير آخر للتكوين الخلقي عند الإنسان بين الأخلاق الحميدة وما سواها.[1]

إذن فالمجتمع المتخلق حتمًا لم يكن تخلقه حاصل فجأة، بل إن وجود البشر المؤثرين في المجتمعات كالأنبياء والحكماء كان سببًا مهمًا في وجود ذلك التخلق الحسن، وذلك كما قال عنهم أبوحامد الغزالي في معارج القدس: «لأَنهم الَّذين اطلعوا على أَحْوَاله وَحيًا وأخبارًا، وَالْعقل الْمُجَرّد كَيفَ يَهْتَدِي إِلَى مقادير الْعُلُوم والأخلاق»[2]، فالأنبياء كما هم متخلقون في أصل تكوينهم الجيني، اكتسبوا الفضائل من الوحي الإلهي الذي كان المغذي الأخلاقي الأول لـ(المجتمع الآدمي)، فوصلوا بذلك إلى (التخلق المطلق)[3]، بالإضافة إلى كونهم جميعًا متفقين في أصول الأخلاق كما اتفقوا في أصول الدين، ليكونوا بذلك عامل تأثير كبير على المجتمعات البشرية التي تجد فيهم ضرورة الامتثال، ومسهمًا مهمًا في تكوين المشتركات الإنسانية الأخلاقية.

لذا نجد أثر الأخلاق واضحًا في الديانات والمذاهب الفكرية القديمة عبر التاريخ، نلحظ فيها تجليات الأخلاق في صور تشريعات ووصايا وحكم وأمثال،

1. الرازي، فخر الدين محمد بن عمر، **مفاتيح الغيب**، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط 3، 1420هـ، 46/25.
2. الغزالي، أبوحامدمحمد بن محمد، **معارج القدس في مدارج معرفة النفس**، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط 2، 1975، ص 147.
3. بريجسون، هنري، **منبعا الأخلاق والدين**، (ترجمة: سامي الدروبي وعبد الله عبد الدائم)، الهيئة المصرية الدائمة للتأليف والنشر، القاهرة، ص 40.

فعند النظر في أديان حضارات مابين النهرين القديمة على سبيل المثال، نجد الديانة البابلية تحمل في تشريعاتها ومبادئها دعوة إلى التخلق الحسن، والعدل بين الأفراد، كما هو واضح في تشريعات (حامورابي) الذي وصف نفسه بأنه داحض للسوء والشر، حيث يقول: «لأقضي على السوء والشر، ولأقف دون طغيان القوي على الضعيف»[1]، في تصريح يمتثل فيه بالرحمة كأسلوب في التشريع والتدبير، لذلك برزت معاني الرحمة في شريعة (حامورابي) لما تضمنته من القوانين القائمة على مبدأ العدالة، وتجريم الأفعال الشريرة، في مواد كثيرة من مواد شريعته المقسمة إلى ثلاثة عشر قسمًا، في ضمان الحقوق لأصحابها، والدفاع عن حقوق الضعفاء والفقراء، والعناية بالإنسان[2]، لذلك لقب (حامورابي) بصانع السلام الذي أقام العدالة والرحمة في المجتمع البابلي[3].

وكذلك في الحضارة السومرية نجد المجتمع السومري الذي يخشى الآلهة، ويرى في إغضابها إحلالًا للهلاك والعذاب في المجتمع، باعتبارها أساس العدالة والخير في الأرض، وقد آمنوا بأن لآلهتهم الخير والرحمة المطلقة، نافين اتصالها بالشر قطعًا، بل ينسبون الشر للأرواح الخبيثة[4]، ولذلك كلف الملك السومري (أوركاجينا) نفسه مسؤولية القضاء على الجشع والفساد الإداري، والظلم في المجتمع، وحفظ حقوق اليتامى والأرامل رحمة وعدلًا بهم، فكان عصره عصر

1. الذنون، عبد الحكيم، **التشريعات البابلية**، دار علاء الدين، دمشق، 1992، ص 42.
2. الذنون، **التشريعات البابلية**، ص 48.
3. السابق، ص 93.
4. ديلابورت، ل. **بلاد مابين النهرين**، (ترجمة: كريمة محرم كمال)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1997، ص 138.

التشريع الإنساني بامتياز[1]، واستمرت هذه التشريعات الإنسانية بالنمو في مع شريعة الملك السومري (أورنمو) ليكون بذلك المجتمع السومري مجتمعًا أخلاقيًا متزنًا، مسالمًا ومتراحمًا مع غيره، ويقول في ذلك الباحث العراقي الدكتور خزعل الماجدي بأن المجتمع السومري «مجتمع منضبط أخلاقيًا، فقد كانت الأخلاق سمة أساسية من سماته، وارتبطت بعبادته، وجعلته مجتمعًا متوازنًا متواضعًا، يسير وفق أعراف اجتماعية يصعب تجاوزها، ووفق قوانين التزم بها إلى حد كبير».[2]

وقد كان مطلب تحقيق العدالة حاضرًا كذلك في الحضارة الآشورية، حيث يحمي كل من الإله (آشور) الملقب بالعطوف[3] والإله (شمش) تحقيق العدالة في المجتمع الآشوري، فكان من واجبات الملوك حماية البلاد وتحقيق أمنها، ونشر العدالة على أرضها، من منطلق عقدي وأخلاقي، فنجد الديانة الآشورية تسعى للجمع بين الفضيلة والعدالة والرحمة وفق ضوابط واضحة في تشريعاتها[4].

وفي الديانة الزرادشتية نجد المصلح الفيلسوف (زرادشت)، أو (زراتأوشتره) -بلغة الأبستاق القديمة-[5]، يقدم تصوراته للعالم الخير بأنه عالم أخلاقي، ويوضح للمجتمع انتماءه الخلقي للخير المطلق، فيقول: «أنتمي

1. الماجدي، خزعل، **الديانة السومرية**، دارنينوى، دمشق، 2017، ص . ص 459 - 470.
2. السابق، ص.ص 461-463.
3. ديلايورت، **بلاد ما بين النهرين**، ص 316.
4. الماجدي، خزعبل، **خزعل الحضارة الآشورية**، الرافدين، بيروت، 2021، ص 351.
5. الحايك، منذر، **أبستاق كتاب زرادشت المقدس: دراسة مقارنة**، ص فحات للدراسة والنشر والتوزيع، دمشق، 2019، ص 9.

إلى الفكر الخير لا الشرير، إلى الكلمة الطيبة لا الشريرة، إلى العمل الطيب لا الشرير، إلى الطاعة لا العصيان، إلى الصدق لا الكذب»[1]، مقررًا انتماءه للأخلاق الحسنة، منفرًا عن الشرور، بل يعد زرادشت الأخلاق الخيرة من المقدسات في الديانة الزرادشتية، والتي عبر عنها بـ(الثالوث المقدس)، وهي «الفكر الخير، والكلمة الخيرة، والفعل الخير»[2]، التي تضبط المجتمع وتقويه.

وفي سعي زرادشت للإصلاح الاجتماعي نجده ينبذ الشر، ويرى بأن الشر سبب لتدمير المجتمع، حيث يقول للأشرار: «وبذلك سلبتم البشر الحياة السعيدة والخلود بواسطة الروح الشريرة، والعقل والكلمة الشريرة التي علمتكم إياها الشياطين والكاذبون الأشرار؛ ليدمروا بها المجتمع»[3]، ويؤكد زرادشت كذلك على أهمية القدوة في تكوين المجتمع المتخلق، ومدى التأثير الأخلاقي الذي يبديه (المعلم) في نظام الحياة الاجتماعية، فيقول: «إن معلم الشر يفسد المعتقدات، وبتعاليمه يفسد نظام الحياة، ويمنع من اكتساب العقل الخير»[4]، وليقمع زرادشت الاتصاف بالشرورية دعا بسيادة الخلق الخير في أعمال المجتمع وتفاعل أفراده، فيقول: «يجب أن يختار الإنسان سيادة الخير من خلال أفعاله بكل حماس، إنها تجلب الثواب العظيم لمن يعمل بجد»[5].

1. الحايك، منذر، **أبستاق كتاب زرادشت المقدس: دراسة مقارنة**، ص فحات للدراسة والنشر والتوزيع، دمشق، 2019، ص 75.
2. السابق، ص 83.
3. الحايك، منذر، **أبستاق كتاب زرادشت المقدس**، ص 100.
4. السابق، ص 100.
5. السابق، ص 124.

كما يقرر زرادشت في شريعته أنماطًا من التشريعات والقوانين المستندة إلى الرحمة كخلق من الأخلاق الخيرة في التعامل مع المظلوم، فينزل أشد العقوبات الزاجرة بالمعتدي على الآخر بالضرب أو القتل أو نكث العقود.[1]

وفي الديانة الهندوسية نجد (الراشي) أو (المعلمون العظام)[2] وهم رجال الديانة الهندوسية وحكماؤها يقرون الأخلاق الخيرة ويدعون إليها في كتبهم المقدسة، إيمانًا منهم بأنها الصفات التي يدعوا إليها الإله، والتي ومن أجلها وجد، ففي الفيدا -من كتب الهندوسية المقدسة-: «من أجل سلامة الخير وتحطيم الشر، ولإحقاق الحق، فإني أتواجد زمنًا بعد زمن»[3]، وهي عندهم النهج المستقيم الواقي من الشرور أو السلوك الشيطاني، ولذلك جاء في الفيدا: «من يسلك نهجًا مستقيمًا لن ينضم إلى الأشرار»[4].

كما دعت الهندوسية إلى التحلي بالصفات العلية، وهي «..اللاعدوانية والصدق، عدم الوقوع تحت سيطرة الغضب، النكران التقشفي للذات، السلام وعدم التجسس، الرحمة بالمخلوقات، وعدم إشغال الذهن بالشهوات، اللطف والاعتدال والثبات، النشاط والتسامح، الثبات والنقاء، ترك الحقد، عدم التكبر المفرط»[5]، وهي الثروات الإلهية للبشر التي يتحقق بها الخلاص، ويكون فيها المجتمع متحررًا من الشيطان في المعتقد الهندوسي.

---

1. الحايك، منذر، **أبستاق كتاب زرادشت المقدس**، ص 167-174.
2. الحايك، منذر، **فيدا نصوص هندوسية مقدسة: دراسة مقارنة**، ص فحات للدراسة والنشر، بيروت، 2018، ص 20.
3. السابق، ص 243.
4. الحايك، **فيدا نصوص هندوسية مقدسة**، ص 253.
5. السابق، ص 285.

واستطاع «شانكارا» في حياته القصيرة البالغة اثنين وثلاثين عامًا، أن يحقق الاتحاد بين شخصيتي الحكيم والقديس، بين صفتي الحكمة والرحمة، وهو اتحاد يتصف به أسمى ما أنجبته الهند من صنوف الإنسان؛ ولد بين جماعة نشيطة في البحث العقلي من براهمة ملبار، وهم المعروفون باسم البراهمة النمبرديين، وزهد في ترف الدنيا، وانخرط في سلك «الساميناسيين» وهو لم يزل يافعًا، يعبد الآلهة الهندية على اختلافها دون أن يزعم لنفسه القدرة على فهمها على الرغم من أنه كان مغمورًا في موجة من التصوف تكشف له عن فكرة «براهما» الواحد الذي يضم الآلهة جميعًا[1].

وفي الديانة البوذية نجد المعلم الحكيم (سيدهارتا) الملقب بـ(بوذا) يدعو إلى اعتزال الشرور والإقبال على الأخلاق الخيرة، حيث يقول: «إن جميع الأعمال السيئة تنتج عن شرور عشرة، والابتعاد عنها يأتي بالحسن الجيد»، وهي القتل والسرقة والزنى والكذب والإساءة والوشاية والكلام الباطل والطمع والبغض والضلال[2]، وفي توجيهه للمجتمع ونهيه عن إتيان الشر يقول: «لا تفكروا بالشر ولا تمل قلوبكم إليه»[3].

كما يدعو بوذا إلى حسن التعامل مع البشر، وإظهار الرحمة واللطف في رد الإساءة لتأسيس حياة اجتماعية أقرب للسعادة من البؤس، حيث يقول: «إذا أساء إلي جاهل قابلته باللطف والمحبة، وكلما أطال إساءة، استسرفت

1. ديورانت، **قصة الحضارة**، 268/3.
2. الحايك، منذر، **إنجيل بودا دراسة مقارنة**، ص فحات للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط 2، 2020، ص 168.
3. السابق، ص 177.

محبة»[1]، بل إن بوذا يجعل التحلي بالأخلاق الخيرة من لوازم الإيمان، فلا يتحقق الإيمان الحق عنده إلا بالتخلق الحسن، وفي ذلك يقول: «إن المؤمن الحق هو الذي يعرف طريق النيرفانا فلا يتحد ولا يغضب ولا يحقد بل يكون طاهر القلب، صافي النية، حسن السيرة، مبتعدًا عن الشر قولًا وفعلًا».[2]

ويقرر بوذا بأن التخلق بالأخلاق الخيرة قولًا وفعلًا من سبل تحقيق السعادة، حاثًا على المداومة عليها فيقول: «إن فعل المرء الخير اليوم، فليفعله غدًا، ليرى أن سعادته في فعل الخير»[3]، فهي الفضيلة التي يرى بوذا بأنها سبيل السعادة في الحياة الحاضرة، والحياة الأخرى بعد الموت، والفضلاء هم من يظفر بها بقوله: «اتبع سبيل الفضيلة، الفضلاء هم في نعيم في هذا العالم، وفي العالم الآخر»[4]، بالإضافة إلى دعوة بوذا إلى التحرر من الكره الذي يمنع الإنسان دون تحقيق السعادة والتراحم فيقول: «لنعش فرحين، لا نكره من يكرهوننا، وبين من يكرهوننا نعيش أحرارًا من الكره»[5]، وفي هذا السياق أيضًا يقرر البوذيون أن الشفقة والرحمة طريق للتخلص من العنف والشرور.[6]

---

1. الحايك، منذر، **إنجيل بودا دراسة مقارنة**، ص فحات للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط 2، 2020، ص 214.
2. السابق، ص 214، ص 177.
3. الدامابادا **كتاب بوذا المقدس**، (ترجمة: سعدي يوسف)، دار التكوين للتأليف والترجمة والنشر، دمشق، 2010، ص 42.
4. السابق، ص 57.
5. الدامابادا، **كتاب بوذا المقدس**، ص 69.
6. كولر، جون، **الفكر الشرقي القديم**، ترجمة: (كامل يوسف حسين)، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1995، ص 309.

وفي المعتقد الكونفوشيوسي نجد المعلم الحكيم (كونفوشيوس) مؤسس الكونفوشيوسية يرى بأن الطبيعة الإنسانية هي مصدر الأخلاق، مع (إمكانية الإنسان أن يتخلق بالخلق الخير، ويضع كونفوشيوس مبدأ مهمًا للتعامل الإنساني بين البشر، وهو مبدأ (الجين) والتي تدل على الفضيلة، والإنسانية، والإحسان، والحب، والخير الإنساني، وطيبة القلب، وهو المبدأ الذي يجعل المجتمع يتسم بالإنسانية الحقة.[1]

كما يرى كونفوشيوس أن الإنسان يجب أن يكون فيه نوع من أنواع الإلزام الخلقي الداخلي يكون كقانون أخلاقي ملزم، أو ما عبر عنه بـ(الحس الأخلاقي) لكي يكون شخصًا مميزًا[2]، ولتتحقق صفة التخلق الصحيح، وضع كونفوشيوس ضابطًا للمعايير المحددة للفعل الأخلاقي، حيث يرى كونفوشيوس أن الأخلاق تقاس بما يترتب عليها من نتائج، والأخلاق الخيرة هي ما كانت تحقق أكبر قدر من السعادة والخير للآخرين[3]، ولهذا أكد كونفوشيوس أن الناس مقاييس بعض انطلاقًا من مبدأ ارتضاه في التعامل: «عامل الآخر بما تحب أن يعاملك به الآخرون»، ولهذا جعل العالم كله أسرة واحدة.ويرى كنفوشيوس أن المبدأ الأول الذي يقوم عليه الحكم هو نفس المبدأ الأول الذي تقوم عليه الأخلاق- ألا وهو الإخلاص. ولهذا كانت أداة الحكم الأولى هي القدوة الصالحة؛

1. كولر، جون، **الفكر الشرقي القديم**، ترجمة: (كامل يوسف حسين)، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1995، ص 351.
2. أبو الفتوح، هالة،**فلسفة الأخلاق والسياسة: المدينة الفاضلة عند كونفوشيوس**، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 2000، ص 65.
3. السابق، ص 70.

ومعنى هذا أن الحاكم يجب أن يكون هو المثل الأعلى في السلوك الحسن، حتى يحذو الناس حذوه، فيعم السلوك الطيب جميع أفراد شعبه[1].

وسأل كي كانج كنفوشيوس عن الحكومة قائلًا: «ما قولك في قتل من لا مبدأ لهم ولا ضمير لخير أصحاب المبادئ والضمائر؟»، فأجابه كنفوشيوس: «وما حاجتك يا سيدي إلى القتل في قيامك بأعباء الحكم؟ لتكن نيتك الصريحة البينة فعل الخير، فيكون الناس أخيارًا».

وقد كانت الدعوة إلى التخلق بالأخلاق الحميدة، والتحلي بالرحمة، جلية في حكم وأمثال الحكماء المصريين القدماء، كما ورد في دعوة الحكيم المصري (بتاححوتب) في التحلي بمحاسن الأخلاق، والمعاملة بالحسنى، وفي ذلك يقول: «إذا كنت قد تسامحت في سابق الأيام فصفحت عن شخص بغية هدايته، فدعه وشأنه، ولا تذكره بفضلك في الغد»[2]، وهو سلوك منبثق من مبدأ التراحم والتسامح، بالصفح عن المسيء واستمالته للخير، ويقول: «كن سمح الوجه، وضاح الجبين، مشرق الطلعة ما دمت حيًا»[3]، توجيهًا لإحياء نوع من التآلف بين المجتمع المصري القديم، يتحصل به التراحم والتمازج بين جميع مكونات أفراده، مما لا يدع مجالًا لحضور الشرور والتنازع بينهم، لذلك يقول: «ألا فلتعلم أن الرذيلة يجب أن تمحق، حتى يتأتى للفضيلة أن تعيش وتبقى»[4].

---

1. ديورانت، **قصة الحضارة**، 61/3.
2. كمال، محرم، **الحكم والأمثال والنصائح عند المصريين القدماء**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط 2، 1998م، ص 40.
3. السابق، ص 41.
4. كمال، محرم، **الحكم والأمثال والنصائح عند المصريين القدماء**، ص 42.

كما نجد مثل هذه الوصايا في تعاليم (خيتي بن داووف) لابنه (بيبى) تنتحي منحى الوعظ والوصاية باتباع الخير، واجتناب الشر، كمنهج في التعامل مع الآخرين، حيث يقول: «لا تتحدث بكلمات خفيفة، ولا تجعل الكلمات النابية تخرج»، وفي وصية أخرى بالتراحم يقول: «لا تكن شريرًا، فمن الخير أن تكون رحيمًا عطوفًا، خلد أثر ذكراك عن طريق حب الناس لك، فيحمد الناس الله من أجلك، ويمتدح الناس طيبة قلبك، ويتمنون لك الصحة والعافية ... واعمل على سعادة شعبك»[1].

وفي نصائح الحكيم المصري (آني) لأحد تلاميذه دعوة مماثلة في امتثال الخيروالرحمة كممارسة في المجتمعات حيث يوصي قائلًا: «ابتعد عن الرجل الشرير.. لا تجلس على حين يقف من هو أكبر منك سنًا، أو أرفع مقامًا»، في نمط من الرحمة والشفقة بالكبار، وكذلك الإحسان إلى الفقراء والرأفة بهم في وصيته بقوله: «لا تأكل الخبز في حين يقف آخر بمقربة منك دون أن تمد يدك إليه بالخبز، فهناك الغني وهناك الفقير، وما كان في السنة الماضية غنيًا صار في هذه السنة ضاربًا في الآفاق»[2].

وعند استقرائنا لنصوص الديانات القديمة، نخلص إلى أن مدار مجمل الديانات القديمة على اعتبار خلق الرحمة ركنًا من أركان التحضر البشري، نظرًا لكونها سببًا لحصول المشاركة الإنسانية في العطاء أو الابتكار بجميع أنواعه، فالإنسانية الحقة لا تملك المقدرة على تحمل معاناة الآخرين-كما

1. كمال، محرم، **الحكم والأمثال والنصائح عند المصريين القدماء**، ص 68.
2. السابق، ص.ص 93-94.

يرى كونفوشيوس-[1]، فلا تكاد تخلو نصوص الديانات القديمة من الدعوة إلى ممارسات ملازمة للرحمة، أو الدعوة إلى التراحم باعتباره عبادة بذاته، في سياق يثبت مدى تحضر تلك المجتمعات المتدينة، نظرًا لملازمة التشريعات الدينية القديمة -في مجملها- للنهج الخلقي الحسن، لذلك بقيت تلك الحضارات خالدة في صفحات التاريخ، وأثر قوانينها الدينية الخلقية متوارث على امتداد الأزمنة الموالية، تسقى من معين واحد.

1. كولر، **الفكر الشرقي القديم**، ص 410.

المبحث الثالث: الرحمة في نصوص الديانات قبل الإسلام

يرى سبينوزا (Baruch Spinoza) أن نوابغ الإنسانية الذين نعترف لكدهم ومهارتهم بالفضل العظيم لم يتخلفوا عن تأليف عدد من الكتابات الجميلة المتعلقة بتوجيه الحياة توجيهًا سويًا، وعن تقديم نصائح كلها حصافة للبشر. أما عن تحديد طبيعة الانفعالات وقوتها وما تستطيع النفس من جهتها للتحكم فيها، فهذا في نظر سبينوزا لم يتطرق إليه أحد، وفي الحقيقة فإن ديكارت –رغم تسليمه بسلطان النفس المطلق على أفعالها- حاول أن يفسر الانفعالات البشرية بعللها الأولى وأن يبين في الوقت نفسه بأي وجه يمكن أن يكون للنفس سلطان مطلق على الانفعالات[1]. ومعلوم أن كانت (Immanuel Kant) أسس الأخلاق على منطلق (الشفقة) وهي في الحقيقة رحمة، أو صوت باطني كما هو عند روسو إذ يقول: (ألا أيها الضمير، أيتها الغريزة الإلهية والصوت الخالد العلوي)[2].

والإنسان في علاقاته مع الغير يتبع مجموعة من المعايير والقيم تصبغ سلوكه بالصبغة الأخلاقية. ومن هنا فكلما زاد الإنسان ارتقاء في السلم الحضاري زادت حياته تعقيدًا وتكاثرت أهدافه وتعددت أغراضه وترامت آماله، ومن هنا كانت النظرة الفاحصة بحثًا عن أصول الأخلاق في المجتمع

1. سبينوزا، باروخ، **علم الأخلاق**، (ترجمة: جلال الدين سعيد)، 2009، ص 146.
2. جوليان، فرانسوا، **جدل في الأخلاق**، دار الجنوب للنشر، تونس، 1995، ص 47.

المتحضر المعقد أشد صعوبة منها في المجتمع البدائي [1].

إن الجذور العميقة للأخلاق، والممتدة إلى مبتدأ المجتمع الأول، تحيلنا إلى إدراك نوع من المقاربة بين أخلاق المجتمعات والمفارقة في أحيان أخرى، مما يدعونا إلى التساؤل عن طبيعة المشترك الأخلاقي عند المجتمعات الإنسانية، هل هي متعلمة أو متواضعة؟

الجواب عن هذا التساؤل يكمن بالنظر الصحيح في منبع الأخلاق، وإننا في هذه الحالة إذا ننطلق من المجتمع الأزلي الأول، وهو (المجتمع الآدمي) بإجماع الأديان السماوية، والتي أقرت -لاريب- بأن آدم هو البشري الأول، والمؤسس لأولى المجتمعات الإنسانية على وجه الأرض، ويستلزم أن يكون تكوينه الخُلقي هو المؤسس لأخلاق المجتمع الأول.

وقد اتفقت جميع الأديان السماوية كذلك أن آدم رجل يوحى إليه من الإله القادر، ولما كان ذلك الإله القادر متصفًا بصفات الكمال والجمال والجلال، كان وحيه إلى آدم بأنه علمه الخير لإتيانه، وعلمه الشر لهجرانه، فكان آدم المعلم الأول في المجتمع الأول، والمنشأ الأول للخواص الخُلقية المتناقلة، والوحي هو المنبع الذي استقى منه الأخلاق التي تعلمت منه.

وعلى هذا يكون علم الأخلاق هو الفن والعلم اللذين يعدان الإنسان لبلوغ هذه السعادة النهائية السرمدية؛ ويمكن تعريف الطيبة الخلقية أو الفضيلة بأنها السلوك المؤدي إلى غاية الإنسان الحقة ؛ وهي أن يرى الله. والإنسان

1. عويضة، كامل، **برتراند راسل فيلسوف الأخلاق والسياسة**، دار الكتب العلمية، بيروت، 1993، ص 24.

بطبعه ميال إلى الخير- المرغوب فيه - ولكن ما يراه هو خيرًا ليس في كل الأحوال خيرًا من الناحية الأخلاقية؛ وقد عصى الإنسان الله بسبب خطأ حواء في الحكم على ما هو خير، وهو يحمل الآن في كل جيل وزر هذه الخطيئة الأولى. وإذا ما سأل إنسان عند هذه النقطة لم خلق الله الذي يعرف كل شيء قبل حدوثه، رجلًا وامرأة قدر عليهما أن يكونا مشغوفين بالمعرفة، وخلق جيلًا قدر عليه أن يكون ملوثًا بهذا الأثم الموروث، أجابه تومس إن المستحيل على أي مخلوق بمقتضى قوانين ما وراء الطبيعة أن يكون كاملًا، وأن حرية الإنسان في أن يأثم هي الثمن الذي يجب عليه أن يؤديه نظير حريته في الاختيار. وإذ سلب الإنسان حرية الإرادة وأصبح مجرد آلة ذات حركة ذاتية لا تسمو على الخير والشر بل تنحط دونهما، ولا تكون لها كرامة أكثر من إنها آلة [1].

وقد كانت قبل الإسلام الديانة المسيحية حاملة لواء الأخلاق، إذ أعلنت حين وصولها إلى أوروبا أنها وحدها الكفيلة بنشر التعاليم الصحيحة للأخلاق، لأنها تتلقاها من الوحي بطريقة مباشرة لا تستطيع أن تستولي عليها أهواء الفلاسفة الذين لم يخرجوا عن كونهم من بني البشر المحرومين من العصمة. ومن هذا الحين لم تعد الأخلاق قسمًا من الفلسفة مؤسسًا على النظريات العلمية، ولم يعد الذكاء الإنساني هو النقطة الأساسية التي تبتدئ منها الأخلاق كما كانت الحال عند اليونان، بل أصبح هو الوحي المسيحي، وأصبح الخير المطلق في نظر الأخلاقيين المسيحيين يصعب تحقيقه كله على هذه الأرض، وإنما يجوز أن ينال منه الإنسان شيئًا يسيرًا، وصار الإحسان وحب

1. ديورانت، **قصة الحضارة**، 137/17.

الله أجمل الفضائل وأرقاها، بل هما الوسيلة الوحيدة الموصلة إلى نيل الخير المطلق والسعادة الكاملة[1].

إن الأديان السماوية لم تزل تقر وتدعو إلى امتثال تلك الأخلاق الرحيمة، وإن الممحص في نصوصها، والمستغرق في كتبها المقدسة، يجد قيمة الرحمة من القيم الكبرى المتمثلة في جملة من نصوص الأديان قبل الإسلام.

ففي التوراة مثلًا (كيف لا يظهر الرحمة نحو إنسان مثله شخصيًا، ويطلب الغفران لذنوبه؟)[2]، (علينا إظهار الرحمة)[3]، (ورحمتك وسعت من أرادت من أبناء إسعادك)[4]، (وبفضلك فقط قد يصبح الإنسان صالحًا، وأنت تقويه برحمتك العميمة)[5]، (إنك رب رحيم غني بعطاياه)، (إنني أعلم أنك أنت الرب أنت رحمن ورحيم)، (حتى تحفظه من الشر وتنجيه من فتنة يوم الحساب طبقًا لرحمتك، وأما أنا فمخلوق من تراب معجون بالماء)[6].

كما نجد عددًا من تشريعات المشنا اليهودية قد روعيت فيها جوانب من الرحمة، وقد وردت فيها نصوص عدة يعتقد فيها الأحبار قدسية خاصة مثل (التوبة والأعمال الصالحة كالترس عند الجزاء)[7]، (كل من اتسم بهذه الأمور الثلاثة فإنه من تلاميذ أبينا إبراهيم الكرم والحلم والتواضع)[8].

1. غلاب، محمد، **الأخلاق النظرية**، المطبعة المصرية الأهلية الحديثة، القاهرة، 1933، ص 28.
2. زكار، سهيل، **المحذوف من التوراة كاملا**، دار قتيبة، لبنان، 2006م، ص 412.
3. السابق، ص 413.
4. فيرم، غيزا، **النصوص الكاملة لمخطوطات البحر الميت**، (ترجمة: سهيل زكار)، دار قتيبة، لبنان، 2006، ص 402.
5. السابق، ص 411.
6. فيرم، **النصوص الكاملة لمخطوطات البحر الميت**، ص 414، 419، 423.
7. المشنا، **القسم الرابع**، ص316.
8. السابق، ص 323

ونرى ثلة من المفاهيم الدالة على الرحمة قد امتازت بها الديانة المسيحية، مثل فضيلة الوداعة إذ يقول المسيح (تعلموا مني أني وديع ومتواضع القلب) والوداعة لا توجد إلا في الرحماء ممن ملك ناصية أمور نفسه، وكان محبًا كريمًا، متسامحًا. لأن مبدأ المسيحية يتجلى في البشاشة في معاملة الناس، والوداعة التي جاءت في إنجيل متى (طوبى للودعاء فإنهم يرثون الأرض)[1].

وفي كنزا ربا جملة من النصوص الدالة على شأن الرحمة لدى المندائيين الصابئة، فمثلًا: (وجهت وجهها شطر الباب العظيم باب الرحمة والإيمان) (هلم يا صاحب الرحمة والشفقة)، (ربنا إنا نسبحك ملء حنايانا، فاغفر لنا ذنوبنا وخطايانا إنك أنت الناصر الغفور)[2]، (إذا أصبحت ناصورائيًا فكل فضيلة من فضائلك سلاح يعين باهري الصدق، إنك تعينهم بالإيمان، والاستقامة، والمعرفة، والحكمة، والتعليم، والرجاء والصلاة، والتسبيح، والصدقة والطيبة، والتواضع، والإتقان، والنقاء، والرأفة، والحنان والتبصر، ومحبة الخلق)، (الرأفة ريح طيبة تهب على جميع الأبواب)[3].

ونجد في الإنجيل مثلًا (ولك يا رب الرحمة لأنك أنت تجازي الإنسان كعمله) (لأنك أنت يارب صالح وغفور وكثير الرحمة لكل الداعين إليك) (الرب حنان ورحيم طويل الروح وكثير الرحمة)[4].

وكانت عقيدة الخطيئة الأولى في اللاهوت المسيحي هي التي مثلت بها

---

1. عساف، المطران ميخائيل، **الأخلاق المسيحية**، المطبعة المخلصية، 1948، ص ، 230، 234.
2. **كنزا ربا** ، (اليسار) ص106، 110، 122.
3. **كنزا ربا** ، (اليمين) ص171، 174.
4. **مزمار**، 5-86، 8-103، 12-62.

النظرية القائلة إن الغرائز البدائية تجعل الإنسان غير صالح للحضارة وكانت هذه النظرية، كما كانت فكرة«كارما» في الديانة الهندية محاولة قصد بها ما يحل بالناس من آلام هم في الظاهر غير خليقين بها، وهذا التفسير هو أن الصالحين يقاسون الآلام في هذه الحياة لأن أسلافهم ارتكبوا الإثم، وتقول النظرية المسيحية إن الجنس البشري على بكرة أبيه قد لوثته خطيئة آدم وحواء، ويقول جراتيان (Gratiun) في كتابهDecrtum (القرار) (حوالي عام 1150) الذي اتخذته الكنيسة بصفة غير رسمية جزءًا من تعاليمها: كل آدمي ولد نتيجة لاتصال الرجل بالمرأة يولد ملوثاً بالخطيئة الأولى؛ معرضًا للعقوق والموت، ولهذا فهو طفل مغضوب عليه لا ينجيه من الخبث واللعنة إلا رحمة الله وموت المسيح الذي كفر عن آثامه (ولا ينقذ الإنسان من العنف، والشهوة، والشره، وينجيه هو والمجتمع الذي يعيش فيه من الهلاك إلا المثل الذي ضربه المسيح الشهيد في الوداعة ودماثة الخلق)[1].

واقتنع أغسطس في آخر الأمر بأن إصلاح الأخلاق لا بد أن ينتظر نهضة دينية. ذلك أن جيل المتشككين أمثال لكريشيوس وكانلس وقيصر كان قد مضى وانقضى، وأدرك أبناء هذا الجيل أن خشية الآلهة هي شباب الحكمة، بل إن أوفد الساخر نفسهُ أخذ يكتب بعد قليل من ذلك الوقت على طريقة فولتير (Voltaire): ويقول ديورانت في قصة الحضارة:

أن أسباب الرحمة للإنسان أن تكون هنالك آلهة، وأن نعتقد بوجودها. وكانت عقول المتحفظين تعزو أسباب الحرب الأهلية وما جرته على الدولة

1. ديورانت، **قصة الحضارة**، 175/16.

من كوارث إلى إهمال الدين، وما استتبع هذا الإهمال من غضب آلهة السماء. وأصبح الناس الذين حل بهم عقاب الآلهة في كل مكان من إيطاليا على استعداد لأن يعودوا إلى مذابح البلاد القديمة، وأن يسبحوا بحمد الآلهة الذين أبقوا عليهم ليستمتعوا بعودة الدين إلى سالف عهدهِ السعيد. ولما خلف أغسطس لبدسLepidusالفاتر الإيمان-بعد أن ظل صابرًا زمنًا طويلًا يترقب موته-لما خلفه من منصب الكاهن الأكبر «احتشد الناس من كافة أنحاء إيطاليا لينتخبوني لهذا المنصب حتى بلغ عددهم حدًا لم يبلغ مثله في روما من قبل». وتزعم هو حركة إحياء الدين وسار على نهجها، وكان يرجو أن يكون الناس أكثر قبولًا لإصلاحاتهِ السياسية والأخلاقية إذا ما ربطها رباطًا وثيقًا بالآلهة الرومانية. ومن أجل هذا رفع مقام الجماعات الأربع الكهنوتية، وزاد ثروتها إلى حد لم يكن له مثيل في الأيام السالفة، واختار نفسه عضوًا في كل منها، واضطلع بواجب اختيار أعضائها الجدد، وكان يحرص كل الحرص على حضور اجتماعاتها ويشترك في مواكبها الفخمة الرهيبة[1].

ونجد في الزبور لداود عليه السلام مزامير كثيرة؛ كلها تنضح بالرحمة والدعوة إليها، بل في المزمور الأول دعوة لأن يكون المرء نافعًا لغيره، (طوبى للرجل الذي لم يسلك في مشورة الأشرار، ولم يقف في طريق الخاطئين، ولم يجلس في مجلس المستهترين، بل في ناموس الرب هواه، وبشريعته يلهج نهارًا وليلًا، ويكون كالعود المغروس على مجاري المياه الذي يعطي ثمره في حينه، وورقه لا ينتثر، بل كل ما يصنع ينجح) وفي المزمور الخامس: (أما أنا فبكثرة رحمتك أدخل إلى بيتك)، وفي المزمور السادس: (خلصني من أجل رحمتك)، وفي

1. ديورانت، **قصة الحضارة**، 37/10.

المزمور الثاني عشر (أما أنا فعلى رحمتك توكلت. قلبي يبتهج بخلاصك. فأرتل للرب المحسن إلي، وأسبح لاسم الرب المتعالي)، وفي المزمور الثاني والثلاثين: (لأن كلمة الرب مستقيمة. وكل أعماله أمينة. وهو يحب الرحمة والعدالة. من رحمة الرب امتلأت الأرض). وفي المزمور الخامس والثلاثين: (يارب رحمتك واسعة كالسماء وأمانتك رحبة كالغمام. عدالتك كالجبال الشاهقة. وأحكامك كالغور العميق. يارب أنت تصون الإنسان والحيوان. اللهم ما أغزر رحمتك!)[1].

أضف إلى هذا ما في كتاب دانيال طائفة من الدلالات الرحمانية مثل: (ميل يا إلهي سمعك... نحن طارحين تضرعاتنا قدامك بل على رحماتك الكثيرون) (للرب إلهنا الرحمات والصفحات)[2].

ومن روافد الرحمة في نصوص الديانات قبل الإسلام ما نجده مبثوثًا في أخباربني إسرائيل، لاسيما ما يتعلق بالوقائع الدالة على التراحم بين الخلق، مثل ما روى مسلم في صحيحه عن عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«بَيْنَمَا كَلْبٌ يُطِيفُ بِرَكِيَّةٍ قَدْ كَادَ يَقْتُلُهُ الْعَطَشُ، إِذْ رَأَتْه بَغِيٌّ مِنْ بَغَايَا بَنِي إِسْرَائِيلَ فَنَزَعَتْ مُوقَهَا، فَاسْتَقَتْ لَهُ بِهِ، فَسَقَتْهُ إِيَّاهُ، فَغُفِرَلَهَا بِهِ»**[3].

1. مجهول، **كتاب المزامير الشريف لداود النبي والملك**،(ترجمة: رزق الله فتح الله عرمان)، مطابع فلفاط، بيروت، 1954، ص.ص1 - 79.
2. Ha-Levi, Japheth ben Ali, A Commentary on The Book of Daniel, ed. and tr. by D.S. Margoliouth Margoliouth, Oxford, 1899, p.93, 97.
3. مسلم بن حجاج القشيري، **صحيح مسلم**، تحقيق محمد ذهني أفندي، دار الطباعة العامرة تركيا،1334هـ، كتاب السلام، حديث رقم 2245، 1761/4.

الفصل الثاني

نظرية الرحمة في القرآن الكريم

المبحث الأول

استقراء ألفاظ الرحمة في القرآن الكريم وتحليلها

المبحث الثاني

تأصيل نظرية الرحمة في علم الأسماء والصفات لله تعالى

المبحث الثالث

علاقة الرحمة ببعث الرسل ومنهجهم في ممارستها

الفصل الثاني

نظرية الرحمة في القرآن الكريم

غير خاف أن الدراسات في هذا الموضوع متكاثرة ومتشعبة، إلا أن الغالب عليها يتمحور حول تكرار وجود معاني الرحمة والإحسان، وما يندرج ضمن ذلك من ألفاظ محاسن الإسلام، لذا تجب الإشارة إلى أن هذا الفصل يمتاز بالتحليل المعمق الآخذ في ضروب من الفنون المبثوثة في التراث الإسلامي، ولعل باب الفتح الرباني على الباحثين ما يزال مشرعًا، إذ الشأن كما قال أبو العباس المبرد «وليس لقدم العهد يفضل القائل، ولا لحدثان عهد يهتضم المصيب، ولكن يعطى كل ما يستحق»[1]، وفي ذات السياق يقول ابن مالك: «وإذا كانت العلوم، منحًا إلهية، ومواهب اختصاصية فغير مستبعدٍ أن يدخر لبعض المتأخرين ما عسر على كثير من المتقدمين. أعاذنا الله من حسدٍ يسد باب الإنصاف، ويصد عن جميل الأوصاف»[2].

واعتبار القرآن منبعًا للمثل العليا والأخلاق السامية حقيقة يشهد بها أهل المشارق والمغارب، بل يقول لوبون في كتابه حضارة العرب:

إن أصول الأخلاق في القرآن عالية علو ما جاء في كتب الديانات الأخرى

1. المبرد، أبو العباس محمد بن يزيد، (ت 285هـ)، **الكامل في اللغة والأدب**، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، القاهرة، ط 3، 1997، 28/1.
2. ابن مالك، جمال الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله الطائي الجياني، (ت 672هـ)، **تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد**، تحقيق محمد كامل بركات، بيروت، 1967، ص 2.

جميعًا. والإسلام من أكثر الديانات ملاءمة لاكتشافات العلم، ومن أعظمها تهذيبًا للنفوس وحملًا على العدل والإحسان والتسامح، والبديهية، وإن فاقت جميع الأديان الساميَّة فلسفةً، تراها مضطرة أن تتحول تحولًا تامًّا لتستمرئها الجموع، وهي لا شك دون الإسلام في شكلها المعدَّل هذا.[1]

ومع هذا السؤدد في مصادر الأخلاق الذي حظي به المسلمون إلا أنه يجب أن يحاط بسياج من المسؤولية، إذ هو فضل له جناحان: الأول الشرف والثاني المسؤولية ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾[الزخرف: 44]، حيث لم يعرف العرب في قبل الإسلام نعمة العلم، ولا شعروا يومًا بمغبّة الأمية والجهل، إلا بعد أن جاء الإسلام، فأخرجهم من ظلمات الجهل والوثنية والحمية والتعصب والفواحش، إلى نور العلم والتوحيد والعدل والمساواة وأرفع المعايش. لكن ثمة مزالق وثغرات تنتظر العرب، ليمحّصوا وينقوا، وليعلَموا الخبيث من الطيب. وسر ذلك أنهم هم الذين نشروا الدين بأخلاقهم، فإن لم يستمسكوا بأصول قوتهم وحضارتهم فسيعودون إلى ما كانوا عليه قبل الإسلام أو أشد. لذلك كان لزامًا على هذه العرب أن يجعلوا أركان عزتهم صوبَها، لتحوطها بالعناية، وتكافح وتنافح عنها ضد أهل الغواية، أو من يريد لها الهاوية، اقتداء بأجدادهم الذين أناروا بالعلم ظلام أوروبا والعالم أجمع، حتى «اعترف الجميع للعرب بفضلهم في إيصال أعمال الفلاسفة والعلماء القدماء وآثارهم للعالم الحديث»[2]. ومنذ عرف المسلمون

---

1. لوبون، **حضارة العرب**، ص 137.
2. هونكه، زيغريد، **شمس العرب تسطع على الغرب: أثر الحضارة العربية في أوروبة**، (ترجمة: فاروق بيضون وكمال دسوقي)، دار العالم العربي، بيروت، ط 8، 1413، ص 399.

العلمَ أبدعوا وبرعوا في فنونه، بل كانوا قادة في جميع مجالاته، من طب، وفلك، وهندسة، وفلسفة...وهم الذين يعود إليهم الفضل - بعد الله - في إثراء العالم بالمعرفة، ونشره في البلدان التي أثرت عليها الحروب الهمجية، مثل أوروبا، وأفريقيا. وتلك حقيقة يقربها المسلمون والغربيون على حد سواء، ولا تخفى على أحد إلا على معاند جهول جحود. وهكذا تزعم المسلمون العربُ أبوابًا جمة في ميدان العلم، طيلة قرون، إلى أن بدأت بعض الأدواء تتسرب إليهم، فأخذوا يتراجعون القهقرى، وقد استحوذ إبليس على جمهرة منهم فقاموا يدسون سموم الهزيمة، والفتك بمبادئ المسلم.

المبحث الأول: استقراء ألفاظ الرحمة في القرآن الكريم وتحليلها

معلوم أن القرآن الكريم قد كُتب في اللوح المحفوظ قبل إنزاله ليكون الرسالة الخاتمة من رب العالمين للناس أجمعين، ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٣ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَـٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ﴾ [الزخرف: 3، 4]، ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ۝٢١ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ۝٢٢﴾ [البروج: 21، 22]، وتتعلق هذه الكتابة بركن معقد جدًا من أركان الإيمان، وهو القدر؛ ذلك الموضوع الذي خاضت فيه كل الطوائف واستعصى على العقول أن تبلغ مناه. واستدعاء الاستقراء لفهم أي موضوع هو السبيل الأدق في انتقال النظريات إلى الحقائق الخالية من الشكوك، إذ «الاستقراء التام الحاصل من تتبُّع موارد الشريعة ومصادرها، فيحصل من ذلك المجموعِ القطعُ بذلك المدلول»[1]. «كما أن الاستقراء التام يفيد اليقين بهذه المسائل؛ فلا تناقض بين كونها قطعية ... بل إنما نضع ما نثبته على أصل الاستقراء، والمدارك على المطالب، وعلى الطالب تكميل الاستقراء المفيد للعلم»[2]. قال الزركشي:

وَهُوَ تَصَفُّحُ أُمُورٍ جُزْئِيَّةٍ لِيَحْكُمَ بِحُكْمِهَا عَلَى أَمْرٍ يَشْمَلُ تِلْكَ الْجُزْئِيَّاتِ. وَيَنْقَسِمُ إِلَى: تَامٍّ، وَنَاقِصٍ. فَالتَّامُّ: إِثْبَاتُ الْحُكْمِ فِي جُزْئِيٍّ لِثُبُوتِهِ فِي الْكُلِّيِّ عَلَى الِاسْتِغْرَاقِ. وَهَذَا هُوَ الْقِيَاسُ الْمَنْطِقِيُّ الْمُسْتَعْمَلُ فِي الْعَقْلِيَّاتِ. وَهُوَ حُجَّةٌ بِلَا

---

1. القرافي، أحمد بن إدريس، **شرح تنقيح الفصول**، تحقيق طه عبد الرؤوف سعد، شركة الطباعة الفنية المتحدة، 1973، ص 338.
2. ______، **نفائس الأصول في شرح المحصول**، دراسة وتحقيق، عادل أحمد عبد الموجود، علي محمد معوض، مكتبة نزار مصطفى الباز، مكة،1995، 4/1815.

خِلَافٍ. وَمِثَالُهُ: كُلُّ صَلَاةٍ فَإِمَّا أَنْ تَكُونَ مَفْرُوضَةً أَوْ نَافِلَةً، وَأَيُّهُمَا كَانَ فَلَا بُدَّ وَأَنْ تَكُونَ مَعَ الطَّهَارَةِ. فَكُلُّ صَلَاةٍ فَلَا بُدَّ وَأَنْ تَكُونَ مَعَ طَهَارَةٍ. وَهُوَ يُفِيدُ الْقَطْعَ[1].

إن الاستقراء في هذا المبحث مرتبط بمفهوم الرحمة في القرآن أكثر من ارتباطه بجذر اللفظة المكونة من الراء والحاء والميم، إذ قال الشاطبي:

جَمِيع سُوَرِهِ كَلَامٌ وَاحِدٌ بِحَسَبِ خِطَابِ الْعِبَادِ، لَا بِحَسَبِهِ فِي نَفْسِهِ فَإِنَّ كَلَامَ اللَّهِ فِي نَفْسِهِ كَلَامٌ وَاحِدٌ لَا تَعَدُّدَ فِيهِ بِوَجْهٍ وَلَا بِاعْتِبَارٍ، حَسْبَمَا تَبَيَّنَ فِي عِلْمِ الْكَلَامِ، وَإِنَّمَا مَوْرِدُ الْبَحْثِ هُنَا بِاعْتِبَارِ خِطَابِ الْعِبَادِ تَنَزُّلًا لِمَا هُوَ من معهودهم فيه، هذا محل احتمال وَتَفْصِيلٍ. فَيَصِحُّ فِي الِاعْتِبَارِ أَنْ يَكُونَ وَاحِدًا بِالْمَعْنَى الْمُتَقَدِّمِ، أَيْ: يَتَوَقَّفُ فَهْمُ بَعْضِهِ عَلَى بَعْضٍ بِوَجْهٍ مَا، وَذَلِكَ أَنَّهُ يُبَيِّنُ بَعْضُهُ بَعْضًا؛ حَتَّى إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُ لَا يُفْهَمُ مَعْنَاهُ حَقَّ الْفَهْمِ إِلَّا بِتَفْسِيرِ مَوْضِعٍ آخَرَ أَوْ سُورَةٍ أُخْرَى، وَلِأَنَّ كُلَّ مَنْصُوصٍ عَلَيْهِ فِيهِ مِنْ أَنْوَاعِ الضَّرُورِيَّاتِ مثلًا مُقَيَّدٌ بِالْحَاجِيَّاتِ، فَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ: فَبَعْضُهُ مُتَوَقِّفٌ عَلَى الْبَعْضِ فِي الْفَهْمِ: فَلَا مَحَالَةَ أَنَّ مَا هُوَ كَذَلِكَ فَكَلَامٌ وَاحِدٌ؛ فَالْقُرْآنُ كُلُّهُ كَلَامٌ وَاحِدٌ بِهَذَا الِاعْتِبَارِ[2].

ومع اعتبار هذا الاتجاه من التحليل مندرجًا تحت علم المناسبات حتى ذهب الزركشي إلى أن:

هَذَا النَّوْع يُهْمِلُهُ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ أَوْ كَثِيرٌ مِنْهُمْ وَفَوَائِدُهُ غَزِيرَةٌ قَالَ الْقَاضِي أَبُو بَكْرِ بْنُ الْعَرَبِيِّ فِي سِرَاجِ الْمُرِيدِينَ ارْتِبَاطُ آيِ الْقُرْآنِ بَعْضِهَا بِبَعْضٍ حَتَّى

1. الزركشي، محمد بن عبد الله، **البحر المحيط في أصول الفقه**، دار الكتبي، بيروت، 1994، ج6، 6/8.
2. الشاطبي، إبراهيم بن موسى، **الموافقات**، تحقيق أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، دار ابن عفان، 1997، 275/4.

تَكُونَ كَالْكَلِمَةِ الْوَاحِدَةِ مُتَّسِقَةَ الْمَعَانِي مُنْتَظِمَةَ الْمَبَانِي عِلْمٌ عَظِيمٌ لَمْ يَتَعَرَّضْ لَهُ إِلَّا عَالِمٌ وَاحِدٌ عَمِلَ فِيهِ سُورَةَ الْبَقَرَةِ ثُمَّ فَتَحَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ لَنَا فيه فلما لَمْ نَجِدْ لَهُ حَمَلَةً وَرَأَيْنَا الْخَلْقَ بِأَوْصَافِ الْبَطَلَةِ خَتَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ بَيْنَنَا وَبَيْنَ اللَّهِ ورددناه إليه[1]، لذا فإني سأحاول استكناه الرحمة من القرآن الكريم استصحابًا للقضية التي نبه إليها كوكبة من المفسرين القائلين: إن القرآن كله كالكلمة الواحدة؛ من أمثال ابن العربي والرازي والزركشي والبقاعي والسيوطي وغيرهم.

وأزعم أن ثمة جوانب في المناسبات لم تعط حقها من الدراسة بعدُ، ومن أدقها المناسبة بين المرسل والرسالة، حيث يُعتبر القرآن الكريم رسالة مشحونة بالمعاني، من رب لا مناص من القول بأن تلك المعاني لها ارتباط وثيق بصفاته، «وذكر بعض المحققين أنّ الرحمة من صفات الذات وهي إرادة إيصال الخير ودفع الشّر. فالباري سبحانه رحمن ورحيم لأنّ إرادته أزلية، ومعنى ذلك أنّه تعالى أراد في الأزل أن ينعم على عبيده المؤمنين فيما لا يزال»[2].

ومن المنظور المنطقي في منهجية السبر والتقسيم؛ يقتضي العقل طرح السؤال المباشر قبل الخوض في استقراء الرحمة في القرآن، وهو: هل القرآن كتاب رحمة أم كتاب نقمة وعذاب؟. الجواب أنه متى ما استصحب التالي مناسبة المرسل والرسالة فمن الضروري الاقتناع بأن المرسل وهو الإله

1. الزركشي، محمد بن عبد الله، **البرهان في علوم القرآن**، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركائه، بيروت، 1957، 36/1.
2. التهانوي، محمد بن علي، **كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم**، تحقيق علي دحروج، بيروت، مكتبة لبنان ناشرون، 1996، 847/1.

الخالق المتين الذي تقتضي صفاته أن تكون رسالته مرآة عما يتصف به من صفات الجلال والجمال والكمال؛ علاوة عما حواه من المنطوق المبين لأمر الرحمة، لاسيما وأن مجموعة من الآيات التي تخاطب الإنسانية جمعاء قد أعلن فيها بشكل صريح عن هذا الطرح المعقول واصفًا كتاب موسى فقال **تعالى:**﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [القصص: 43] ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ [الأحقاف: 12]،ووصف الإنجيل بذلك فقال: ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾ [الحديد: 27]. ووصف القرآن بقوله:﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: 57]، ﴿الٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ۝٣﴾[لقمان: 1 - 3]، ولذا يصح القول بأن رسالات الله كلها رحمانية لهذه المناسبة بين المرسل والرسالة من جهة، ولكون المرسل إليه مرتهنًا بالبيان من ربه الذي لا يريد له إلا الأصلح.

ومن خلال كتب الوجوه والنظائر نجد أن العلماء تطرقوا إلى معاني الرحمة في القرآن الكريم، فقد حصرها ابن الجوزي في ستة عشر وجهًا أوردها على وجه الإجمال:

أَحدهَا: الْجنَّة. وَمِنْه قَوْله تَعَالَى فِي الْبَقَرَة: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: 218]، وَفِي آل عمرَان: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: 107]، وَالثَّانِي: الْإِسْلَام. وَمِنْه قَوْله تَعَالَى فِي سُورَة الْبَقَرَة:

﴿وَٱللَّهُ يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ﴾، وَفِي هَل أَتَى: ﴿يُدۡخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ﴾. وَالثَّالِث: الْإِيمَان. وَمِنْه قَوْله تَعَالَى فِي هود: ﴿يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۗ﴾ [آل عمران: 74].

وَالرَّابِع: النُّبُوَّة. وَمِنْه قَوْله تَعَالَى فِي الزخرف: ﴿أَهُمۡ يَقۡسِمُونَ رَحۡمَتَ رَبِّكَۚ﴾.

وَالْخَامِس: الْقُرْآن، وَمِنْه قَوْله تَعَالَى فِي يُونُس: ﴿قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ﴾. وَالسَّادِس: الْمَطَر، وَمِنْه قَوْله تَعَالَى فِي الْأَعْرَاف: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦۖ﴾، وَفِي الرّوم: ﴿فَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحۡمَتِ ٱللَّهِ﴾.وَالسَّابِع: الرزق، وَمِنْه قَوْله تَعَالَى فِي بني إِسْرَائِيل: ﴿قُل لَّوۡ أَنتُمۡ تَمۡلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحۡمَةِ رَبِّيٓ﴾، وَفِي الْكَهْف: ﴿ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةٗ﴾. وَالثَّامِن: النِّعْمَة، وَمِنْه قَوْله تَعَالَى فِي سُورَة النِّسَاء: ﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ وَرَحۡمَتُهُۥ﴾ وَالتَّاسع : الْعَافِيَة، وَمِنْه قَوْله تَعَالَى فِي الزمر: ﴿أَوۡ أَرَادَنِي بِرَحۡمَةٍ هَلۡ هُنَّ مُمۡسِكَٰتُ رَحۡمَتِهِۦۚ﴾.والعاشر: النَّصْر، وَمِنْه قَوْله تَعَالَى فِي الْأَحْزَاب: ﴿إِنۡ أَرَادَ بِكُمۡ سُوٓءًا أَوۡ أَرَادَ بِكُمۡ رَحۡمَةٗ﴾. وَالْحَادِي عشر: الْمِنَّة، وَمِنْه قَوْله تَعَالَى فِي الْقَصَص: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذۡ نَادَيۡنَا وَلَٰكِن رَّحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَ﴾. وَالثَّانِي عشر: الرقة، وَمِنْه قَوْله تَعَالَى فِي الْحَدِيد: ﴿وَجَعَلۡنَا فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأۡفَةٗ وَرَحۡمَةٗۚ﴾. وَالثَّالِث عشر: الْمَغْفِرَة، وَمِنْه قَوْله تَعَالَى فِي الْأَنْعَام: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمۡ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَ﴾ . وَالرَّابِع عشر: السعَة، وَمِنْه قَوْله تَعَالَىفِي سُورَة الْبَقَرَة ﴿ذَٰلِكَ تَخۡفِيفٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَرَحۡمَةٞۗ﴾ . وَالْخَامِس عشر: الْمَوَدَّة، وَمِنْه قَوْله تَعَالَى فِي الْفَتْح: ﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ﴾. وَالسَّادِس عشر: الْعِصْمَة، وَمِنْه قَوْله تَعَالَى فِي يُوسُف: ﴿إِنَّ

ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ﴾.وقد ألحق بَعضهم وَجها سَابِع عشر فَقَالَ: الرَّحْمَة: الشَّمْس، وَمِنْه قَوْله تَعَالَى فِي سُورَة عسق: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ مِنۢ بَعۡدِ مَا قَنَطُواْ وَيَنشُرُ رَحۡمَتَهُۥۚ﴾[1].

وأما الفيروزآبادي فقد أوصلها إلى عشرين وجهًا:

الأَوّل: بمعنى منشور القرآن: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾. الثاني: بمعنى سيّد الرُسُل: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾. الثالث: بمعنى توفيق الطَّاعة والإحسان: ﴿فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ﴾. الرَّابع: بمعنى نبوّة المرسلين: ﴿أَهُمۡ يَقۡسِمُونَ رَحۡمَتَ رَبِّكَۚ﴾. الخامس: بمعنى الإسلام والإيمان: ﴿يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ﴾ . السّادس: بمعنى نعمة العِرفان: ﴿وَءَاتَىٰنِي رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِهِۦ﴾،أي معرفة. السّابع: بمعنى العصمة من العصيان: ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَۚ﴾. الثامن: بمعنى أرزاق الإنسان والحيوان: ﴿لَّوۡ أَنتُمۡ تَمۡلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحۡمَةِ رَبِّيٓ﴾. التاسع: بمعنى قَطَرَات ماءِ الغِيثان: ﴿وَيَنشُرُ رَحۡمَتَهُۥۚ﴾. العاشر: بمعنى العافية من الابتلاءِ والامتحان: ﴿أَوۡ أَرَادَنِي بِرَحۡمَةٍ﴾. الحادي عشر: بمعنى النجاة من عذاب النيران:

﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ﴾. الثاني عشر: بمعنى النُصْرَةِ على أهل العدوان: ﴿أَوۡ أَرَادَ بِكُمۡ رَحۡمَةٗۚ﴾. الثالث عشر: بمعنى الأُلْفة والموافقة بين أَهل الإِيمان: ﴿وَجَعَلۡنَا فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأۡفَةٗ وَرَحۡمَةٗۚ﴾. الرابع عشر: بمعنى الكتاب المنزل على موسى بن عمران: ﴿وَمِن قَبۡلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ

1. ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي، **نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر**، تحقيق محمد عبد الكريم كاظم الراضي، بيروت، 1984، ص 334.

إِمَامٗا وَرَحۡمَةًۚ﴾. الخامس عشر: بمعنى الثناء على إبراهيم والولدين: ﴿رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ﴾. السّادس عشر: بمعنى إجابة دعوة زكريا مبتهلًا إلى الله المنّان: ﴿ذِكۡرُ رَحۡمَتِ رَبِّكَ عَبۡدَهُۥ زَكَرِيَّآ﴾. السّابع عشر: بمعنى العفو عن ذوى العصيان: ﴿لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ﴾. الثامن عشر: بمعنى فتح أبواب الرَّوْحِ والرَّيْحان: ﴿مَّا يَفۡتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحۡمَةٖ فَلَا مُمۡسِكَ لَهَاۖ﴾. التاسع عشر: بمعنى الجنَّةِ دار السّلام والأَمان: ﴿إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾. العشرون: بمعنى صفة الرّحيم الرحمن: ﴿إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ﴾[1].

إنه من مهمات التباحث العلمي في قضية استقراء ألفاظ الرحمة في القرآن أن ننظر إلى ظواهر تتعلق بالموضوع:

- الظاهرة الأولى: التكرار اللفظي لمادة الرحمة.
- الظاهرة الثانية: التكرار المعنوي لمقتضيات الرحمة.
- الظاهرة الثالثة: الاستهلال بالبسملة وفيوضها الرحمانية.
- الظاهرة الرابعة: معالم الدعاء لدى الملائكة والنبيين.
- الظاهرة الخامسة: غايات القرآن المذيلة بالآي.
- الظاهرة السادسة: منازل الرحمة من خلال معاني الرحمانية القرآنية.
- الظاهرة السابعة: ظاهرة التفسير الموضوعي للسورة الواحدة باعتبارها فردًا من أفراد رسالة الله الفياضة بالرحمة؟

---

1. الفيروزآبادي، محمد بن يعقوب، **بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز**، تحقيق محمد علي النجار، القاهرة، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، 1416 هـ - 1996 م، 58/3.

فأما الظاهرة الأولى فقد أوشك تكرار مادة (ر، ح، م) أن تبلغ عدد أيام السنة، إذ حسب إحصائي لألفاظ القرآن من جهة مادة (رحم) وما اشتق منها بلغت 339 موضعًا، سواء الأسماء والمصادر والأفعال مثل (الرحمة، رحم، رحمًا، ترحمنا، ترحمون، رحماء، أرحامكم، المرحمة...)، وأما الظاهرة الثانية فمتعلقة بالكلمات العديدة الدالة على معاني الرحمة نحو (الرأفة) و(الحنان)، فقد ذكر الخطابي أن الرَّؤُوْف: هُوَ الرحِيْمُ العَاطِفُ بِرَأفَتِهِ عَلَى عِبَاده، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: الرأفَةُ أبلَغُ الرَّحْمَةِ وَأرَقُّهَا. وَيُقَالُ: إن الرأفَةَ أخَصُّ، وَالرَّحْمَةَ أعَمُّ، وَقَدْ تَكُونُ الرحْمَةُ فِي الكَرَاهَةِ لِلْمَصْلَحَةِ، وَلَا تَكادُ الرَّأفَةُ تَكُونُ فِي الكَرَاهَةِ؛ فَهَذَا مَوْضِعُ الفَرْقِ بَيْنَهُما[1].كما ذكر الراغب الأصفهاني أنه لمّا كان الحنين متضمّنًا للإشفاق، والإشفاق لا ينفكّ من الرّحمة عبّر عن الرّحمة به في نحو قوله تعالى: ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا﴾ [مريم :13]، ومنه قيل: الحَنَّان المنّان[2].

وأما الظاهرة الثالثة فالأصل في الاستفتاح أن يكون متضمنًا لبراعة الاستهلال الكاشفة عن خبايا الخطاب، حتى إن بلقيس وصفت الخطاب المبعوث إليها بالكريم حينما استفتح بالبسملة ﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُاْ إِنِّيٓ أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ۝٢٩ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣٠ أَلَّا تَعْلُواْ عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾[النمل: 29 - 31]، بل علل سفيان بن عيينة خلو سورة التوبة منها بما ذكره ابن الجوزي قائلًا: «وسئل سفيان بن عيينة عن هذا،

1. الخطابي، بو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم، **شأن الدعاء**، دار الثقافة العربية، ط 3، 1412 هـ - 1992م، ص 91.
2. الراغب الأصفهاني، حسين بن محمد، **المفردات في غريب القرآن**، الدار الشامية، ، بيروت، 1412هـ، ص 259.

فقال: لأن التسمية رحمة، والرحمة أمان، وهذه السورة نزلت في المنافقين»[1].

كما أنه لا بد من التنصيص على أن البسملة تتنوع أسرارها حسب السورة مع بقاء انطوائها على الرحمات، وبحسب اطلاعي فإن القشيري في تفسيره لطائف الإشارات هو الحائز على القدح المعلى لهذا الملحظ الدقيق، والمرتبط في الأصل بتنوع دلالات أسماء الله الحسنى حسب مقامها وتراكيبها وازدواجها، مع إضافة أنه يقول أبو العباس البسيلي:

قيل: كلُّ العلوم في الكتب الأربعة: التوراة والإنجيل والزبور والفرقان، والجميع في الفرقان، وذلك كله في سورة الفاتحة منه، وعلومها كلها في البسملة، وجميع ذلك كله في حرف الباء من (بسم اللّه). وبيان ذلك: أن المقصود من جميع العلوم، إنما هو الوصول إلى اللّه تعالى، وهذا هو معنى الباء؛ لدلالتها على الإلصاق، فتضمحل عندها جميع العبارات، وتتلاشى بحقيقتها جميع الإشارات[2].

وأما الظاهرة الرابعة فإن من دعاء الملائكة المقربين ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْۖ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا﴾[غافر: 7] وقال آدم وحواء ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: 23] ودعاء نوح ﴿وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾

---

1. ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي، **زاد المسير في علم التفسير**، تحقيق عبد الرزاق المهدي، 1422، 231/2.
2. البسيلي، أبو العباس، **نكت وتنبيهات في تفسير القرآن المجيد**، تحقيق محمد الطبراني، مطبعة النجاح، المملكة المغربية، الدار البيضاء، 2008، 45/2.

[هـود: 47] ومن دعاء موسى ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٨٥ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [يونس: 85، 86] ودعاء أيوب ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ۝٨٣ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ﴾ [الأنبياء: 83، 84] بل كان من جملة دعاء عباد الله الصالحين ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [المؤمنون: 109].

وأما الظاهرة الخامسة فقد صرح القرآن بأن اتباعه يؤدي حتمًا إلى الرحمة ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأنعام: 155]، بل أكد أن مجرد استماعه رحمة ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: 204] ومن الجدير بالذكر أن مقصد الرحمة في القرآن تراه متعلقًا بالأحكام كلها ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [آل عمران: 132] حتى جعل القرآن مآل تحصيل التقوى هو الرحمة ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُواْ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: 63].

وأما الظاهرة السادسة: فإن منازل الرحمة تظهر من الفروق اللغوية بين الألفاظ والمعاني الدالة على الرقة والعطف والإحسان والمودة ونحو ذلك، كقول الزجاج: «وَذَلِكَ أَن الرأفة هِيَ الْمنزلَة الثَّانِيَة يُقَال فلَان رَحِيم فَإِذا

اشتدت رَحمته فَهُوَ رؤوف»[1]. وكقول الثعلبي: «بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رفيق رَحِيمٌ قيل: رَؤُوفٌ بالمطيعين رَحِيمٌ بالمذنبين رَؤُوفٌ بعباده رَحِيمٌ بأوليائه. رَؤُوفٌ بمن يراه رَحِيمٌ بمن لم يره»[2]. وفي قوله تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْمَرْحَمَةِ﴾ يقول ابن عاشور:

خَصَّ بِالذِّكْرِ مِنْ أَوْصَافِ الْمُؤْمِنِينَ تَوَاصِيَهُمْ بِالصَّبْرِ وَتَوَاصِيَهُمْ بِالْمَرْحَمَةِ لِأَنَّ ذَلِكَ أَشْرَفُ صِفَاتِهِمْ بَعْدَ الْإِيمَانِ، فَإِنَّ الصَّبْرَ مِلَاكُ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ كُلِّهَا لِأَنَّهَا لَا تَخْلُو مِنْ كَبْحِ الشَّهْوَةِ النَّفْسَانِيَّةِ وَذَلِكَ مِنَ الصَّبْرِ. وَالْمَرْحَمَةُ مِلَاكُ صَلَاحِ الْجَامِعَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ قَالَ تَعَالَى: رُحَماءُ بَيْنَهُمْ [الْفَتْح: 29] . وَالتَّوَاصِي بِالرَّحْمَةِ فَضِيلَةٌ عَظِيمَةٌ، وَهُوَ أَيْضًا كِنَايَةٌ عَنِ اتِّصَافِهِمْ بِالْمَرْحَمَةِ لِأَنَّ مَنْ يُوصِي بِالْمَرْحَمَةِ هُوَ الَّذِي عَرَفَ قَدْرَهَا وَفَضْلَهَا، فَهُوَ يَفْعَلُهَا قَبْلَ أَنْ يُوصِيَ بِهَا[3].

وأما الظاهرة السابعة فيلاحظ الوحدة الموضوعية للسورة الواحدة مع رجوع سائر الموضوعات الجزئية إلى أصلها من حيث اتحاد صدر السورة بخاتمتها وأطرافها. وهذا قد أشار إليه الشاطبي بقوله: «وَجَمِيعُ ذَلِكَ لَا بُدَّ فِيهِ مِنَ النَّظَرِ فِي أَوَّلِ الْكَلَامِ وَآخِرِهِ بِحَسَبِ تِلْكَ الِاعْتِبَارَاتِ؛ فَاعْتِبَارُ جِهَةِ النَّظْمِ مثلًا فِي السُّورَةِ لَا تتم بِهِ فَائِدَةٌ إِلَّا بَعْدَ اسْتِيفَاءِ جَمِيعِهَا بِالنَّظَرِ؛ فَالِاقْتِصَارُ عَلَى بَعْضِهَا فِيهِ غَيْرُ مُفِيدٍ غَايَةَ الْمَقْصُودِ، كَمَا أَنَّ الِاقْتِصَارَ عَلَى بَعْضِ الْآيَةِ فِي

1. الزجاج، أبو إسحاق إبراهيم بن محمد، **تفسير أسماء الله الحسنى**، تحقيق أحمد يوسف الدقاق، دار الثقافة العربية، 1974، ص 62.
2. الثعلبي، أبو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم، **الكشف والبيان عن تفسير القرآن**، تحقيق الإمام أبي محمد بن عاشور، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1422هـ 2002م، 114/5.
3. ابن عاشور، محمد ابن الطاهر، **التحرير والتنوير**، الدار التونسية للنشر، تونس، 1984، 361/30.

اسْتِفَادَةِ حُكْمٍ مَا؛ لَا يُفِيدُ إِلَّا بَعْدَ كَمَالِ النَّظَرِ فِي جَمِيعِهَا»[1]. كما نجد بعض المتأخرين قد خصص كتابه لبيان الوحدة الموضوعية مستنتجًا أن «السورة الواحدة وحدة كاملة لها هدف واحد قد يستتبع أغراضًا مختلفة غالبًا»[2].

ولعل ما ينفرد به هذا المبحث هو إقامة البرهان وتحليل وحدة السورة لكونها جزءاً من الكلي الأعظم للقرآن بالنظر إلى اعتباره كتابًا كريمًا مبعوثًا من رب رحيم ومنعوتًا بقوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: 89]، وأنه محصور بين إشارتين كلاهما تدعو إلى الوحدة الإنسانية في بوتقة العالمية، وذلك من خلال كون القرآن مبدوءًا بالحمد لله رب العالمين، ومختتمًا بـ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾، وما عدا ذلك فهو نظام داخلي يصلح الله به السرائر والظواهر.

ولبيان طائفة من أوجه الرحمة في القرآن فإنه يستحسن تتبع ذلك سورة سورة، ففي فاتحة الكتاب تظهر براهين الرحمة في معالم ربوبية الله للعالمين، ولا شك أن الربّ إنما يربي بالرحمة التي يكون بها الحياة، ثم تلي سورة البقرة شارحة للصراط المستقيم في أول أمر ظاهر في القرآن ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ﴾ [البقرة: 21] مع إيضاح الصراع الأولي الذي أحدثه إبليس وأتبعه الله برحمته على آدم ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: 37] ثم حذر من قسوة القلب لبعض ذريته ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ [البقرة: 74] داعيًا من خلال ذلك إلى الرقة والعطف، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ

1. الشاطبي، **الموافقات**، 267/4.
2. حجازي، محمد محمود، **الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم**، مطبعة المدني، القاهرة، 1970، ص 52.

بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: 143] وأن الأقدار مع الخضوع لله مآلها ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٌۖ﴾ [البقرة: 157] وأن الشرائع والمعاملات مبنية على الحب ﴿وَءَاتَى ٱلۡمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ [البقرة: 177] وابتغاء مرضات الله هو الغاية التي لا بد أن يسعى إليها العباد لما تستلزم من الرأفة ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾ [البقرة: 207] ثم ختمت السورة بالدعاء والرحمة ﴿وَٱعۡفُ عَنَّا وَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَآ﴾ [البقرة: 286].

وفي سورة آل عمران التي تتضمن الحوار تستهل بأن من صفات الراسخين عدم الاغترار، وأن القلوب قابلة للتقلب لولا رحمة الله، ولذلك يقولون: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً﴾ [آل عمران: 8] وأن طاعة الله ورسوله مستلزمة لنيل الحب والرحمة ﴿فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [آل عمران: 31] «وكَمَالُ الْكَمَالِ لِلَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فَكَانَ ذَلِكَ يَقْتَضِي كَوْنَهُ مَحْبُوبًا لِذَاتِهِ مِنْ ذَاتِهِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ عِنْدَهُ الَّذِينَ تَجَلَّى لَهُمْ أَثَرٌ مِنْ آثَارِ كَمَالِهِ وَجَلَالِهِ»[1]، وأن هذه الرحمة الإلهية يختص بها من يشاء ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ [آل عمران: 74] وبتلك المحبة الصادقة والانقياد للخير والدعوة إليه يجزى المرء بقوله ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [آل عمران: 107] وهي الجنة التي أعدت للموصوفين بصفات الرحمة ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ ينفقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [آل عمران: 133، 134]،

1. الرازي، **مفاتيح الغيب**، 197/8.

وأن الدفاع عن دينه موجب للرحمة ﴿وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [آل عمران: 157] بل رسول الله ﷺ إنما أفلح في دعوته حينما أفاض الله له من الرحمات ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: 159].

ولذلك قال القشيري :

جرّده عن أوصاف البشرية، وأفرده بما ألبسه من نعت الربوبية، وأخبر أن ما يلوح إليه فمن أنوار التولي، لا من آثار الوفاق والتبري، ولولا أنه استخلصه بما ألبسه وإلا متى كان بتلك الصفة؟! ويقال إن من خصائص رحمته- سبحانه- عليه أن قوّاه حتى صحبهم، وصبر على تبليغ الرسالة إليهم، وعلى ما كان يقاسيه من اختلافهم- مع سلطان ما كان مستغرقًا له ولجميع أوقاته من استيلاء الحق عليه، فلولا قوة إلهية استأثره الحق بها وإلا متى أطاق صحبتهم؟! ألا ترى إلى موسى عليه السّلام لما كان قريب العهد بسماع كلامه كيف لم يصبر على مخاطبة أخيه فأخذ برأس أخيه يجرّه إليه؟[1].

ثم ختمت آل عمران بالدعاء والأمر بالمصابرة والتقوى طمعًا في تحقيق الفلاح.

ثم تلى سورة النساء المستفتحة بالمشترك الإنساني في الخلقة مراعية

1. القشيري، عبد الكريم بن هوازن، **لطائف الإشارات**، تحقيق إبراهيم البسيوني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، (د.ت)، ط 3، 290/1.

لما يتعلق بها من الرحمِ المشتقة من الرحمة ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِى تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ﴾ [النساء: 1] إعلامًا أن هذه السورة ستتفرع منها شؤون حفظ النسل والرحم والحقوق ونشر أسباب التراحم، وما ذلك إلا لعلة أنه ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: 28] ولذلك حرم علينا الانتحار فقال ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ [النساء: 29]، وأنه مهما أذنب المرء أو ظلم ثم استغفر فإن ربه يرحمه ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: 64] ذلك أن وجود محمد ﷺ بنفسه أو بسنته هو في الحقيقة رحمة ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: 83]، وأن من سنته نشر السلام والسلم والتحاب بين الناس كلهم ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌۚ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: 94] ثم ختم السورة بأن الاعتصام به هو الصراط الذي ذكره الله تعالى في السورتين السابقتين ونتيجته الفوز بالرحمة ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُواْ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ١٧٥﴾ [النساء: 175].

وابتدأت سورة المائدة بقضية الوفاء بالعهود والتنصيص على الطيبات وهما السبيل إلى الرحمة ورفع الحرج ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة: 6] وأنه لا ينبغي ادعاء العصمة أو الاختصاص بالله دون سائر العالمين أو أن طائفة يحبها الله دون أخرى دون إقامة برهان، ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ

نَحۡنُ أَبۡنَـٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّـٰٓؤُهُۥۚ قُلۡ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُمۖ بَلۡ أَنتُم بَشَرٞ مِّمَّنۡ خَلَقَۚ يَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ ﴾ [المائدة: 18] ﴿فَمَن تَابَ مِنۢ بَعۡدِ ظُلۡمِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴾ [المائدة: 39] ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسۡتَغۡفِرُونَهُۥۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [المائدة: 74] ومع اختلاف الناس في دياناتهم فإنهم يتفاوتون في اللين والمودة والرحمة ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقۡرَبَهُم مَّوَدَّةٗ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنۡهُمۡ قِسِّيسِينَ وَرُهۡبَانٗا وَأَنَّهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ﴾ [المائدة: 82] ولابد للمؤمن من المزج بين الخوف والرجاء ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [المائدة: 98] ثم ختمت السورة بقصة مائدة الحواريين وبقول عيسى بن مريم ﴿إِن تُعَذِّبۡهُمۡ فَإِنَّهُمۡ عِبَادُكَۖ وَإِن تَغۡفِرۡ لَهُمۡ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [المائدة: 118]. «قَالَهُ عَلَى وَجْهِ الِاسْتِعْطَافِ لَهُمْ وَالرَّأْفَةِ بِهِمْ كَمَا يَسْتَعْطِفُ السَّيِّدُ لِعَبْدِهِ وَلِهَذَا لَمْ يَقُلْ: فَإِنَّهُمْ عَصَوْكَ»[1].

ثم جاءت سورة الأنعام المكية التي نزلت دفعة واحدة لتؤسس لجمهرة من قضايا الرحمة؛ مستفتحة بالحمد الذي له تعلق بالنعم المحصلة للرحمة، وأن الله أزلًا قد كتب على نفسه الرحمة. ﴿قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قُل لِّلَّهِۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَۚ﴾ [الأنعام: 12] وأن رفع بلاء الدنيا يكون بالتضرع إلى الله، ومتى رُفعت الرحمة حلت قسوة القلب ﴿فَلَوۡلَآ إِذۡ جَآءَهُم بَأۡسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [الأنعام: 43] ثم كرر التأكيد على قبول التوبة لكونه تعالى قد كتب

1. القرطبي، محمد بن أحمد، **الجامع لأحكام القرآن**، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط 2، 1964، 378/6.

على نفسه الرحمة ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۖ كَتَبَ رَبُّكُمۡ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَ أَنَّهُۥ مَنۡ عَمِلَ مِنكُمۡ سُوٓءَۢا بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [الأنعام: 54] «وَدَلَّ ذَلِكَ عَلَى نَفَاذِ قُدْرَتِهِ أَرْدَفَهُ بِذِكْرِ رَحْمَتِهِ وَإِحْسَانِهِ إِلَى الْخَلْقِ، وَظَاهِرُ (كَتَبَ) أَنَّهُ بِمَعْنَى سَطَّرَ وَخَطَّ، وَقَالَ بِهِ قوم هنا وله أُرِيدَ حَقِيقَةُ الْكَتْبِ وَالْمَعْنَى أَمَرَ بِالْكَتْبِ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ. وَقِيلَ: كَتَبَ هُنَا بِمَعْنَى وَعَدَ بِهَا فَضْلًا وَكَرَمًا»[1]. لأنه هو القائل: ﴿وَرَبُّكَ ٱلۡغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحۡمَةِۚ﴾ [الأنعام: 133] وهذه الرحمة واسعة ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمۡ ذُو رَحۡمَةٖ وَٰسِعَةٖ﴾ [الأنعام: 147] وكل حكم مما في كتابه إنما هو لصالح عباده ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٞ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾ [الأنعام: 155] ثم ختم السورة بقانون الاستخلاف والابتلاء مؤكدًا على المغفرة والرحمة ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمۡ خَلَٰٓئِفَ ٱلۡأَرۡضِ وَرَفَعَ بَعۡضَكُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ لِّيَبۡلُوَكُمۡ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلۡعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٞ رَّحِيمُۢ﴾ [الأنعام: 165].

وأما سورة الأعراف فاستهلت بقصة آدم وحواء القائلين ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: 23] ثم ذكر أصحاب الأعراف الذين نالتهم رحمة الله ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٗا يَعۡرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمۡ قَالُواْ مَآ أَغۡنَىٰ عَنكُمۡ جَمۡعُكُمۡ وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ ٤٨ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمۡتُمۡ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحۡمَةٍۚ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ ٤٩﴾ [الأعراف: 48، 49] ووصف لازم التفصيل للكتاب

1. الأندلسي، ابو حيان محمد بن يوسف، **البحر المحيط**، دار الكتب العلمية، بيروت، 1413 هـ - 1993 م 446/4.

بالرحمة ﴿وَلَقَدۡ جِئۡنَٰهُم بِكِتَٰبٖ فَصَّلۡنَٰهُ عَلَىٰ عِلۡمٍ هُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ [الأعراف: 52] والإيمان مدخل لمرتبة الإحسان إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ [الأعراف: 56]«فوجد الخبروهو قريب عن لفظ الرحمة وهى مؤنثة [إيذانًا] بقربه تعالى من المحسنين، فكأنه قال: إن الله برحمته قريب من المحسنين»[1]. وأتبعه بعد ذلك وصف المطربالرحمة وَهُوَ ٱلَّذِي يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦۖ﴾ [الأعراف: 57] وانتشار الغيث بعد القنوط كقبول التوبة بعد العصيان وَلَمَّا سُقِطَ فِيٓ أَيۡدِيهِمۡ وَرَأَوۡاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ ضَلُّواْ قَالُواْ لَئِن لَّمۡ يَرۡحَمۡنَا رَبُّنَا وَيَغۡفِرۡ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: 149] ﴿قَالَ رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِأَخِي وَأَدۡخِلۡنَا فِي رَحۡمَتِكَۖ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [الأعراف: 151] وَٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِهَا وَءَامَنُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ [الأعراف: 153] كما وصف الله ألواح موسى بالرحمة ﴿وَفِي نُسۡخَتِهَا هُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلَّذِينَ هُمۡ لِرَبِّهِمۡ يَرۡهَبُونَ﴾ [الأعراف: 154] واستغاث موسى بقوله: ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَاۖ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡغَٰفِرِينَ﴾ [الأعراف: 155] وبين الله له أن رحمته واسعة: ﴿وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: 156] ثم ختم السورة بمقصد الرحمة ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلۡقُرۡءَانُ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾ [الأعراف: 204].

وفي سورة الأنفال ذكر استحقاق المؤمنين المغفرة، وهي من أفراد الرحمة، ﴿ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَمَغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ﴾ [الأنفال: 4] ونص على أن من موانع إحلال العذاب وجود النبي ﷺ واللهج بالاستغفار

1. ابن القيم الجوزية، محمد بن أبي بكر، **طريق الهجرتين وباب السعادتين**، دار ابن القيم، الدمام، ط 2، 1994، ص 22.

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمۡ وَأَنتَ فِيهِمۡۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمۡ وَهُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ﴾ [الأنفال: 33] وتأويل ذلك: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ بِمَكَّةَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمۡ وَأَنتَ فِيهِمۡۚ﴾ [الأنفال: 33] قَالَ: فَخَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى الْمَدِينَةِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمۡ وَهُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ﴾ [الأنفال: 33] قَالَ: فَكَانَ أُولَئِكَ الْبَقِيَّةُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ بَقُوا فِيهَا يَسْتَغْفِرُونَ، يَعْنِي بِمَكَّةَ؛ فَلَمَّا خَرَجُوا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْهِ: ﴿وَمَا لَهُمۡ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمۡ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ وَمَا كَانُوٓاْ أَوۡلِيَآءَهُۥٓۚ﴾ [الأنفال: 34] قَالَ: فَأَذِنَ اللَّهُ لَهُ فِي فَتْحِ مَكَّةَ، فَهُوَ الْعَذَابُ الَّذِي وَعَدَهُمْ»[1]، وأباح لنبيه الغنائم رحمة بنا ﴿فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمۡتُمۡ حَلَٰلٗا طَيِّبٗاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [الأنفال: 69] وختم السورة بمثل مطلعها ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ﴾ [الأنفال: 74].

وأما سورة التوبة فلها سياق نقض العهود الذي لا يستفتح بالبسملة، بل بما يفيد أن لله العزة ولرسوله وللمؤمنين، ومع ذلك فباب التوبة غير موصد ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [التوبة: 5]. وللمؤمنين المهاجرين ﴿يُبَشِّرُهُمۡ رَبُّهُم بِرَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَرِضۡوَٰنٖ وَجَنَّٰتٖ لَّهُمۡ فِيهَا نَعِيمٞ مُّقِيمٌ﴾ [التوبة: 21]، وأن رسوله عليه الصلاة السلام ﴿قُلۡ أُذُنُ خَيۡرٖ لَّكُمۡ يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤۡمِنُ لِلۡمُؤۡمِنِينَ وَرَحۡمَةٞ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡۚ﴾ [التوبة: 61]، وأتباعه المؤمنون بعضهم أولياء بعض ﴿أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرۡحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ﴾ [التوبة: 71]. وأن ثمة طائفة من الأعراب ﴿مَن يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ

1. الطبري، محمد بن جرير، **جامع البيان**،2000، 11/148.

وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرۡبَةٞ لَّهُمۡۚ سَيُدۡخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِي رَحۡمَتِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [التوبة: 99]، وأن صلاة النبي على الناس رحمة وسكن ﴿وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٞ لَّهُمۡ﴾ [التوبة: 103]، والله ﴿يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ وَيَأۡخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [التوبة: 104]، وقد يتأخر قبول التوبة لعلة تحصيل منفعة أعظم مثلما وقع للثلاثة ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [التوبة: 118]، ثم ختم السورة بأوصاف رسول الرحمة فقال: ﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ [التوبة: 128].

وأما سورة يونس فبدأت بتبشير المؤمنين ﴿أَنَّ لَهُمۡ قَدَمَ صِدۡقٍ﴾ [يونس: 2] ومعناه أن «لَهُمْ سَابِقُ صِدْقٍ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ مِنَ السَّعَادَةِ»[1]، وأخبر الله أن بعض الناس يمكرون ﴿وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةٗ مِّنۢ بَعۡدِ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُمۡ إِذَا لَهُم مَّكۡرٞ فِيٓ ءَايَاتِنَا﴾ [يونس: 21] مع أن المنزّل رحمة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [يونس: 57]، وأن القرآن به يفرح لكونه رحمة ﴿قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ﴾ [يونس: 58].ففي تفسير التيمي، يحيى بن سلام «فَضْلُ اللَّهِ الإِسْلامُ، وَرَحْمَتُهُ الْقُرْآنُ»[2]، ودعا موسى عليه السلام أن ينجيه الله من فرعون فقال: ﴿وَنَجِّنَا بِرَحۡمَتِكَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [يونس: 86]،

1. الطبري، **جامع البيان**، 109/12.
2. التيمي، التيمي، يحيى بن سلام، **تفسير التيمي**، **يحيى بن سلام**، تحقيق هند شلبي، دار الكتب العلمية، بيروت، 2004، 431/1.

وختمت السورة ﴿وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [يونس: 107].

وفي مستهل سورة هود الاستفتاح بالنذارة والبشارة مع إتباع ذلك بالأمر بالاستغفار لتحصيل المتاع والفضل، وهما من الرحمة التي ذكرها الله بعد ذلك فقال: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ﴾ [هود: 9]، وكما أن رسالة القرآن رحمة، فرسالات الله السابقة كذلك ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةًۚ﴾ [هود: 17]؛ لأن الرسالة تتضمن النبوة التي وصفها الله بالرحمة أيضًا منذ نوح ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ﴾ [هود: 28] . والابتلاء ماض وهو سنة كونية، إذ ﴿لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَۚ﴾ [هود: 43]، وقد ينسى المرء سنة الابتلاء فيستجير بالله قائلا ﴿أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [هود: 47]، وسنته تقتضي إنجاء الصالحين بالرحمة ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ [هود: 58]، وجادل صالح قومه بدلالات النبوة والرحمة ﴿أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥۖ﴾ [هود: 63] ثم عصوه ونجي بتلك الرحمة ﴿نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ [هود: 66] وحينما بشرت الملائكة زوجة إبراهيم عليه السلام قالوا ﴿رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾ [هود: 73] وهذه الرحمة واقعة فيه وفي أهل بيته لا محالة إذ هو الأواه، ومعنى الأواه الرحيم،

كما ذكر العزفي تفسيره ﴿أَوَّٰهٌ﴾ دعَّاء، أورحيم»[1]. ومع كثرة جدال مدين نبيهم قال لهم﴿وَٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٞ وَدُودٞ﴾ [هود: 90] ومضت سنة الله فيهم﴿نَجَّيْنَا شُعَيْبٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٖ مِّنَّا﴾ [هود: 94] وختم الله السورة بقوله: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ١١٨ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْۗ﴾ [هود: 118، 119]. روى عبد الرزاق في تفسيره عَنْ مَعْمَرٍ، عَنْ قَتَادَةَ، فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْۗ﴾ [هود: 119]، «لِلرَّحْمَةِ خَلَقَهُمْ»[2].

وابتسرت سورة يوسف الحديث عن إتمام النعمة على يوسف ومآل ذلك الرحمة أوكما يقول القرطبي «بِإِنْجَائِكَ مِنْ كُلِّ مَكْرُوهٍ»[3]، لاسيما من كيد الناس بسبب أن ﴿ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [يوسف: 53]، والذين نالتهم الرحمة هم الذين يمكنون في الأرض ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: 56]، ﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظٗاۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يوسف: 64]، ونهى الله من القنوط من رحمة الله فقال ﴿وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِۖ﴾ [يوسف: 87]. ففي تفسير ابن أبي حاتم عن «قَتَادَةَ: وَلَا

---

1. العزبن عبد السلام، عزالدين عبد العزيز، **تفسير العزبن عبد السلام**، بيروت، 1996، 55/2.
2. الصنعاني، عبد الرزاق بن همام، **تفسير عبد الرزاق**، تحقيق محمود محمد عبده، دار الكتب العلمية، بيروت، 1419هـ، 203/2.
3. القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، 129/9.

تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ أَيْ: مِنْ رَحْمَةِ اللَّهُ»[1] لأن باب التوبة مفتوح ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يوسف: 92]، ثم ختمت السورة بالرحمة المطلقة التي تلتقط معانيها من قصص الأنبياء ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: 111].

وفي سورة الرعد بدأت بمنن الله وتسخيره أفانين مما خلق ناهيًا أن يستعجل المرء بالسنة قبل الحسنة ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ﴾ [الرعد: 6] وقد فسر مجاهد الحسنة بالرحمة.[2] ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الرعد: 6] وختمت بالتفويض إلى الله والثناء الضمني على علماء الكتاب وهو القرآن الذي استهلت به سورة إبراهيم ﴿لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ [إبراهيم: 1]، وهو عمل الأنبياء كلهم واصفًا أبانا إبراهيم القائل ﴿فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [إبراهيم: 36]، ثم تأتي سورة الحجر لمزيد من إقامة الحجج البالغة مذكرًا بالصراع بين إبليس وذريته منبها على قضية الخوف والرجاء معًا فقال: نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾ [الحجر: 49، 50]، وأنه لا يجوز القنوط من الرحمة ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾ [الحجر: 56]وأمر بالرحمة فقال: ﴿فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ﴾ [الحجر: 85] قال الرازي: «وَاحْتَمِلْ

---

1. ابن أبي حاتم، عبد الرحمن بن محمد، **تفسير القرآن العظيم**، تحقيق أسعد محمد الطيب، مكتبة نزار مصطفى الباز، مكة، ط 3، 1419هـ، 2190/7.
2. أبو الحجاج، مجاهد بن جبر، تفسير مجاهد، **دار الفكر الإسلامي الحديثة**، مصر، 1989، ص 520.

مَا تَلْقَى مِنْهُمْ إِعْرَاضًا جَمِيلًا بِحِلْمٍ وَإِغْضَاءٍ»[1]. لاسيما في حق المؤمنين ﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الحجر: 88]، وختمت السورة بالعبادة وعدم الاستعجال الذي استفتحت به سورة النحل.

تلك السورة التي جالت بنا في أنواع من إنعام الله لنا تسخيرًا ورحمةً ﴿إِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ [النحل: 7] ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [النحل: 18] فالشاكرون قال فيهم: ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٞۚ﴾ [النحل: 30] يقول مكي في تفسيره: «للذين أطاعوا الله في الدنيا، حسنة في الدنيا وهي العافية والصحة»[2]. وعند حصول الاختلاف فكتاب الله هو الملجأ نحو الرحمة ﴿وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ [النحل: 64]، ﴿وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ﴾ [النحل: 89] ثم بين واقع ثلة من الناس الواقعين في السوء بسبب الجهل ﴿إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: 119] ثم ختم السورة بالأمر بالحكمة والصبر والإحسان.

وأما سورة الإسراء فاستفتحت بالحدث العظيم الذي قصد الله به ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنۡ ءَايَٰتِنَآۚ﴾ [الإسراء: 1]، ثم ذكر ببلاء بني إسرائيل، ثم مزج بين الرحمة والوعيد فقال: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يَرۡحَمَكُمۡۚ وَإِنۡ عُدتُّمۡ عُدۡنَاۚ﴾ [الإسراء:

1. الرازي، **مفاتيح الغيب**، 158/19.
2. القيسي، مكي بن محمد، **الهداية إلى بلوغ النهاية في علم معاني القرآن وتفسيره، وأحكامه، وجمل من فنون علومه**، جامعة الشارقة، الإمارات العربية المتحدة، 2008، 6310/10.

8]، وكذا ﴿رَّبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِكُمۡۖ إِن يَشَأۡ يَرۡحَمۡكُمۡ أَوۡ إِن يَشَأۡ يُعَذِّبۡكُمۡۚ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ وَكِيلٗا﴾ [الإسراء: 54]، وأمر بالإحسان والرحمة بالوالدين ﴿وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا﴾ [الإسراء: 24] وسمى الأرزاق المبذولة للناس رحمة فقال: ﴿وَإِمَّا تُعۡرِضَنَّ عَنۡهُمُ ٱبۡتِغَآءَ رَحۡمَةٖ مِّن رَّبِّكَ تَرۡجُوهَا فَقُل لَّهُمۡ قَوۡلٗا مَّيۡسُورٗا﴾ [الإسراء: 28]أي: إن أعرضتم بوجوهكم عن هؤلاء الذين أمرتم أن تعطوهم حقوقهم من أجل عدمكم، تبتغون انتظار رزق من عند الله فلا تؤيسوهم ولكن قولوا لهم قولاً ميسورًا»[1]، ثم وصف طائفة من الخلق الذين كانت قريش تستغيث بهم سواء كانوا ملائكة أو جنًّا أو بشرًا فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ﴾ [الإسراء: 57] وهذا المزج بين الوعد والوعيد استصحبه حتى في ثمرات القرآن فقال: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارٗا﴾ [الإسراء: 82]، ﴿وَلَئِن شِئۡنَا لَنَذۡهَبَنَّ بِٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيۡنَا وَكِيلًا ٨٦ إِلَّا رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ إِنَّ فَضۡلَهُۥ كَانَ عَلَيۡكَ كَبِيرٗا﴾ [الإسراء: 86 - 87]. كما ذكرت السورة بمشكلة التقتير الذي طبع عليه كثير من الناس حتى لو افترضنا امتلاكهم لتدبير خزائن رحمة الله ﴿قُل لَّوۡ أَنتُمۡ تَمۡلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحۡمَةِ رَبِّيٓ إِذٗا لَّأَمۡسَكۡتُمۡ خَشۡيَةَ ٱلۡإِنفَاقِۚ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ قَتُورٗا﴾ [الإسراء: 100]، ثم ختمت السورة بالرد على منكري كون الله رحمانًا ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَۖ أَيّٗا مَّا تَدۡعُواْ فَلَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ﴾ [الإسراء: 110].

---

1. القيسي، **الهداية إلى بلوغ النهاية**، 4184/6.

وختمت سورة الإسراء بالحمد، وبه سورة أصحاب الكهف الداعين بالرحمة ﴿إِذۡ أَوَى ٱلۡفِتۡيَةُ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ فَقَالُواْ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةٗ وَهَيِّئۡ لَنَا مِنۡ أَمۡرِنَا رَشَدٗا﴾ [الكهف: 10] فاستجاب الله لهم ﴿فَأۡوُۥٓاْ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ يَنشُرۡ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ وَيُهَيِّئۡ لَكُم مِّنۡ أَمۡرِكُم مِّرۡفَقٗا﴾ [الكهف: 16]، ونص على أن رحمة الله ذاتية ﴿وَرَبُّكَ ٱلۡغَفُورُ ذُو ٱلرَّحۡمَةِۖ﴾ [الكهف: 58]، ويهب رحمته وكرامته ونبوته لمن يشاء من عباده ﴿فَوَجَدَا عَبۡدٗا مِّنۡ عِبَادِنَآ ءَاتَيۡنَٰهُ رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا وَعَلَّمۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلۡمٗا﴾ [الكهف: 65]، وهو الخضر الموحى إليه والذي كانت أفعاله غاية في الحكمة والرحمة ﴿فَأَرَدۡنَآ أَن يُبۡدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيۡرٗا مِّنۡهُ زَكَوٰةٗ وَأَقۡرَبَ رُحۡمٗا﴾ [الكهف: 81]، ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبۡلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسۡتَخۡرِجَا كَنزَهُمَا رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ وَمَا فَعَلۡتُهُۥ عَنۡ أَمۡرِيۚ﴾ [الكهف: 82] ومثله عبد الله ذو القرنين القائل: ﴿وَأَمَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلۡحُسۡنَىٰۖ﴾ [الكهف: 88]. والحسنى من معاني الرحمة، ففي تفسير ابن أبي زمنين «فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى: يَعْنِي: الْعَفْوَ»[1]، وذو القرنين أيضًا نسب صنائعه وفضائله إلى رحمة الله ﴿قَالَ هَٰذَا رَحۡمَةٞ مِّن رَّبِّيۖ﴾ [الكهف: 98].

واستفتحت سورة مريم بالرحمة ﴿ذِكۡرُ رَحۡمَتِ رَبِّكَ عَبۡدَهُۥ زَكَرِيَّآ﴾ [مريم: 2] الذي وهب الله له يحيى رحمة وحنانًا ﴿وَحَنَانٗا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةٗۖ وَكَانَ تَقِيّٗا﴾ [مريم: 13] «قَالَ الْحَسَنُ وَقَتَادَةُ: أَيْ: رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا»[2]، وذكر قصة مريم وأن معجزتها رحمة ﴿وَلِنَجۡعَلَهُۥٓ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِ وَرَحۡمَةٗ مِّنَّاۚ﴾ [مريم: 21] وابنها عيسى عليه

---

1. ابن أبي زمنين، أبو عبد الله محمد بن عبد الله، **تفسير القرآن العزيز**، تحقيق أبو عبد الله حسين بن عكاشة - محمد بن مصطفى الكنز، الفاروق الحديثة - مصر/ القاهرة، 1423هـ - 2002م، 79/3.
2. التيمي، يحيى بن سلام، **تفسير التيمي، يحيى بن سلام**، 217/1.

السلام قد قال: ﴿وَبَرًّا بِوَٰلِدَتِي﴾ [مريم: 32] «يعني: جعلني رحيمًا بوالدتي»[1]، وبعد ذلك قصة إبراهيم وذريته ﴿وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا﴾ [مريم: 50]، ثم موسى ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ﴾ [مريم: 53]، ثم ختمت السورة بالمودة وهي من فروع الرحمة ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾ [مريم: 96]. ففي تفسير الماتريدي أن الود «هو المستوجب للمودة من الخلق»[2].

ولما ختمت سورة مريم بالتبشير بالقرآن استهلت سورة طه بأنه لا شقاء معه، ثم مضت السورة في قصة موسى الذي أفاض الله عليه بالرحمة والمحبة ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾ [طه: 39] أي «حببتك إلى عبادي، أو حسنًا وملاحة، أو رحمتي»[3]. وأمره الله أن يرفق في دعوته ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾ [طه: 44] أي «كلامًا باللين والشفقة والرفق، لأن الرؤساء بكلام اللين أقرب إلى الانقياد من الكلام العنيف»[4]، وكما استفتح بوصف القرآن بأنه لا شقاء معه اختتم بأنه رزق الله الباقي، «أخرج ابْن الْمُنْذر عَن سُفْيَان بن عُيَيْنَة قَالَ: من أعطي الْقُرْآن فَمد عَيْنَيْهِ إِلَى شَيْء مِنْهَا فقد صغر الْقُرْآن ألم تسمع قَوْله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي﴾ إِلَى قَوْله: ﴿وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾، قَالَ: يَعْنِي الْقُرْآن»[5].

ومناسبة ما بين طه والأنبياء هو ذلك الإيغال العجيب والرصف البديع

1. السمرقندي، أبي الليث نصر بن محمد، **بحر العلوم**، تحقيق محمد عوض، دار الكتب العلمية بيروت، 1993م، 323/2.
2. الماتريدي، أبو منصور، **تأويلات أهل السنة**، تحقيق مجدي باسلوم، دار الكتب العلمية، بيروت، 2005، 488/10.
3. العز، **تفسير العز بن عبد السلام**، 298/2.
4. السمرقندي، **بحر العلوم**، 400/2.
5. السيوطي، **الدر المنثور**، دار الفكر، بيروت، (د.ت)، 97/5.

بين التربص والاقتراب ﴿قُلۡ كُلّٞ مُّتَرَبِّصٞ فَتَرَبَّصُواْۖ﴾ «أي: منتظر دوائر الزمان، فتربصوا، أي: فترقبوا»[1]، ومن شأن المتربص الاقتراب فقال: ﴿ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ﴾، ثم تحدثت السورة عن أزمات الظلم البشري معلمة بأن المخرج هو الاستمساك بالأنبياء الذي أدخلهم الله في رحمته ﴿وَأَدۡخَلۡنَٰهُ فِي رَحۡمَتِنَآۖ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الأنبياء: 75]، ﴿وَأَدۡخَلۡنَٰهُمۡ فِي رَحۡمَتِنَآۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الأنبياء: 86] وما تلك الخصائص التي حظي بها أولئك الأخيار إلا لكثرة تضرعهم وإخباتهم واستغاثتهم برحمة الله، ﴿وَأَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ٨٣ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ فَكَشَفۡنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرّٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ أَهۡلَهُۥ وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا وَذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰبِدِينَ﴾ [الأنبياء: 83، 84]. وهم المعنيون بأهل الحسنى وهي الرحمة ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ﴾ [الأنبياء: 101].

«ومعنى قوله: ﴿سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ﴾ قال ابن عباس وعكرمة: يريد الرحمة»[2]، ثم اختتمت السورة بأن نبينا محمدًا ﷺ بعث رحمة للعالمين ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: 107].

ولما كان نبينا خاتمة الرسل وهو الرحمة المهداة ناسب ما بين الأنبياء والحج من الأمر بالتقوى المستلزمة للرحمة والنجاة من هول الساعة وأوصافها، إذ ليس بين موت محمد هول إلا قيام الساعة، ﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُخۡبِتِينَ﴾ [الحج 34]، وهم المتواضعون الرحماء، ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ

1. القيسي، **الهداية إلى بلوغ النهاية**، 4723/7.
2. الواحدي، أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد، **التفسير البسيط**، عمادة البحث العلمي - جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، 1430هـ، 214/15.

﴿لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ﴾ [الحج: 50] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ [الحج: 65]، ثم ختمت السورة برفع الحرج مفهمًا أن ديننا على الرحمة والسماحة ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ﴾ [الحج: 78]، وأمر بالصلاة والزكاة مناسبة لمستهل سورة المؤمنون الذين كان من دعائهم ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٞ مِّنۡ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ١٠٩ فَٱتَّخَذۡتُمُوهُمۡ سِخۡرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوۡكُمۡ ذِكۡرِي وَكُنتُم مِّنۡهُمۡ تَضۡحَكُونَ ١١٠ إِنِّي جَزَيۡتُهُمُ ٱلۡيَوۡمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ﴾ [المؤمنون: 109 - 111]، كما ختمت السورة كذلك بالدعاء بالرحمة ﴿وَقُل رَّبِّ ٱغۡفِرۡ وَٱرۡحَمۡ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [المؤمنون: 118].

وأما سورة النور فناسبت سورة المؤمنين أنهم يعلمون أن حدود الله رحمة في جوهرها رغم كون صورتها الظاهرة قسوة، ولذلك خاطبهم الله بقوله ﴿وَلَا تَأۡخُذۡكُم بِهِمَا رَأۡفَةٞ﴾ [النور: 2]، ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [النور: 5]، ووجود التوبة هو بفضل من الله ورحمة ﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾ [النور: 10]، ﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ لَمَسَّكُمۡ فِي مَآ أَفَضۡتُمۡ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: 14] ﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ [النور: 20] ﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ أَبَدٗا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُۗ﴾ [النور: 21] لأن التزكية في الامتثال بما أمر الله والانتهاء عما نهى ﴿قُل لِّلۡمُؤۡمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِمۡ وَيَحۡفَظُواْ فُرُوجَهُمۡۚ ذَٰلِكَ أَزۡكَىٰ لَهُمۡۚ﴾ [النور:

30] ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾ [النور: 56] ثم ختمت السورة بالاستغفار والرحمة ﴿فَإِذَا ٱسۡتَـٔۡذَنُوكَ لِبَعۡضِ شَأۡنِهِمۡ فَأۡذَن لِّمَن شِئۡتَ مِنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمُ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [النور: 62].

وناسب ما بين النبأ في خاتمة النور والنذارة في مطلع الفرقان المنزل من ﴿ٱلَّذِي يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ [الفرقان: 6] وهو حياة القلوب كما أن الماء حياة الأرض الموات ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦۚ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ طَهُورٗا ﴿٤٨﴾ لِّنُحۡـِۧيَ بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗا وَنُسۡقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقۡنَآ أَنۡعَٰمٗا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرٗا ﴿٤٩﴾ وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَٰهُ بَيۡنَهُمۡ لِيَذَّكَّرُواْ فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورٗا﴾ [الفرقان: 48 - 50]، ثم ختم بصفات عباد الرحمن الرحماء ﴿ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا﴾ [الفرقان: 63].

وذكر عباد الرحمن في آخر سورة الفرقان ناسب الوصف لمحمد ﷺ أنه مشفق على قومه ألا يكونوا مؤمنين في مطلع سورة الشعراء ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾ [الشعراء: 3]، «يعني: مهلك نفسك. ويقال: قاتل نفسك بالحزن أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ يعني: إذا لم يصدقوا بالقرآن»[1]، ولهذا تكررت في السورة جملة تجمع بين جزاء المعرضين وثواب الرحمة للخاضعين وهي ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الشعراء: 67، 68]، وأمر الله نبيه عليه الصلاة والسلام

1. السمرقندي، **بحر العلوم**، 549/2.

بقوله:﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: 215] ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ [الشعراء: 217].

وناسب ما بين الشعراء والنمل من كون النبي ﷺ يتلقى القرآن من الروح الأمين، ثم ذكر قصة موسى وأنه قيل له ﴿لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ۝١٠ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النمل: 10، 11]، ثم سليمان الذي بعث كتابه إلى ملكة سبأ وضمنه ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣٠ أَلَّا تَعْلُواْ عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ [النمل: 30، 31]، ثم صالح إذ يقول: ﴿لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِۖ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [النمل: 46]. ومضت السورة في بيان آلاء الله مقررة بها براهين الوحدانية لله تعالى ﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِۦٓۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ [النمل: 63]، ثم عاد على وصف منزلة القرآن الذي استهل به فقال: ﴿وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النمل: 77]. وأكد ذلك في خاتمة السورة ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝٩١ وَأَنْ أَتْلُوَاْ ٱلْقُرْءَانَۖ﴾ [النمل: 91، 92].

وبدأت سورة القصص بقصة موسى وكان مما فيها ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَٱغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [القصص: 16]، ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [القصص: 43]، ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [القصص: 46]، ثم نص على جملة من

أصول الجدل في الديانات وبين أن ﴿وَمِن رَّحۡمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ [القصص: 73]. وختم بالرحمة القرآنية ﴿وَمَا كُنتَ تَرۡجُوٓاْ أَن يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبُ إِلَّا رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَ﴾ [القصص: 86]، ولما كان القضاء والقدر والحكم لله وحده في آخر آية من سورة القصص ناسب في مستفتح العنكبوت ذكر الفتنة التي هي من لوازم الابتلاء في دار الفناء وهي لا ريب من القدر والقضاء، لأن الله ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرۡحَمُ مَن يَشَآءُۖ وَإِلَيۡهِ تُقۡلَبُونَ﴾ [العنكبوت: 21] ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحۡمَتِي﴾ [العنكبوت: 23] وعظم شأن القرآن بأنه الكافي في إقامة الحجج والدين، ﴿أَوَلَمۡ يَكۡفِهِمۡ أَنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحۡمَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ [العنكبوت: 51]، ثم ختم السورة بذكر نعمة الأمن ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا جَعَلۡنَا حَرَمًا ءَامِنٗا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنۡ حَوۡلِهِمۡۚ أَفَبِٱلۡبَٰطِلِ يُؤۡمِنُونَ وَبِنِعۡمَةِ ٱللَّهِ يَكۡفُرُونَ﴾ [العنكبوت: 67].

ولما كانت معية الله للمحسنين لانتصارهم لله في آخر سورة العنكبوت ناسب ذكر المؤمنين ﴿وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الروم: 4، 5]، وسردت السورة طائفة من نعم الله وآياته ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: 21]، وكشفت أن زمرة من الناس ﴿إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنۡهُ رَحۡمَةً إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ﴾ [الروم: 33]، ﴿وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةٗ فَرِحُواْ بِهَاۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ إِذَا هُمۡ يَقۡنَطُونَ﴾ [الروم: 36]،

﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرۡسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٖ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ وَلِتَجۡرِيَ ٱلۡفُلۡكُ بِأَمۡرِهِۦ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ [الروم: 46]، ودعا إلى الاعتبار في النتائج التي يحدثه الماء في الأرض ﴿فَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحۡمَتِ ٱللَّهِ كَيۡفَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآ﴾ [الروم: 50]، وناسب بين ختم السورة بأن لا يستخفنا الذين لا يوقنون بوصف المحسنين في سورة لقمان بأنهم يوقنون لعلمهم أن القرآن ﴿هُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّلۡمُحۡسِنِينَ ٣ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ﴾ [لقمان: 3، 4]. وجاءت لفظة (معروفًا) ﴿وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗاۖ﴾ [لقمان: 15] صفة لمصدر محذوف، مشتملًا على الرحمة والبر والإحسان. وناسب ختام السورة بمفاتيح الغيب أنها يجمعها النزول استهلال سورة السجدة بـ﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ لَا رَيۡبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [السجدة: 2]، ﴿ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [السجدة: 6]، ثم ختمت السورة بالإعراض والصفح، وجاءت سورة الأحزاب لتأكيد تلك الخاتمة بعدم طاعة الكافرين والمنافقين، وأن الخطأ معفو عنه ﴿وَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٞ فِيمَآ أَخۡطَأۡتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتۡ قُلُوبُكُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمًا﴾ [الأحزاب: 5]، ونبه الناس جميعًا ألا ملجأ لهم من سوء أو رحمة ﴿مَن ذَا ٱلَّذِي يَعۡصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنۡ أَرَادَ بِكُمۡ سُوٓءًا أَوۡ أَرَادَ بِكُمۡ رَحۡمَةٗۚ﴾ [الأحزاب: 17]، ولما كان ذكر الله أحد روافد الرحمة، وأن صلاة الله علينا هي مزيد من فيوض رحماته وبركته فقال ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُصَلِّي عَلَيۡكُمۡ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَكَانَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَحِيمٗا﴾ [الأحزاب: 43]، وختمت السورة بالتوبة على المؤمنين ورحمتهم ﴿وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمَۢا﴾ [الأحزاب: 73].

وناسب الغفور والرحيم في آخر الأحزاب الرحيم الغفور في فاتحة سبأ، وذكر مثل ما في سورة الأنبياء الغاية من بعث محمد ﷺ ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ: 28]، واستفتح سورة فاطر بالرحمة ﴿مَّا يَفۡتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحۡمَةٍ فَلَا مُمۡسِكَ لَهَا﴾ [فاطر: 2]، ثم أبان أنه بيده ملكوت كل شيء وفق ما يشاء من نظام وإتقان لحلمه ورحمته ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٍ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [فاطر: 41]، وختم بأنه سبحانه رحيم وأنه ﴿وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهۡرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ [فاطر: 45]. ثم ناسب ذلك في وصف القرآن بأنه ﴿تَنزِيلَ ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [يس: 5] في مطلع يس، وما ختمت به سورة فاطر هو عينه في ﴿وَإِن نَّشَأۡ نُغۡرِقۡهُمۡ فَلَا صَرِيخَ لَهُمۡ وَلَا هُمۡ يُنقَذُونَ ۝٤٣ إِلَّا رَحۡمَةٗ مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٖ ۝٤٤ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُواْ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيكُمۡ وَمَا خَلۡفَكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾ [يس: 43 - 45]، ثم وصف الجنة بأن ﴿لَهُمۡ فِيهَا فَٰكِهَةٞ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ۝٥٧ سَلَٰمٞ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ﴾ [يس: 57، 58]، وأتت سورة الصافات للميزبين صفات أصحاب الجنة وغيرهم مع اعتبار دخول الجنة إنما هو برحمة الله ليس بمجرد العمل ولذلك قال ﴿وَلَوۡلَا نِعۡمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ ٱلۡمُحۡضَرِينَ﴾ [الصافات: 57]. ومعنى النعمة هنا الرحمة كما قال الثعلبي «عصمته ورحمته»[1]. وورد في الحديث الصحيح واللفظ لأحمد في مسنده قول النبي ﷺ: (لَا يَدْخُلُ أَحَدٌ مِنْكُمُ الْجَنَّةَ بِعَمَلِهِ، قَالُوا: وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللهِ؟

1. الثعلبي، **الكشف والبيان عن تفسير القرآن**، 145/8.

قَالَ: وَلَا أَنَا، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللهُ مِنْهُ بِرَحْمَةٍ وَفَضْلٍ)[1]، ولما كان من خصائص الله أن الرحمة بيده وخزائننا عنده، ورد في مستفتح سورة ص ﴿أَمۡ عِندَهُمۡ خَزَآئِنُ رَحۡمَةِ رَبِّكَ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡوَهَّابِ﴾ [ص: 9] فيمن بها على خلقه ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ أَهۡلَهُۥ وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ رَحۡمَةٗ مِّنَّا﴾ [ص: 43]

وختمت سورة ص بقوله تعالى ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ٨٧ وَلَتَعۡلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعۡدَ حِينِۭ﴾ [ص: 87، 88].وأعظم نبأ ما جاء في فاتحة الزمر ﴿فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ٢ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُ﴾ [الزمر: 2، 3]؛ لكن بعض الناس ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ضُرّٞ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيۡهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعۡمَةٗ مِّنۡهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدۡعُوٓاْ إِلَيۡهِ مِن قَبۡلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادٗا﴾ [الزمر: 8]. وأما عباده المستحقون للرحمة في الدارين ﴿لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٞ﴾ [الزمر: 10] ذلك لعلمهم أن الله هو كاشف الضر ومريد الرحمة ﴿أَوۡ أَرَادَنِي بِرَحۡمَةٍ هَلۡ هُنَّ مُمۡسِكَٰتُ رَحۡمَتِهِۦۚ﴾ [الزمر: 38]، وقد احتوت سورة الزمر على أرجى آية في القرآن وهي ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ﴾ [الزمر: 53].

وسورة غافر مستهلة بـ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ﴾ [غافر: 3] ثم بدعاء الملائكة بالرحمة ﴿رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ﴾ [غافر: 7] ﴿وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥۚ﴾ [غافر: 9]، واستفتحت سورة فصلت بالرحمة ﴿تَنزِيلٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [فصلت: 2]، وفيها قول الملائكة لأصحاب الجنة ﴿أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ﴾ [فصلت: 30]، ﴿نُزُلٗا مِّنۡ غَفُورٖ رَّحِيمٖ﴾ [فصلت: 32].وقال ﴿وَلَا تَسۡتَوِي

---

1. ابن حنبل، أحمد، **مسند الإمام أحمد بن حنبل**، رقم الحديث 7478، 449/12.

ٱلۡحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُۚ ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ﴾ [فصلت: 34] أي: «ادفع بالخصلة التي هي أحسن السيئة يعنى بالعفوعن المكافأة، وبالتجاوز والصفح عن الزلة، وترك الانتصاف»[1]، وكان من خاتمة السورة أنه لا ينبغي نسيان الابتلاء بالرحمة والضر﴿لَّا يَسۡـَٔمُ ٱلۡإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلۡخَيۡرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٞ قَنُوطٞ ۝٤٩ وَلَئِنۡ أَذَقۡنَٰهُ رَحۡمَةٗ مِّنَّا مِنۢ بَعۡدِ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةٗ وَلَئِن رُّجِعۡتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلۡحُسۡنَىٰۚ﴾ [فصلت: 49، 50].

واستطردت بعدها سورة الشورى في إيراد دعاء الملائكة واستغفارهم لمن في الأرض ﴿وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الشورى: 5] لعلمهم أن الذين في الأرض مختلفون ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَلَٰكِن يُدۡخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ﴾ [الشورى: 8] وفي هذا السورة بين الرحمة والمودة التي تجب لآل النبي ﷺ ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ وَمَن يَقۡتَرِفۡ حَسَنَةٗ نَّزِدۡ لَهُۥ فِيهَا حُسۡنًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ شَكُورٌ﴾ [الشورى: 23]، ووصف الله الشمس في هذه السورة بالرحمة فقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ مِنۢ بَعۡدِ مَا قَنَطُواْ وَيَنشُرُ رَحۡمَتَهُۥۚ وَهُوَ ٱلۡوَلِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾[الشورى: 28]. ففي زاد المسير الرحمة هنا: «الشمس بعد المطر، حكاه أبو سليمان الدمشقي»[2]، وذكر بعدها الرحمة العامة ﴿وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِنَّا رَحۡمَةٗ فَرِحَ بِهَا﴾ [الشورى: 48]، ثم ختمت السورة بكون القرآن لوحًا من أمر الله، وبذلك استفتحت سورة الزخرف بأن المراد

1. القشيري، **لطائف الإشارات**، 331/3.
2. ابن الجوزي، **زاد المسير**، 66/4

من القرآن التعقل ﴿لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ [الزخرف: 3]، وحينما حسد بعض القرشيين محمدًا في علة اختصاصه بهذه الرحمة - أي القرآن - رد الله عليهم بقوله: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ ٣١ أَهُمۡ يَقۡسِمُونَ رَحۡمَتَ رَبِّكَ﴾ [الزخرف: 31، 32] ثم قال: ﴿وَرَحۡمَتُ رَبِّكَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ﴾ [الزخرف: 32]، وبعدها وصف بالشرف ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَۖ وَسَوۡفَ تُسۡـَٔلُونَ﴾ [الزخرف: 44]. قال سفيان: «نزل القرآن بمكارم الأخلاق، فهو شرف لمن اتبعه وآمن به»[1]. وختمت السورة بخصلة من معالم الرحمة فقال: ﴿فَٱصۡفَحۡ عَنۡهُمۡ وَقُلۡ سَلَٰمٞۚ﴾ [الزخرف: 89].

واستفتحت سورة الدخان بالرحمة ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ٣ فِيهَا يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ ٤ أَمۡرٗا مِّنۡ عِندِنَآۚ إِنَّا كُنَّا مُرۡسِلِينَ ٥ رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ﴾ [الدخان: 3 - 6]، وأن يوم القيامة ﴿لَا يُغۡنِي مَوۡلًى عَن مَّوۡلٗى شَيۡـٔٗا وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ٤١ إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الدخان: 41، 42]، واستفتحت سورة الجاثية بذكر آلاء الله وما سخر رحمة منه ومنة، ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مِّنۡهُۚ﴾ [الجاثية: 13] كما في قراءة ابن محيصن بتشديد النون وبعدها تاء تأنيث منونة منصوبة مصدر من يمن منة»[2]، وبعدها الأمر بالمغفرة والرحمة ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَغۡفِرُواْ لِلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾ [الجاثية: 14]، ثم شرح بصائر القرآن بالرحمة ﴿هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ﴾ [الجاثية:

1. القيسي، **الهداية إلى بلوغ النهاية**، 4733/7.
2. الدمياطي، أحمد بن محمد، **إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر**، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 3، 2006، ص 501.

20]. وبعد أن ذكر استنساخ الأعمال ألحق ذكر الجزاء ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِۦٓۚ﴾ [الجاثية: 30].

واستهلت سورة الأحقاف بتنزيل الكتاب الذي تتدعي قريش أنه مفترى ﴿قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔاۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِۚ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْۖ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الأحقاف: 8]، مستدلًا بأخبار السابقين وتنزلات الأسفار على الأنبياء، وتضمن ذلك بشائر الرحمة ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ [الأحقاف: 12]. وهي القرينة التي آمن بها الجن لما قالوا ﴿قَالُواْ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأحقاف: 30، 31]. وهذه المغفرة ذكرها الله في السورة اللاحقة في قوله ﴿كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ [محمد: 2]. ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ [محمد: 15]، وحذر من قطع الأرحام المشتق اسمها من الرحمة والرحمن ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرْحَامَكُمْ﴾ [محمد: 22].

وبالمغفرة وإتمام النعمة استهلت سورة الفتح، وأورد فيها لفظ السكينة الدال على الرحمة ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الفتح: 4] وأكدها في قوله: ﴿فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: 18] وختم السورة بذكر صفات الأصحاب الأخيار ﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْۖ﴾ [الفتح: 29]، وناسب ذلك الأمر بخفض الصوت في مطلع

سورة الحجرات، وحث على ذلك التراحم والتآخي المثمر الرحمة في قوله ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الحجرات: 10]، ونهى عن كل ما يزرع الضغينة كغيبة ونحوها ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات: 12]، ﴿وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتۡكُم مِّنۡ أَعۡمَٰلِكُمۡ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات: 14]، واعتبر الله القلب محلًا للإيمان الباطني ولذلك قال في سورة ق بعدها ﴿مَّنۡ خَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِ وَجَآءَ بِقَلۡبٍ مُّنِيبٍ ۝٣٣ ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٍۖ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡخُلُودِ ۝٣٤ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيۡنَا مَزِيدٌ﴾ [ق: 33 - 35]، من أجل هذه اللفتة ذكر القشيري «ليكون للعصاة في هذا أمل لأنهم- وإن قصّروا بنفوسهم وليس لهم صدق القدم- فلهم الأسف بقلوبهم وصدق النّدم»[1]، وقلوب المؤمنين الرحيمة هي التي جعلتهم يتصفون بما ذكر في الذاريات﴿ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَبۡلَ ذَٰلِكَ مُحۡسِنِينَ ۝١٦ كَانُواْ قَلِيلٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ ۝١٧ وَبِٱلۡأَسۡحَارِ هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ ۝١٨ وَفِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ﴾ [الذاريات: 16 - 19]، وفي الطور مدحهم بقولهم ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبۡلُ فِيٓ أَهۡلِنَا مُشۡفِقِينَ ۝٢٦ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ۝٢٧ إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلُ نَدۡعُوهُۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ۝٢٨﴾ [الطور: 26 - 28] «فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنا يعني: من علينا بالمغفرة والرحمة»[2].

وختمت سورة الطور بالنجوم وبالقسم بفرد من أفرادها استفتحت تاليتها التي ورد فيها الحسنى والمغفرة ﴿وَيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ بِٱلۡحُسۡنَى ۝٣١ ٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلۡمَغۡفِرَةِ﴾

1. القشيري، **لطائف الإشارات**، 455/3.
2. السمرقندي، **بحر العلوم**، 353/3.

[النجم: 31، 32] وواسع المغفرة هو واسع الرحمة سبحانه، وفي التي تليها ﴿نَّجَّيۡنَٰهُم بِسَحَرٖ ٣٤ نِّعۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَاۚ﴾ [القمر: 34، 35] «يعني: رحمة من عندنا على آل لوط»[1]، كما استفتحت سورة الرحمن بهذا الاسم الدال أنه سبحانه «رحم كَافَّة خلقه بِأَن خلقهمْ وأوسع عَلَيْهِم فِي رزقهم»[2]. وهو من لوازم ما ذكر الله في جزاء المقربين ﴿فَرَوۡحٞ وَرَيۡحَانٞ وَجَنَّتُ نَعِيمٖ﴾ [الواقعة: 89]، فعند الطبري ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ٨٨ فَرَوۡحٞ وَرَيۡحَانٞ﴾ قَالَ: «يَعْنِي بِالرَّيْحَانِ: الْمُسْتَرِيحَ مِنَ الدُّنْيَا» ﴿وَجَنَّتُ نَعِيمٖ﴾يَقُولُ: «مَغْفِرَةٌ وَرَحْمَةٌ»[3]، وجاءت بعدها سورة الحديد لمزيد من خصال المؤمنين ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦٓ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ لِّيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ [الحديد: 9]، ﴿وَكُلّٗا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ﴾ [الحديد: 10] ﴿بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحۡمَةُ﴾ [الحديد: 13]، وذكر المؤمنين من أهل الكتاب ﴿وَجَعَلۡنَا فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأۡفَةٗ وَرَحۡمَةٗ﴾ [الحديد: 27]، وفي خاتمتها ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٢٨ لِّئَلَّا يَعۡلَمَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ أَلَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلۡفَضۡلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ [الحديد: 28، 29].

وذيل مطلع سورة المجادلة بالرحمة ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٞ﴾ [المجادلة: 2]، كما ذيل حكم مناجاة الرسول بالرحمة ﴿فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾

1. السمرقندي، **بحر العلوم**، ص 374.
2. الزجاج، أبو إسحاق، **تفسير أسماء الله الحسنى**، ص 28.
3. الطبري، **جامع البيان**، 377/22.

[المجادلة: 12].وفصلت سورة الحشر في مكرمات المهاجرين والأنصار﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾ [الحشر: 8] ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾ [الحشر: 9]، وهم وغيرهم ممن يجيء بعدهم يدعون بالرحمة ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: 10]، وختمت السورة بأسماء الله، وكلها رحمة، وكلها حسنى.

وبموضوع المودة استفتحت سورة الممتحنة، التي كان مصيرها هو﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً ۚ وَٱللَّهُ قَدِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الممتحنة: 7]، ومما ختمت به السورة إيراد لفظ مبايعة النساء وذيلت بالرحمة ﴿فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الممتحنة: 12]. ومثل هذا الجزاء المجمل المذكور هنا بينه الله في الصف فقال ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الصف: 12، 13]. وهذه هي جزاء التجارة التي دلهم الله عليها في الصف، وختم بها سورة الجمعة ﴿قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِ ۚ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [الجمعة: 11]؛ ولذلك نهى في سورة المنافقون عن الإلهاء لأنه سبب للحرمان من الرحمة، وفي ذات السلسلة ختم هذا الشأن في سورة التغابن فقال: ﴿وَإِن تَعْفُوا۟ وَتَصْفَحُوا۟ وَتَغْفِرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [التغابن: 14، 15]، إذ المعتبر في الرزق ما ذكره بعدها في سورة الطلاق ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: 2، 3] ورزق الله الذي أحله لا يحق لأحد من الخلق أن

يحرمه ﴿لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ﴾ [التحريم: 1].

ثم بعدها سورة الملك المستفتحة كذلك بالمغفرة ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفُورُ﴾ [الملك: 2]، وأنه هو سبحانه الرحمن ﴿إِنۡ أَهۡلَكَنِيَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِيَ أَوۡ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلۡكَٰفِرِينَ مِنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ۝٢٨ قُلۡ هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيۡهِ تَوَكَّلۡنَاۖ﴾ [الملك: 28، 29]، وبالرحمة استفتحت سورة القلم﴿مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ﴾ [القلم: 2]، وهي مفسرة بالرحمة التي نالها يونس ﴿لَّوۡلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعۡمَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلۡعَرَآءِ﴾ نعمة من ربه، «أي رحمة - فرحمه»[1]، ووصف الجنة في سورة الحاقة ﴿فِي عِيشَةٖ رَّاضِيَةٖ ۝٢١ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٖ ۝٢٢ قُطُوفُهَا دَانِيَةٞ ۝٢٣ كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَآ أَسۡلَفۡتُمۡ فِي ٱلۡأَيَّامِ ٱلۡخَالِيَةِ﴾ [الحاقة: 21 - 24]، وهو الإكرام الوارد في المعارج ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي جَنَّٰتٖ مُّكۡرَمُونَ﴾ [المعارج: 35]، وفي نوح بدأ بالمغفرة وختم بها ﴿أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ۝٣ يَغۡفِرۡ لَكُم﴾ [نوح: 3، 4] ﴿فَقُلۡتُ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارٗا﴾ [نوح: 10] ﴿رَّبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيۡتِيَ مُؤۡمِنٗا وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾ [نوح: 28]. وفي مستهل سورة الجن إقرارهم بأن القرآن ﴿يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلرُّشۡدِ﴾ [الجن: 2]، وهو من معاني الرحمة خاصة لما اشتقوا منه نقيض الشر في قوله تعالى ﴿وَأَنَّا لَا نَدۡرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ أَرَادَ بِهِمۡ رَبُّهُمۡ رَشَدٗا﴾ [الجن: 10]، حيث يقول الزمخشري: «ولا يخلو من أن يكون شرًا أو رشدًا، أي: خيرًا، من عذاب أو رحمة»[2].

1. القيسي، **الهداية إلى بلوغ النهاية**، 7654/12؛ السمعاني، **تفسير السمعاني**، دار الوطن، الرياض، 1997، 31/6.
2. الزمخشري، محمود بن عمر بن أحمد، **الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل**، ط 2، 1407هـ، 627/4.

وأما المزمل في خاتمتها ﴿وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنۡ خَيۡرٖ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيۡرٗا وَأَعۡظَمَ أَجۡرٗاۚ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمُۢ﴾ [المزمل: 20]، وبها ختمت المدثر أيضًا ﴿وَمَا يَذۡكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ هُوَ أَهۡلُ ٱلتَّقۡوَىٰ وَأَهۡلُ ٱلۡمَغۡفِرَةِ﴾ [المدثر: 56]، وأهل المغفرة سبحانه هو من نضر وجوه أهل الجنة وزادهم من النعيم والرحمة بأن يروه ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاضِرَةٌ ٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٞ﴾ [القيامة: 22، 23]، وختمت سورة القيامة بالحديث عن أهل الإنسان الممزوج بين الذكر والأنثى وعبر ذلك في مطلع الإنسان بالأمشاج، ثم ختمت السورة بالرحمة ﴿يُدۡخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ﴾ [الإنسان: 31]، وتلك الأمشاج كذلك جاءت في تاليتها بلفظ ﴿أَلَمۡ نَخۡلُقكُّم مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ﴾ [المرسلات: 20] ثم ذكرت جزاء المتقين، ونحو ذلك في النبأ ﴿وَخَلَقۡنَٰكُمۡ أَزۡوَٰجٗا﴾ [النبأ: 8] مع ذكر جزاء المتقين، وذلك الجزاء يعتبر ﴿جَزَآءٗ مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابٗا ٣٦ رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا ٱلرَّحۡمَٰنِۖ لَا يَمۡلِكُونَ مِنۡهُ خِطَابٗا﴾ [النبأ: 36، 37]. والجزاء عينه مذكور في سورة النازعات ﴿فَإِنَّ ٱلۡجَنَّةَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ﴾ [النازعات: 41]، وفي عبس ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ مُّسۡفِرَةٞ ٣٨ ضَاحِكَةٞ مُّسۡتَبۡشِرَةٞ﴾ [عبس: 38، 39]، ثم في التكوير ﴿وَإِذَا ٱلۡجَنَّةُ أُزۡلِفَتۡ﴾ [التكوير: 13]، وفي الانفطار ﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٖ﴾ [الانفطار: 13]. وكرر ذلك في المطففين ﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ٢٢ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ٢٣ تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِهِمۡ نَضۡرَةَ ٱلنَّعِيمِ﴾ [المطففين: 22 - 24]، ثم قال في الانشقاق ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونِۭ﴾ [الانشقاق: 25].

ثم جاء اسم الودود في سورة البروج ﴿وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلۡوَدُودُ﴾ [البروج: 14] «وهُوَ الَّذِي يحب الْخَيْر لجَمِيع الْخلق فَيحسن إِلَيْهِم ويثني عَلَيْهِم وَهُوَ قريب من معنى الرَّحِيم لَكِن الرَّحْمَة إضَافَة إِلَى مَرْحُوم والمرحوم هُوَ الْمُحْتَاج والمضطر وأفعال الرَّحِيم تستدعي مرحومًا ضَعِيفًا وأفعال الْوَدُود لَا تستدعي ذَلِك بل الإنعام على سَبِيل الِابْتِدَاء من نتائج الود»[1]، ومقتضى رحمته بالخلق هو قوله تعالى في تاليتها ﴿إِن كُلُّ نَفۡسٍ لَّمَّا عَلَيۡهَا حَافِظٌ﴾ [الطارق: 4] ونحوه ﴿وَٱلَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ [الأعلى: 3] ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلۡيُسۡرَىٰ﴾ [الأعلى: 8] ولازم نفي السيطرة عن النبي ﷺ أن يكون رحيمًا ﴿لَّسۡتَ عَلَيۡهِم بِمُصَيۡطِرٍ﴾ [الغاشية: 22] لأن الرحمة هي التي تحدث الاطمئنان في النفس وجزاء ذلك قد ختمت به سورة الفجر ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ٢٧ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ ٢٨ فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي ٢٩ وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي﴾ [الفجر: 27 - 30].

وأما سورة البلد فانفردت بمفهوم المرحمة ﴿وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡمَرۡحَمَةِ﴾ [البلد: 17] «عَنْ عِكْرِمَةَ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، ﴿وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡمَرۡحَمَةِ﴾ [البلد: 17] قَالَ: مَرْحَمَةُ النَّاسِ»[2].

والتواصي بالمرحمة ضرب من ضروب تزكية النفس التي ذكرها الله بعد ذلك في قوله ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ [الشمس: 9]، وبتفصيل التزكية ختمت سورة الليل ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلۡأَتۡقَى ١٧ ٱلَّذِي يُؤۡتِي مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ١٨ وَمَا

1. الغزالي، **المقصد الأسنى في شرح معاني أسماء الله الحسنى**، الجفان والجابي، قبرص، 1987، ص 122.

2. الطبري، **جامع البيان**، أولئك.

﴿لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعۡمَةٖ تُجۡزَىٰٓ ١٩ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ٢٠ وَلَسَوۡفَ يَرۡضَىٰ ٢١﴾ [الليل: 17 - 21]، ثم أمر بالرحمة في الضحى ﴿فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ﴾ [الضحى: 9] والغفران في الشرح ﴿وَوَضَعۡنَا عَنكَ وِزۡرَكَ﴾ [الشرح: 2]، ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرًا﴾ [الشرح: 5]. ونبه على موضوع القيم الحسنى ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ﴾ [التين: 4]، وأعظم هذا القويم العلم المذكور في العلق ﴿ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ﴾ [العلق: 3].

ثم أشار بالضمير في ﴿أَنزَلۡنَٰهُ﴾ [القدر: 1] إلى سورة العلق قبلها لكونها نزلت في ليلة القدر وهي أول ما أنزل، مشيرا إلى تعلقها بالرحمة ونزول الملائكة ﴿تَنَزَّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذۡنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمۡرٖ ٤ سَلَٰمٌ﴾ [القدر: 4، 5]، ووصف بالخيرية عباده المؤمنين الصالحين ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ﴾ [البينة: 7]، وذكر مآلهم جزاء لأعمالهم، إذ ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: 7]. وهذا الخير جبل على حبه الإنسان ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلۡخَيۡرِ لَشَدِيدٌ﴾ [العاديات: 8] واسترسل الحديث عن الموازين أيضًا في القارعة ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ ٦ فَهُوَ فِي عِيشَةٖ رَّاضِيَةٖ ٧﴾ [القارعة: 6، 7]، ثم أخبر بأن الجميع مسؤول عن النعم ﴿ثُمَّ لَتُسۡـَٔلُنَّ يَوۡمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [التكاثر: 8]، وأنه لولا التواصي بالحق والصبر لحل الخسران ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾ [العصر: 3] وبقول الحق يجتنب المرء الهمز واللمز وبالصبر يجتنب البخل المذكور في الهمزة.

وتحكي لنا سورتا الفيل وقريش ما فحواه أن بيته الحرام بيت أمن وأنه حاميه من أي كيد رحمةً بالذين يعبدون ﴿فَلۡيَعۡبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلۡبَيۡتِ ٣ ٱلَّذِيٓ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٖ وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ﴾ [قريش: 3، 4]، ونهى عن منع الماعون عن الناس، باعتباره صنفًا من صنوف التحاب والتراحم بين الناس، ثم ذكر إكرامه بنهر الكوثر لنبيه عليه الصلاة والسلام الموصوف بالسماحة مع كل الناس حتى مع الكافرين، حيث شعاره هو ﴿لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: 6]، ولذلك أمره بالاستغفار إذ الفتح بيد الله وحده ﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾ [النصر: 3]، وأنه مهما فعل فلن يستطيع أن يهدي من أحب ولو كان عمه أبا لهب، فالله يفعل ما يشاء لكونه صمدًا لا يسأل عما يفعل، ﴿وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ﴾ [الإخلاص: 4]، ثم أمر نبيه بالاستعاذة من صفات تاركي الرحمة، فالساحر لا يرحم، والحسود مفتقد للرحمة، وكلاهما قد استرسلا مع الجن في تلبسهم بالوسواس ﴿ٱلَّذِي يُوَسۡوِسُ فِي صُدُورِ ٱلنَّاسِ ٥ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ٦﴾ [الناس: 5 - 6].

المبحث الثاني: تأصيل نظرية الرحمة في علم الأسماء والصفات لله تعالى

كلما تعمق الفكر قصد العثور على علل إيجاد المخلوقات؛ يزداد رقيًا واستشعارًا ليقينية رحمة الله التي تتناغم بها الموجودات في نظام كوني محكم لا يتيه في كينونة عظمة الملكوت، ذلك أن خالق الكون قد تجلت أسماؤه وصفاته من خلال إتقانه لما خلق، وبثه لفطرة الرحمة التي تتراحم بها مخلوقاته، بل في تقديره لحاجة الخلق إلى لغات تضمنت حقائق يتوصل بها إلى معرفة جملة من آثار رحمة الله في خلقه عبر مسميات وصفات له ولغيره مما خلق سبحانه.

والأصل أن الموجودات على اختلافها يرحم بعضهم بعضًا تخلقًا باسم الرحمن من أسمائه تعالى، وعلاقة الرحمن بالإنسان لا يمكن أن تنطبق عليها مقولة (الخارج) ولا مقولة (الداخل) ولا أي جهة أخرى، لأنها كما هو معروف مقولات مكانية، والإله منزه عن المكان، وإنما كل ما يمكن أن يقال بصددها هو أنها علاقة قرب لا يعرف كيفها تفصيلًا، وإن عرف إجمالًا أنها تستغرق الحقيقة الإنسانية، وجودًا وسلوكًا، ومتى استحضر المرء في نفسه علاقة الرحمن به علاقة قرب روحيّ ليس كمثله قرب، تقوى لديه الشعور بالمسؤولية حيال القرب الإلهي، فيتولى هذا الشعور تقوية إدراكه للقرابة الموجودة بينه وبين غيره من الناس، كما يتولى توسيع نطاق هذا الإدراك حتى يشمل قرابته للمخلوقات جميعًا، لذا فكل الأديان والأمم تأخذ بمبدأ (اسم الرحمن) حتى إن بعض اليهود لما أسلموا مثل عبد الله بن سلام استغربوا أن يسمعوا ذكره في القرآن، لأن المسلمين ينزلون مفهوم الرحمانية منزلة مفهوم

الألوهية، ويحرصون أكثر من غيرهم على أن تتفق أمم العالم على اعتبار هذين المفهومين مترادفين حتى تأخذ جميعها بما يترتب على هذا الترادف من مقتضيات التراحم في تعامل بعضها مع بعض [1].

إن العقل يحتم القطع بأن لكل موصوف اسمًا ووصفًا يدلان عليه، فالاسم ما يعرف به الشيء ويستدل عليه، والصفة ما دلت على معنى يضاف إلى الاسم للدلالة على حالة له، وإن للرب تبارك وتعالى أسماءً حسنى، وصفات عُلا، دالة عليه، باعثة على التشبث والشوق، ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَٰٓئِهِۦۚ سَيُجۡزَوۡنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [الأعراف: 180]، ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَۖ أَيّٗا مَّا تَدۡعُواْ فَلَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ﴾ [الإسراء: 110]، ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ [طه: 8]، ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡخَٰلِقُ ٱلۡبَارِئُ ٱلۡمُصَوِّرُۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [الحشر: 24]، وفي الصحيحان رسول الله ﷺ، قال: «إن لله تسعة وتسعين اسمًا مائة إلا واحدًا من أحصاها دخل الجنة» [2].

وأسماؤه كاملة منزهة عن النقصان، خيرة يستحيل فيها الشرور، كثيرة لا حصر لها، وقوله ﷺ في حديث السابق لا يفيد الحصر، ولا ينفي وجود أسماء غيرها، كما قال ابن القيم في بيان الحديث: «والمعنى له أسماء متعددة من شأنها أن من أحصاها دخل الجنة، وهذا لا ينفي أن يكون له أسماء غيرها، وهذا كما تقول: لفلان مئة مملوك قد أعدهم للجهاد فلا ينفي هذا أن يكون له

1. عبد الرحمن، طه، **روح الحداثة المدخل إلى تأسيس الحداثة الإسلامية**، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 2006، ص 244- 248.
2. البخاري، **صحيح البخاري**، كتاب التوحيد، باب مقلب القلوب وقول الله تعالى: ﴿ونقلب أفئدتهم وأبصارهم﴾، رقم الحديث 7387، 321/9.

مماليك سواهم معدين لغير الجهاد، وهذا لا خلاف بين العلماء فيه»[1].

وفي ذلك يقول البيهقي كذلك: «وليس في قول النبي ﷺ: «لله تسعة وتسعون اسمًا» نفي غيرها وإنما وقع التخصيص بذكرها لأنها أشهر الأسماء وأبينها معاني، وفيها ورد الخبر أن من أحصاها دخل الجنة، وفي رواية سفيان «من حفظها» وذلك يدل على أن المراد بقوله: «من أحصاها» من عدها، وقيل: معناه من أطاقها بحسن المراعاة لها، والمحافظة على حدودها في معاملة الرب بها، وقيل: معناه من عرفها وعقل معانيها، وآمن بها».[2] وثمة ملحظ دقيق في دلالة الأسماء كلها على الرحمة أنها تعلقت بدخول الجنة، والجنة رحمة الله، ولا يدخل إليها أحد إلا برحمة الله تعالى، وإذا سألت النفس عن سر الأسماء الدالة على القوة والعزة مثل الجبار والقهار، فالواجب فهم ذلك بأن الله لا يعزب عنه شيء في ملكوته وأنه محيط بكل شيء لا أنه يعذب خلقه أو أنه يتخذ ذلك لهوًا؛ تعالى الله عن ذلك وتقدس.

وهذا ما دلت عليه النصوص والآثار في غير موضع، بأن أسمائه جل وعلا غير محصورة ولا محدودة، فمنها ما سمى به نفسه جل جلاله فكان ظاهرًا على من شاء من خلقه، ومنها ما أنزله في كتابه فهو معلوم بين عباده، ومنها ما استأثر به في علم غيبه، فقد قال ﷺ: «ما أصاب أحدًا قط هم ولا حزن، فقال: اللهم إني عبدك، وابن عبدك، وابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماض في حكمك، عدل في قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك، أو علمته أحدًا من خلقك، أو أنزلته في كتابك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل

---

1. ابن قيم الجوزية، **فائدة جليلة في قواعد الأسماء الحسنى**، تحقيق عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر، غراس، الكويت، 2003، ص 40.
2. البيهقي، أبي بكر أحمد بن الحسين، **الأسماء والصفات**، تحقيق إخراج وتعليق عبد الله بن محمد الحاشدي، مكتبة السوادي، السعودية، 1993، 27/1.

القرآن ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاء حزني، وذهاب همي، إلا أذهب الله همه وحزنه، وأبدله مكانه فرجًا»[1].

وقد أشارت بعض كتب التعاريف والاصطلاحات إلى المراد من علم الأسماء والصفات أو شيء من أطراف تعريفه، فنجد في التعريفات على سبيل المثال كلام الجرجاني في مصطلح (الجبروت) إذ يقول: «الجبروت: عند أبي طالب المكي: عالم العظمة، يريد به عالم الأسماء والصفات الإلهية»[2].

كذلك يشير التهانوي إلى الأسماء والصفات عند حديثه عن معنى (الرحمة) قائلًا في كشاف اصطلاحات الفنون: «قال الصوفية: الرحمانية هي الظهور لحقيقة الأسماء والصفات»[3]، وفي موضع آخر في معرض تعريفه لـ(الذات) يقول: «واعلم أن ذات الله تعالى عبارة عن نفسه التي هو بها موجود لأنه قائم بنفسه، وهو الشيء الذي استحق الأسماء والصفات بهويته، فيتصور بكل صورة تقتضيها منه كل معنى فيه، أعني اتصف بكل صفة تطلبها كل نعت واستحق بوجوده كل اسم دل عل مفهوم يقتضيه الكمال.»[4]، كما نجد الكفوي يشير إلى معنى لعلم الأسماء والصفات في بيان معنى (الألوهية) إذ يقول: «وحاصل ما عليه المحققون هو أنه كان وصفًا لذات الحق بالألوهية الجامعة لجميع الأسماء الحسنى والصفات العلى والحيطة بجميع معاني اشتقاقاته العظمى»[5].

---

1. ابن حنبل، **مسند الإمام أحمد بن حنبل**، رقم الحديث، 4318، 341/7.
2. الجرجاني، علي بن محمد بن علي، **التعريفات**، تحقيق جماعة من العلماء، دار الكتب العلمية، بيروت، 1983، ص 73.
3. التهانوي، **كشاف العلوم**، 1996، 848/1.
4. السابق.
5. الكفوي، أيوب بن موسى، **الكليات: معجم في المصطلحات والفروق اللغوية**، تحقيق عدنان درويش ومحمد المصري، ط 2، 1998، ص 173.

وبالرغم من كثرة الكتب والمؤلفات التي عنيت بعلم الأسماء والصفات في التراث الإسلامي، فإني لم أجد -على حد اطلاعي- تعريفًا محددًا لهذا العلم، ومن خلال ما تقدم، تيسر لي أن أصيغ تعريفًا أراه مناسبًا يجمع بين جميع أطراف المعرَّف، ذلك أن مما اشتهر في علم المنطق أن يكون المعرِّف تعريفه جامعًا لمفردات المعرفّ، مانعًا من دخول غير المعرَّف إلى المعرَّف، فأقول في تعريف علم الأسماء والصفات بأنه (مجموعة من المعارف الغيبية المتعلقة بالذات الإلهية، من حيث إثبات وجوده، واستحقاقه لأوصاف الجبروت والرحمانية، ومعاني الربوبية القائمة بذاته سبحانه وتعالى). وإن كان هذا العلم لم يعرف فيما سبق بهذا الاسم، ولكن حصول الخلافات في أسماء الله تعالى إثباتًا وتأويلًا، وتحريفًا وتعطيلًا، منذ العهد القديم، جعلت من علم الأسماء والصفات علمًا منفردًا عن باقي الفنون، يلزم أن يصاغ بعبارة تحقق تحديد كليه. حيث لم يسلم هذا العلم من مشاكل الاختلاف في التراث الإسلامي، والتي كان لها تبعات كثيرة أضرت بالمجتمعات الإسلامية على مر التاريخ.

ولا يمكن قطعًا أن يكون الدين مفضيًا إلى أي شكل من أشكال الخلاف والتنافر، إذ أن مقاصده مدارها التيسير ورفع الحرج، ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج:78]، فهي «عدل كلها، ورحمة كلها، ومصالح كلها، وحكمة كلها»[1]. فالدين عينه لم يكن سببًا لاختلاف الأمة يومًا أو إلى تشتيتها، إذ يقول رب العزة تبارك وتعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾[البقرة:213]، وقال

1. ابن القيم الجوزية، **إعلام الموقعين عن رب العالمين**، تحقيق محمد عبد السلام إبراهيم، دار الكتب العلمية، بيروت، 1991، 11/3.

جل وعلا: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ﴾[الأنبياء:92]، فالدين عينه يدعو إلى وحدة الصف، واتحاد الأمة، لا إلى النزاع والاختلاف، إذ أن من مقاصد إرسال الرسل في الناس جمعهم على كلمة واحدة بعد إذ كانوا مختلفين، ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِۚ﴾ [البقرة:213]، ولم يكن الإيمان يومًا مخفيًا عن إدراك المكلف، أو أنه يستوجب استعصارًا للعقول والأفهام، «الإِيمانُ أنْ تُؤمن بِاللهِ ومَلائِكتِه، وكُتُبِهِ، ورُسُلِهِ، وتُؤمن بِالجنَّةِ والنّارِ، والمِيزانِ، وتُؤمن بِالبعثِ بعدَ الموتِ، وتُؤمن بِالقدَرِ خَيرِهِ وشَرِّهِ»[1]، فالإيمان إذًا سهل يسير، لا تعنت فيه ولا كلفة، وطريقة الوحي في بيان أمور الإيمان في غاية من السهولة، فلا مبرر للتنازع فيها كيف ما كان، ولا التشدق والتفيهق والأغلوطات المنهي عنها، أو الخوض في عالم الغيب على جهل، إذ يقول تبارك وتعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلۡإِثۡمَ وَٱلۡبَغۡيَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَأَن تُشۡرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾[الأعراف:33].

وبالرغم من سهولة إدراك قضايا الإيمان واعتقادها، أبت بعض الفرق الإسلامية إلا التشدق في الإيمانيات، وتعسير السبل إلى كمالها وامتثالها، فنجد على سبيل المثال أن بعض الفرق الإسلامية تجزم بوجود تأويل وحيد لأمور الغيب، فأول بعضهم بعض صفات الله جل وعلا جزمًا، متناسين بأن أمور الغيب لا جزم فيها، بل إن من قواعد التأويل في الصفات (قطع الطمع عن إدراك ذات الله تعالى)، إذ أن من قواعد تفسيرالأسماء والصفات «الإيمان

1. البخاري، **صحيح البخاري**، كتاب الإيمان، بَابُ سُؤَالِ جِبْرِيلَ النَّبِيَّ ﷺ عَنِ الإِيمَانِ، وَالإِسْلاَمِ، وَالإِحْسَانِ، وَعِلْمِ السَّاعَةِ، رقم الحديث 50، 19/1.

بما وصف الله به نفسه، أو وصفه به رسوله ﷺ على الوجه اللائق بكماله وجلاله، كما قال بعد قوله: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الشورى 11] مع قطع الطمع عن إدراك كيفية الاتصاف»[1].

وقد ترتب جراء التعنت في هذا الباب شيوع ظاهرة عدم التسامح بين بعض الفرق في قبول التأويل الآخر لصفات الله جل وعلا، وتفاقم الأمر إلى وقوع التكفير، والتبديع، والتفسيق، بين المسلمين من أهل القبلة، بالرغم من استحالة الجزم بتأويلها لكونها من أمور الغيب، ﴿يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلۡمٗا﴾ [طه: 110]، وهذه القضية إنما هي قطرة من بحر متلاطم الأمواج، هيجته خلافات أصحاب الملة والمعتقد الواحد.

كما تطور هذا النزاع العقدي إلى الإضرار بالآخر بفرض الاعتقاد عليه، وإقصائه في الغالب من دائرة الإسلام، وقد قال عليه أفضل الصلاة والسلام: «ومن قذف مؤمنًا بكفر فهو كقتله»، وقال ﷺ: «إذا كفر الرجل أخاه فقد باء بها أحدهما»، وفي رواية أخرى: «أيما رجل قال لأخيه يا كافر فقد باء بها أحدهما، إن كان كما قال، وإلا رجعت عليه»، قال ابن دقيق العيد: «وهذا وعيد عظيم لمن أكفر أحدًا من المسلمين، وليس كذلك، وهي ورطة عظيمة وقع فيها خلق كثير من المتكلمين، ومن المنسوبين إلى السنة وأهل الحديث، لما اختلفوا في العقائد فغلظوا على مخالفيهم، وحكموا بكفرهم»[2]، وقد روى ابن عبد البر عن أبي سفيان قال: «قلت لجابر: أكنتم تقولون لأحد من أهل القبلة:

1. الشنقيطي، محمد الأمين، **أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن**، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 1995، 3/19.
2. العيد، ابن دقيق، **إحكام الأحكام في شرح عمدة الأحكام**، 1987، 2/210.

كافر؟ قال: لا. قلت: فمشرك؟ قال: معاذ الله، وفزع»[1]، فلم يعرف عن رسول الله صلى عليه وسلم، ولا عن صحابته عليهم رضوان الله، تكفير أُناس أقاموا أصول الإيمان واعتقدوها، لمجرد سقط أو خطأ في قضايا جزئية، ومسائل فرعية من مسائل الاعتقاد.

وفي خضم هذا؛ فقد نتج عن هذا السيل الجارف من موجة التكفير والخلافات العقدية توسيع كبير لدائرة الفرق الإسلامية. فلا تكاد تبرز فرقة إلا وتتشعب من خلالها فرق أخر، فمن المعتزلة كانت الواصلية، والنظامية، والخابطية، والحدثية، والبشرية، والمعمرية، والمردارية، والثمامية، والهشامية، والجاحظية، والخياطية، والكعبية، والجبائية، والبهشمية، ومن الجبرية كانت الجهمية، والنجارية، والضرارية، ومن الصفاتية كانت الأشعرية، والكرامية، ومن المرجئة كانت اليونسية، والعبيدية، والغسانية، والثوبانية، والتومنية، والصالحية، ومن الشيعة كانت الكيسانية، والزيدية، والإمامية، والغالية، والإسماعيلية[2]، والكثير من الفرق التي لا يسعنا حصرها في هذا السياق، كل ما اختلفت فرقة نازعت أختها، حتى لم يبق بين طوائف المسلمين ألفة أو تراحم.

وقد تضاخمت الردود بين تلك الفرق إلى مئات المئات من المصنفات، فلا يخف على كل قارئ وباحث سعة المصنفات المتكاثرة في باب الردود، وهي

1. ابن عبد البر، **التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد**، تحقيق مصطفى بن أحمد العلوي ومحمد عبد الكبير البكري، وزارة عموم الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، 1387 هـ، 21/17.
2. انظر: الشهرستاني، أبو الفتح محمد بن عبد الكريم، **الملل والنحل**، تحقيق عبد العزيز الوكيل، مؤسسة الحلبي، بيروت، 1968، 115/3.

أكثر من أن تحصر أو تذكر في ثنايا هذا البحث، والتي صيرها أصحابها في الرد على أعلام الفرق لا لمجرد بيان الزلل، ولو كانت تلك الردود مقصورة في الرد على الرأي دون تكفير صاحبه أو إباحة دمه لكان خيرًا وأحسن تأليفًا، ولكنها تنضح بالتكفير ودعاوى التعنيف والقتل. يقول الذهبي -رحمه الله: «ولو أنا كلما أخطأ إمام في اجتهاده في آحاد المسائل خطأ مغفورًا له، قمنا عليه، وبدعناه، وهجرناه، لما سلم معنا لا ابن نصر، ولا ابن مندة، ولا من هو أكبر منهما، والله هو هادي الخلق إلى الحق، وهو أرحم الراحمين، فنعوذ بالله من الهوى والفظاظة»[1].

وقد توغلت الخلافات العقدية حتى أُقحمت في أمور السياسة والحكم، فقد تبنى بعض الولاة آراء عقدية حملتهم على ابتلاء الناس في عقائدهم، وقطع أواصل التعايش بينهم، وتعذيب مخالفيهم أو قتلهم، ففي عهد الخليفة العباسي المأمون كانت محنة (خلق القرآن) التي عذب فيها علماء أجلاء، وأناس أبرياء، وقد تبعه من بعده من الخلفاء العباسيين المعتصم، والواثق، في إلزام هذا المعتقد بالقوة والسيف، فامتحن بها عفان بن مسلم، وأحمد بن حنبل، وموسى بن معاوية الصمادحي، وسحنون بن سعيد التنوخي، وغيرهم.[2]

وليست فتنة (خلق القرآن) أول فتنة، بل ذاق ويلات تلك الخلافات العقدية جمع من الفقهاء، والأدباء، والفلاسفة، فهذا أبو حنيفة النعمان

---

1. الذهبي، شمس الدين، محمد بن أحمد، **سير أعلام النبلاء**، دار الحديث، القاهرة، 2006، 27/11.
2. انظر: التميمي، أبو العرب، **المحن**، دار العلوم، الرياض، 1984، ص .448.

مات مسمومًا[1]، وابن فورك سقي السم أيضًا، وكذا القاضي عياض[2]، وجهم بن صفوان قتيلًا[3]، وغيلان بن مسلم الدمشقي مصلوبًا[4]، وكذا الجعد بن درهم[5]، وشهاب الدين السهروردي قتل مخنوقًا[6]، وكذا لسان الدين ابن الخطيب[7]، وابن المقفع قتل معذبًا أشنع تعذيب[8]، وخلق كثير من المسلمين، الذين لم تبلغ آراؤهم مبلغًا يوجب القتل أو التعذيب.

وإن الناظر في أغلب الآراء العقدية المتعسفة وما أفضت إليه من تنازع وشقاق، يجدها قد تكونت نتيجة امتزاج النظريات الإيمانية في بعض الديانات القديمة -كالغنوصية مثلًا- بالقضايا الإيمانية الإسلامية، فتأثر بعض الفرق بما لدى الآخر جعلها تستقطب بعض الأصول أو القواعد الفكرية التي وصفتها في فهم دينها، مفضية في ذلك إلى نوع من التعمق والتشدد والتشدق والتلكف في تقرير أمور تحقيق الإيمان[9]، مما يخالف في حقيقته يسر الدين وسهولة تحقيقه لدى المكلف، بالإضافة إلى لجوء بعض تلك الفرق إلى تفسير النصوص البينة، بنصوص منفصلة من الديانات القديمة أو آراء مجردة، مما أنتج كلفة في تقرير العقائد، فكيف يفسر المبَين المُبين-الوحي- بغير ما يفسر به!، ولم ينتج

1. انظر: التميمي، أبو العرب، **المحن**، دار العلوم، الرياض، 1984، ص 276.
2. الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، 217/20.
3. الزركلي، خيرالدين بن محمود، **الأعلام**، دار العلم للملايين، بيروت، ط 5، 2002، 141/2.
4. السابق، 5/ 124.
5. الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، 151/6.
6. الزركلي، **الأعلام**، 140/8.
7. السابق، 235/6.
8. الزركلي، **الأعلام**، 332/6.
9. هاينسهالم، **الغنوصية في الإسلام**، (ترجمة: رائد الباش)، دار الجمل، بيروت، ط 2، 2010م، ص.ص 5-20.

من ذلك إلا إيقاع حرج بالمسلمين، ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: 78]، ولا شك أن ذلك خروج عن طريقة التيسير إلى طريقة التعسير.

كما أغفلت بعض الفرق الإسلامية حقيقة أن (لازم الفكر ليس بلازم مالم يلتزمه الشخص)، فلا يلزم -على سبيل المثال- نفي فرقة من الفرق لصفة من صفات الله أن نفهم ذلك نفي استنقاص وإنكار، بل ينظر في زعمهم بكونه نفي تنزيه أو تعظيم، وكذا غير ذلك مما تُعمل في القاعدة، بعيدًا عن كونه مصيبًا أو مخطئًا في زعمه، وإن إلزامه بما لم يلتزمه أو يعنيه تشكيل لتصور مناف لحقيقة فكر المخالف، وحمل له على خلاف ما أراد.

والأمة مجمعةٌ على إطلاق كثير من أسماء الله الحسنى، وإطلاق الرحمن الرحيم على الله تعالى، وأنه واسع الرحمة، وخير الراحمين، وأرحم الراحمين على سبيل المدح له، والثناء عليه بذلك كما يُمدح بجميع ذلك في كتابه المبين، وكما أن ذلك يحتمل في اللغة أن يُفسَّر بمثل رحمة المخلوق المؤلمة لقلبه، المُبكية لعينه، المُنَغِّصة لعيشه عند عجزه اللازمة لكثيرٍ من الآفات لنقصه، ولم يحتملمن أطلقها على الله على شيء من ذلك، لأن الله سبحانه يختصُّ من كل صفةٍ بمحاسنها دون مساوئها، كما أنه لما اتصف بالعلم، لم يجُزْ عليه ما يجوزُ على المخلوق العالم من اكتساب العلم، وحدوثه، وتغيُّره، والشك فيه، والنِّسيان له، والتألم ببعضه، وسائر النقائص[1]. واشتهر لدى الناس كلهم أن (الرَّحْمَنُ) اسم من أسماء الله تعالى، لا يقال لغيره، وهو في الكتب المتقدمَة، ومعناه الكثير الرحمة[2].

---

1. ابن الوزير، محمد بن إبراهيم بن علي، **العواصم والقواصم في الذب عن سنة أبي القاسم**، بيروت، 1994، 12/5.
2. الزجاج، **معاني القرآن**، 95/5.

وروى ابن عباس أَنَّ عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ سَأَلَ رَسُولَ اللَّهِ- ﷺ- عَنْ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ فَقَالَ: هُوَ اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ، وَمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ اسْمِ اللَّهِ إِلا كَمَا بَيْنَ سَوَادِ الْعَيْنَيْنِ وَبَيَاضِهِمَا مِنَ القرب[1].واختلفوا في اشتقاق الرحمن والرحيم على قولين: أحدهما: أنهما مشتقان من رحمة واحدةٍ، جُعِل لفظ الرحمن أشدَّ مبالغة من الرحيم. والقول الثاني: أنهما مشتقان من رحمتين, والرحمة التي اشتق منها الرحمن, غير الرحمة التي اشتق منها الرحيم, ليصح امتياز الاسمين, وتغاير الصفتين, ومن قال بهذا القول اختلفوا في الرحمتين على ثلاثة أقوال: أحدها: أن الرحمن مشتق من رحمة الله لجميع خلقه , والرحيم مشتق من رحمة الله لأهل طاعته. والقول الثاني: أن الرحمن مشتق من رحمة الله تعالى لأهل الدنيا والآخرة, والرحيم مشتق من رحمتِهِ لأهل الدنيا دُون الآخرة. والقول الثالث: أن الرحمن مشتق من الرحمة التي يختص الله تعالى بها دون عباده, والرحيم مشتق من الرحمة التي يوجد في العباد مثلُها[2]. وأما الرحمة التى جعلها الله فى قلوب عباده يتراحمون بها فهى من صفات أفعاله، ألا تراه (ﷺ) قد وصفها بأن الله خلقها فى قلوب عباده، وجعله لها فى القلوب خلق منه تعالى لها فيها، وهذه الرحمة رقة على المرحوم[3].

ولذا أمر الله نبيه عليه الصلاة والسلام أن يخبر الناس جميعًا بقوله: ﴿نَبِّئۡ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الْحِجْرِ: 49] فقوله: نبىء إِشَارَةٌ إِلَى

---

1. ابن أبي حاتم، **تفسير القرآن العظيم**، 25/1.
2. الماوردي، علي بن محمد، **النكت والعيون**، تحقيق السيد ابن عبد المقصود بن عبد الرحيم، دار الكتب العلمية، بيروت، (د.ت)، 53/1.
3. ابن بطال، علي بن خلف، **شرح صحيح البخاري**، تحقيق أبو تميم ياسر بن إبراهيم، مكتبة الرشد، الرياض، ط 2، 2003، 404/10.

مُحَمَّدٍ ﷺ، وَهُوَ مَذْكُورٌ قَبْلَ الْعِبَادِ، وَالْيَاءُ فِي قَوْلِهِ: عِبَادِي ضَمِيرٌ عَائِدٌ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى وَالْيَاءُ فِي قَوْلِهِ: أَنِّي عَائِدٌ إِلَيْهِ، وَقَوْلُهُ: أَنَا عائد إليه، وقول: الْغَفُورُ الرَّحِيمُ، صِفَتَانِ لِلَّهِ فَهِيَ خَمْسَةُ أَلْفَاظٍ دَالَّةٌ عَلَى اللَّهِ الْكَرِيمِ الرَّحِيمِ، فَالْعَبْدُ يَمْشِي يوم القيامة وقدامه الرسول عليه الصلاة والسلام مَعَ خَمْسَةِ أَسْمَاءٍ تَدُلُّ عَلَى الرَّحْمَةِ، وَخَلْفَهُ خَمْسَةُ أَلْفَاظٍ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ تَدُلُّ عَلَى الرَّحْمَةِ، وَرَحْمَةُ الرَّسُولِ كَثِيرَةٌ كَمَا قَالَ تَعَالَى: وَما أَرْسَلْناكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعالَمِينَ وَرَحْمَةُ اللَّهِ غَيْرُ مُتَنَاهِيَةٍ كَمَا قَالَ تَعَالَى: وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ [الْأَعْرَافِ: 156] فَكَيْفَ يُعْقَلُ أَنْ يَضِيعَ الْمُذْنِبُ مَعَ هَذِهِ الْبِحَارِ الزَّاخِرَةِ الْعَشَرَةِ الْمَمْلُوءَةِ مِنَ الرَّحْمَةِ؟[1].

ويستنبط من كون الله له أسماء وصفات ثابتة بالقرآن والسنة الصحيحة أنه تعالى لما أثبت لنفسه أنه مستو على العرش ربط ذلك بالرحمة من خلال اسمه الرحمن ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه: 5] «لِأَنَّ الْعَرْشَ مُحِيطٌ بِالْمَخْلُوقَاتِ قَدْ وَسِعَهَا، وَالرَّحْمَةُ مُحِيطَةٌ بِالْخَلْقِ وَاسِعَةٌ لَهُمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى ﴿وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ﴾ [الأعراف: 156] فَاسْتَوَى عَلَى أَوْسَعِ الْمَخْلُوقَاتِ بِأَوْسَعِ الصِّفَاتِ، فَلِذَلِكَ وَسِعَتْ رَحْمَتُهُ كُلَّ شَيْءٍ، وَفِي الصَّحِيحِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ «لَمَّا قَضَى اللَّهُ الْخَلْقَ كَتَبَ فِي كِتَابٍ فَهُوَ عِنْدَهُ مَوْضُوعٌ عَلَى الْعَرْشِ إِنَّ رَحْمَتِي تَغْلِبُ غَضَبِي» وَفِي لَفْظٍ «فَهُوَ عِنْدَهُ عَلَى الْعَرْشِ»[2].

1. الرازي، **مفاتيح الغيب**، 241/1.
2. ابن القيم الجوزية، **مدارج السالكين**، تحقيق محمد المعتصم بالله البغدادي، ط 3، 1996.

المبحث الثالث: علاقة الرحمة ببعث الرسل ومنهجهم في ممارستها

إن فلسفة وجود الرسل والرسالات تعود منذ الأزل إلى إقامة الحجج والبراهين على المدعوين، لاسيما في القضايا الغيبية التي لا مناص فيها من استنطاق الوحي بواسطة الأنبياء الذين لا ينطقون عن الهوى، وهذا يستدعي التأمّل في ضرورة بعث الرسل من جهة، والمقصد من بعثهم من جهة أخرى.

ويبدو أن التأمل في الموضوع يثمر الاعتراف بأن البشر لو تُركوا غُفلًا عن التعاليم الربانية لانتابتْهم صنوف من الاختلافات العويصة المؤدّية إلى النزاع في الثوابت الإنسانية مثل ثوابت الأخلاق والقيم وعمارة الأرض. إذ العقلاء مجمعون على أن الأخلاق كان مصدرُها الإله الذي بيده ملكوت كل شيء، ويستحيل اعتبارها أمرًا اعتباطيًا ناتجًا عن عرف البشر.

من أجل هذا أرى النظرة المادية إلى القيم لا تتعمق في تحقيق منبعها، نظرًا لأن الفهم المادي لطبيعة الأخلاق ينأى عن المثل العليا، وإنما يسعى لتحقيق الظواهر المادية واللذات ولو انتُهكت القيم، ولا يخفى في هذا الطرح اتجاهات كلّ من فرويد(Sigmund Freud) و(نيتشه) خلافًا لآخرين مثل (أرسطو) و(كانط).

كما أن التأمل في مقصدية بعث الرسل يعطي بادئ الرأي تلك العناية التي يريدها المرسِل -وهو الله تعالى- من الناس، وقد بعث مقاديرها مع الأنبياء ليتم الكون كله بنظام تنفيذ المهام، مع أن الله غني عن العالمين، إذ من حيثية

أن الإله الحق لا يترك خلقَه هملًا، ولكنْ يبيّن لهم سبل السلام، لِما تقتضيه كثير من الأنفس المختلفة من محاولات لإذكاء دواعي الضغائن والشر؛ بسبب التكوين الجيني للإنسان من ماء وطين وروح وكل واحد من هذه الثلاثة له انفعالاته الخاصة.

ولذلك كان اصطفاء الله للأنبياء دليلًا على نقاء سريرتهم من كل دنس قد يعتري الأنفس، وإلى هذا التطهير تشير سورة الشرح ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾، ويظل الاصطفاء من خصائص الله لأنه الأعلم بالأنقى والأتقى ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ [الحج:75].وهؤلاء المصطفين -من دون شك- قد بلغوا الدرجة العالية في الأخلاق الحسنة، بل صارت الرحمة متعلقة بأسمائهم كما روى مسلم وغيره عنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ، قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُسَمِّي لَنَا نَفْسَهُ أَسْمَاءً، فَقَالَ: «أَنَا مُحَمَّدٌ، وَأَحْمَدُ، وَالْمُقَفِّي، وَالْحَاشِرُ، وَنَبِيُّ التَّوْبَةِ، وَنَبِيُّ الرَّحْمَةِ»[1].

وقد رأى عامة المؤرخين أن نوحًا عليه السلام هو أول الرسل الذين وقع الجدال الديني في عهدهم بسبب وجود المخالفات العقدية لدى قوم نوح بسبب ما أحدثوه من الوثنية التي لبّسها إبليس بأوليائه وأتباعه حينما استغل قضية صناعة التماثيل وتقادم العهد بين الأجيال.

وإذا كانت قصص نوح وغيره من الأنبياء تستحضرها الأذهان؛ فإن مجال البحث سينصب على طائفة من المستنبطات المتعلقة بعلاقة الرحمة ببعث الرسل ومنهجهم في ممارستها على النحو الآتي:

---

1. مسلم، **صحيح مسلم**، كتاب الفضائل، رقم الحديث 2355، 7/ 90.

1. كان الأنبياء وأتباعهم على منهجية البساطة في الطرح، وهو فنّ من فنون التدرج بالمتلقي والرحمة به، وقد قلّدهم في هذه الطريقة الفلاسفة المشاءون، ولذلك حاول قوم نوح ازدراء رسولهم وأتباعه بسبب هذه الطريقة، ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ﴾ [هود: 27]، بل كان طبعهم في الجدال أشبه ما يكون بميدان المناظرة التي تُبنى على المماحكة الممزوجة بالمسامحة في تبنّي الآراء، وشاهد هذا كقوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ﴾ [هود: 35] ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٢٤ قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [سبأ: 24، 25]. وفي قصة هود جاء ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ﴾ [هود: 28]، وفي قصة نبينا ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا﴾ [الإسراء: 28]، وقد صرح النبي ﷺ كما في مرسل سعيد بن المسيب عند خيثمة أنه قال: «إِنَّا مَعَاشِرَ الْأَنْبِيَاءِ كَذَلِكَ أُمِرْنَا أَنْ نُكَلِّمَ النَّاسَ بِقَدْرِ عُقُولِهِمْ»[1].

2. استعمال الترغيب لتقريب فضائل الإيمان، وهو مدخل واسع في منهجية الأنبياء لتحبيب الامتثال للأوامر، إذ الناس مجبولون على البحث

1. الأطرابلسي، خيثمة بن سليمان، **جزء من حديث خيثمة بن سليمان**، تحقيق عمر تدمري، 1980، ص 75.

عن المنافع، لاسيما الدنيوية الآنية، وهذا ضرب من ضروب الرحمة بالمدعوّ، وما سر استجابة الدعاء إلا فيوض من رحمات الله التي يستمطرها الداعي ليحصل شيئًا من متاع الدنيا، ﴿يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۝١١ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّـٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَـٰرًا﴾ [نوح: 11، 12] ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَـٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: 96].

3. توظيف الألفاظ الدالة على التحبيب والشفقة مثل قولهم: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ۝١٣٢ أَمَدَّكُم بِأَنْعَـٰمٍ وَبَنِينَ ۝١٣٣ وَجَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ۝١٣٤ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء: 132 - 135] ﴿يَـٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ۝٤٣ يَـٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَـٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَـٰنِ عَصِيًّا ۝٤٤ يَـٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَـٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَـٰنِ وَلِيًّا ۝٤٥﴾ [مريم: 43 - 45] ﴿إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ۝٢٥ قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ ۖ قَالَ يَـٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ۝٢٦ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾ [يس: 25 - 27] ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِنَا فَقُلْ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَـٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنعام: 54].

4. لم يكن منهج الأنبياء ذا صبغة دموية ألبتة، وإنما كان على محجة عمقها الرحمة وظاهرها العفو والصفح، حتى إن الوارد في القرآن بعد وقوع تكذيب الأقوام لرسلهم هو المسامحة والإمهال والعفو والإعراض ﴿فَذَكِّرْ

إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ۝٢١ لَّسۡتَ عَلَيۡهِم بِمُصَيۡطِرٍ﴾ [الغاشية: 21، 22] ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمۡ ذُو رَحۡمَةٖ وَٰسِعَةٖ﴾ [الأنعام: 147] ﴿فَٱصۡفَحِ ٱلصَّفۡحَ ٱلۡجَمِيلَ﴾ [الحجر: 85] ﴿فَٱصۡفَحۡ عَنۡهُمۡ وَقُلۡ سَلَٰمٞۚ﴾ [الزخرف: 89]. بل إن من اللافت للنظر أن القرآن مع كثرة إيراده لجملة من دقائق القصص القديمة إلا أنه لم يورد وجود حروب دموية لدى الأنبياء السابقين؛ مما يدل دلالة واضحة أن القتال ليس مما يُدعى إليه، نظراً لما يستدعيه الاقتتال من فساد في الأرض وإفناءٍ لما برأ الله من نسمات.

فإن قيل: فإننا نجد بعض ذلك في حوادث قصة نبينا عليه الصلاة والسلام؛ فالجواب أن ذلك في معرض الدفاع وصدّ المعتدي والصائل، ولذلك عبّربصيغة (يُقاتَلون) ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج: 39] ولفظة (أُذن) تدل على أن الأصل المنع، ولكن أبيح لضرورة حفظ النفس والدين والمال. ولذا قال الدهلوي:

واضطر الْخَلِيفَة إِلَى إِقَامَة الْقِتَال دفعًا للضَّرَر اللَّاحِق لَهُم من أنفس سبعية تنهب أَمْوَالهم، وَتَسْبِي ذَرَارِيهمْ، وتهتك حرمهم، وَهَذِه الْحَاجة هِيَ الَّتِي دعت بني إِسْرَائِيل إِلَى أَن قَالُوا لنَبِيّ لَهُم. ﴿ٱبۡعَثۡ لَنَا مَلِكٗا نُّقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وَابْتِدَاء إِذا أساءت أنفس شهوية أَو سبعية السِّيرَة، وأفسدوا فِي الأَرْض، فألهم الله سبحانه إِمَّا بِلا واسطة أَو بِواسطة الأَنْبِيَاء أَن يسلب شوكتهم، وَيقتل مِنْهُم

من لا سَبِيل لَهُ إِلَى الْإِصْلَاح أصلًا، وهم فِي نوع الْإِنْسَان بِمَنْزِلَة العضو المتلف بالآكلة[1].

وتلك المسامحة تقمصها النبي ﷺ في مشهد يحكيه عبد الله بن مسعود «كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، يَحْكِي نَبِيًّا مِنَ الأَنْبِيَاءِ، ضَرَبَهُ قَوْمُهُ فَأَدْمَوْهُ، وَهُوَ يَمْسَحُ الدَّمَ عَنْ وَجْهِهِ وَيَقُولُ: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ»[2].

6. ومن أبرز الممارسات للرحمة في منهج الأنبياء أنهم عليهم الصلاة والسلام ظلوا على إنسانيتهم فيمرضون، ويُبتلَون، ويُقتلون، وقد نُكّل بكثير منهم، وهجّروا، مع أن لهم عند الله المنزلة التي يستشفعون بها للدعاء على أقوامهم فلم يفعلوا، إذ ليس من صفات أهل الكمال الانتقام والتشفّي، ومصداق ذلك قد ورد في الصحيح عن عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أَنَّهَا قَالَتْ لِلنَّبِيِّ ﷺ:

هَلْ أَتَى عَلَيْكَ يَوْمٌ كَانَ أَشَدَّ مِنْ يَوْمِ أُحُدٍ، قَالَ: «لَقَدْ لَقِيتُ مِنْ قَوْمِكِ مَا لَقِيتُ، وَكَانَ أَشَدَّ مَا لَقِيتُ مِنْهُمْ يَوْمَ العَقَبَةِ، إِذْ عَرَضْتُ نَفْسِي عَلَى ابْنِ عَبْدِ يَالِيلَ بْنِ عَبْدِ كُلاَلٍ، فَلَمْ يُجِبْنِي إِلَى مَا أَرَدْتُ، فَانْطَلَقْتُ وَأَنَا مَهْمُومٌ عَلَى وَجْهِي، فَلَمْ أَسْتَفِقْ إِلَّا وَأَنَا بِقَرْنِ الثَّعَالِبِ فَرَفَعْتُ رَأْسِي، فَإِذَا أَنَا بِسَحَابَةٍ قَدْ أَظَلَّتْنِي، فَنَظَرْتُ فَإِذَا فِيهَا جِبْرِيلُ، فَنَادَانِي فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ، وَمَا رَدُّوا عَلَيْكَ، وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكَ الجِبَالِ لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ، فَنَادَانِي مَلَكُ الجِبَالِ فَسَلَّمَ عَلَيَّ، ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، فَقَالَ ذَلِكَ فِيمَا شِئْتَ، إِنْ شِئْتَ أَنْ

1. الدهلوي، أحمد بن عبد الرحيم بن الشهيد، **حجة الله البالغة**، دار الجيل، بيروت، 1426 هـ - 2005م، 97/1.
2. البخاري، **صحيح البخاري**، كتاب، باب حديث الغار، رقم الحديث 3476، 465/4.

أُطْبِقَ عَلَيْهِمُ الأَخْشَبَيْنِ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ مِنْ أَصْلاَبِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ، لاَ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا»[1].

وقال أبو سعيد الْخُدْرِي: وَضَعَ رَجُلٌ يَدَهُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: وَاللهِ مَا أُطِيقُ أَنْ أَضَعَ يَدِي عَلَيْكَ مِنْ شِدَّةِ حُمَّاكَ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّا مَعْشَرَ الْأَنْبِيَاءِ يُضَاعَفُ لَنَا الْبَلَاءُ، كَمَا يُضَاعَفُ لَنَا الْأَجْرُ... وَإِنْ كَانُوا لَيَفْرَحُونَ بِالْبَلَاءِ، كَمَا تَفْرَحُونَ بِالرَّخَاءِ»[2].

وقد يتساءل فئام من الناس عن هذا النبل الكامن في قلوب الأنبياء حينما يتسامحون حتى مع المنكّلين بهم، فجواب ذلك أن الأنبياء لَمَّا عرفوا ما لدى الله من رحمة علموا أن رحمته تسبق غضبه، وأن الخالق لم يخلق ليعذّب، ولكن قد لا يُستصلح بعض الناس إلا بالوعيدالشديد أو بإذاقة العذاب الأليم، إذ بعض الطبائع ميالة للشر على اعتبار أن إبليس له أنصار من الجن والإنس، ولا ريب أن الصراع بين الخير والشر قضية ضاربة في التاريخ منذ الواقعة بين قابيل وهابيل.

وفي الوقت ذاته قد يكون الاغترار بما لدى الله من رحمة مدعاةً للوقوع في الأمن من مكر الله، وكلٌّ من الإياس من رحمة الله أو الأمن من مكر الله خطر جليل في شؤون الإيمان قد يتسببان في الإلحاد أو الطغيان أو محاداة الله كما انجرّ في مغبّتها طوائف من المنتسبين إلى أهل الكتاب.

1. البخاري، **صحيح البخاري**، كتاب بدء الخلق، بَابُ إِذَا قَالَ أَحَدُكُمْ: آمِينَ وَالمَلاَئِكَةُ فِي السَّمَاءِ، آمِينَ فَوَافَقَتْ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَى، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ، رقم الحديث 3231، 4/ 113.
2. ابن حنبل، **مسند الإمام أحمد**، رقم الحديث 11893، 391/18.

7. وقد أظهر الأنبياءُ خصلة الرحمة في منهجهم من خلال ما قُدر لهم في ذويهم، فظهرت رقةُ عاطفتهم ورحمة قلوبهم،فهذا نبي الله نوح في قصته مع ابنه الذي آوى إلى الجبل فأراد نوح نجاته، وأراد إبراهيم نجاة أبيه، كما أراد محمد عليه الصلاة والسلام نجاة عمه أبي لهب، وما تلك المقدرات إلا إبراز لمكمن آخر من مكامن الكمال البشري حينما يُبتلى الإنسان الكامل في أقربائه الذين يحاربونه ويكذبونه، فتتقطع نياط قلبه حُزنًا عليهم، وشفقة من أجلهم، حتى بلغ الشأن مداه لما وصف الله جل وعلا نبيه ﷺ بقوله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾ [القصص: 56].

8. وثمة قضية في غاية من الدّقة تتعلق بسنن الله تعالى، إذْ من المعلوم أن سنن الله الكونية ماضية لا رادّ لها، ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا﴾ [فاطر: 43]. ومع كونها قضية حتمية إلاّ أن موضوع الرحمة قد حقق الاستثناء في قانون السنن الإلهية وهذا الأمر وقع بإذن الله وإرادته. برهان ذلك قصة يونس عليه السلام، ويوشع عليه السلام الذي «قَالَ لِلشَّمْسِ: إِنَّكِ مَأْمُورَةٌ وَأَنَا مَأْمُورٌ اللَّهُمَّ احْبِسْهَا عَلَيْنَا»[1]، وكذا شيء متعلق بأمة نبينا ﷺ.

فأما واقعة يونس عليه السلام فقد نص الله فيها ﴿فَلَوۡلَا كَانَتۡ قَرۡيَةٌ ءَامَنَتۡ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوۡمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفۡنَا عَنۡهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ﴾ [يونس: 98].

---

1. البخاري، **صحيح البخاري**، كتاب فرض الخمس، باب قول النبي ﷺ أحلت لكم الغنائم، رقم الحديث 3124، 86/4.

وقال الطبري في جامع البيان:

وَمَعْنَى الْكَلَامِ: فَمَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ عِنْدَ مُعَايَنَتِهَا الْعَذَابَ وَنُزُولَ سَخَطِ اللَّهِ بِهَا بِعِصْيَانِهَا رَبَّهَا وَاسْتِحْقَاقِهَا عِقَابَهُ، فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا ذَلِكَ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ، كَمَا لَمْ يَنْفَعْ فِرْعَوْنَ إِيمَانُهُ حِينَ أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ بَعْدَ تَمَادِيهِ فِي غَيِّهِ وَاسْتِحْقَاقِهِ سَخَطَ اللَّهِ بِمَعْصِيَتِهِ. ﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ﴾ [يونس: 98] فَإِنَّهُمْ نَفَعَهُمْ إِيمَانُهُمْ بَعْدَ نُزُولِ الْعُقُوبَةِ وَحُلُولِ السَّخَطِ بِهِمْ. فَاسْتَثْنَى اللَّهُ قَوْمَ يُونُسَ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى الَّذِينَ لَمْ يَنْفَعْهُمْ إِيمَانُهُمْ بَعْدَ نُزُولِ الْعَذَابِ بِسَاحَتِهِمْ، وَأَخْرَجَهُمْ مِنْهُ، وَأَخْبَرَ خَلْقَهُ أَنَّهُ نَفَعَهُمْ إِيمَانُهُمْ خَاصَّةً مِنْ بَيْنِ سَائِرِ الْأُمَمِ غَيْرِهِمْ[1].

وأما نبينا عليه الصلاة والسلام فقد صحت أحاديث في هذا الموضوع نورد ركائزها مجملًا، ففي مسند ابن الجعد عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «سَأَلْتُ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ أَلَّا يُعَذِّبَ اللَّاهِينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ الْبَشَرِ فَأَعْطَانِيهِمْ»[2]. وفي صحيح مسلم :

وَإِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي لِأُمَّتِي أَنْ لَا يُهْلِكَهَا بِسَنَةٍ عَامَّةٍ، وَأَنْ لَا يُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ، فَيَسْتَبِيحَ بَيْضَتَهُمْ، وَإِنَّ رَبِّي قَالَ: يَا مُحَمَّدُ إِنِّي إِذَا قَضَيْتُ قَضَاءً فَإِنَّهُ لَا يُرَدُّ، وَإِنِّي أَعْطَيْتُكَ لِأُمَّتِكَ أَنْ لَا أُهْلِكَهُمْ بِسَنَةٍ عَامَّةٍ، وَأَنْ لَا أُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ، يَسْتَبِيحُ بَيْضَتَهُمْ، وَلَوِ اجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ مَنْ

1. الطبري، **جامع البيان**، 291/12.
2. الجوهري، علي ابن الجعد، **مسند ابن الجعد**، تحقيق عامر أحمد حيدر، مؤسسة نادر- بيروت 1990، رقم الحديث 2906.

بِأَقْطَارِهَا - أَوْ قَالَ مَنْ بَيْنَ أَقْطَارِهَا - حَتَّى يَكُونَ بَعْضُهُمْ يُهْلِكُ بَعْضًا، وَيَسْبِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا»[1].

ويندرج هنا بعض الحوادث التي حكاها القرآن الكريم كقصة حزقيل، وأصحاب الكهف، ممن كانت في قصصهم عبرة من جهة خروجهم عن المألوف في سنن الله تعالى.

9. وقد ظهرت ممارسة الرحمة لدى الأنبياء في التشريعات كذلك، ففي الصحيحين التنصيص على إباحة الغنائم وقد كانت محرمة على من كان قبلنا «فَلَمْ تَحِلَّ الْغَنَائِمُ لِأَحَدٍ مِنْ قَبْلِنَا، ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى رَأَى ضَعْفَنَا وَعَجْزَنَا، فَطَيَّبَهَا لَنَا»[2]، وفي مسألة توسيع القراءة بالأحرف السبعة كما ورد الحديث عن أُبَيِّ بنِ كعبٍ:

أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ عِنْدَ أَضَاةِ بَنِي غِفَارٍ، قَالَ: فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَقَالَ: إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تَقْرَأَ أُمَّتُكَ الْقُرْآنَ عَلَى حَرْفٍ، فَقَالَ: «أَسْأَلُ اللهَ مُعَافَاتَهُ وَمَغْفِرَتَهُ، وَإِنَّ أُمَّتِي لَا تُطِيقُ ذَلِكَ»، ثُمَّ أَتَاهُ الثَّانِيَةَ، فَقَالَ: «إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تَقْرَأَ أُمَّتُكَ الْقُرْآنَ عَلَى حَرْفَيْنِ»، فَقَالَ: «أَسْأَلُ اللهَ مُعَافَاتَهُ وَمَغْفِرَتَهُ، وَإِنَّ أُمَّتِي لَا تُطِيقُ ذَلِكَ»، ثُمَّ جَاءَهُ الثَّالِثَةَ، فَقَالَ: إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تَقْرَأَ أُمَّتُكَ الْقُرْآنَ عَلَى ثَلَاثَةِ أَحْرُفٍ، فَقَالَ: «أَسْأَلُ اللهَ مُعَافَاتَهُ وَمَغْفِرَتَهُ، وَإِنَّ أُمَّتِي لَا تُطِيقُ ذَلِكَ»، ثُمَّ جَاءَهُ الرَّابِعَةَ، فَقَالَ: إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تَقْرَأَ أُمَّتُكَ الْقُرْآنَ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرُفٍ، فَأَيُّمَا حَرْفٍ قَرَءُوا عَلَيْهِ فَقَدْ أَصَابُوا[3].

---

1. مسلم، **صحيح مسلم**، رقم الحديث 2889، 171/8.
2. البخاري، **صحيح البخاري**، باب قول النبي ﷺ: أحلت لنا الغنائم، رقم الحديث 3124، 86/4، مسلم، **صحيح مسلم**، كتاب، أو باب، رقم الحديث 1747، 145/5.
3. مسلم، **صحيح مسلم**، رقم الحديث821، 203/2.

10. وقد تتعلق نفوس المؤمنين بعزة الولاء لله والبراء ممن يعاديهم فيستصحبون تلك اللوعة في معاملاتهم؛ فيأتي التشريع الرباني ليعلمهم الرحمة بالناس أجمعين مهما اختلفت أديانهم، نحو ما وقع في موضوع حكم التصدق على فقراء المشركين وفقراء أهل الكتاب؛ حينما ظن بعض المؤمنين عدم الجواز فجاء البرهان من الله رحمةً للفقراء كيفما كانوا، بدليل ما أخرجه ابن أبي حاتم من عدة طرق:

عن سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ كَانَ يَأْمُرُ بِأَنْ لَا يُصَدَّقَ إلا عَلَى أَهْلِ الإِسْلامِ حَتَّى نَزَلَتْ ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ﴾ فَأَمَرَ بِالصَّدَقَةِ بَعْدَهَا عَلَى كُلِّ مَنْ سَأَلَكَ مِنْ كُلِّ دِينٍ. وفي لفظ آخر أَنَّهُ كَانَ يَأْمُرُ بِأَلَّا يُصَدَّقَ إِلَّا عَلَى أَهْلِ الْإِسْلَامِ، حَتَّى نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ﴾ [البقرة: 272] إِلَى آخِرِهَا، فَأَمَرَ بِالصَّدَقَةِ بَعْدَهَا عَلَى كُلِّ مَنْ سَأَلَكَ، مِنْ كُلِّ دِينٍ، وَرُوِيَ عَنِ السُّدِّيِّ، أَنَّهُ قَالَ: الْمُشْرِكِينَ»[1].

11. ومن أوجه ممارسة الرحمة لدى الأنبياء مع أقوامهم طول الصبر في الدعوة ولو بلغ ذلك مئات السنين كما هو الحال عند نوح عليه السلام لما لبث في قومه مصلحًا ألف سنة إلا خمسين عامًا، حتى إن التعبير القرآني وصف قضية التكذيب بأن القوم كذبوا عدة رسل، فاستعمل الجمع إشارة إلى تعاقب نبي واحدٍ على أجيال متتالية، ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُواْ ٱلرُّسُلَ﴾ [الفرقان: 37] ومع ذلك ترى الأنبياء عليهم السلام لم يضجروا، بل بلغوا

1. ابن أبي حاتم، **تفسير القرآن العظيم**، 537/3.

رسالات ربهم، ولم يكتموا، إذ شأن الرسول البلاغ،وإقامة الحجة وبيانُها، وأما إكراه الناس على الإيمان فليس من دين الله في شيء، وحوادث التاريخ تشهد أن بعض الأنبياء لم يؤمن بهم إلا قليل من الخلق، بل بعضهم لم يؤمن به أحد؛ بدليل ما أخبربه عبد الله بن عباس عن النبي ﷺ أنه قال: «عُرِضَتْ عَلَيَّ الْأُمَمُ، فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّهْطَ، وَالنَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّجُلَ، وَالرَّجُلَيْنِ وَالنَّبِيَّ وَلَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ»[1].

12. ويُعتبر وجود طلب التخفيف عن الناس وجهًا من الأوجه البارزة لدى الأنبياء في ممارستهم للرحمة، وتأتي حادثة معراج النبي ﷺ والحوار بينه وبين موسى عليه السلام في حيث قال عليه الصلاة والسلام في حديث البخاري:

فَفَرَضَ اللَّهُ عَلَيَّ خَمْسِينَ صَلاَةً، فَرَجَعْتُ بِذَلِكَ حَتَّى أَمُرَّ بِمُوسَى، فَقَالَ: مُوسَى مَا الَّذِي فَرَضَ عَلَى أُمَّتِكَ؟ قُلْتُ: فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسِينَ صَلاَةً، قَالَ: فَرَاجِعْ رَبَّكَ، فَإِنَّ أُمَّتَكَ لاَ تُطِيقُ ذَلِكَ، فَرَجَعْتُ فَرَاجَعْتُ رَبِّي فَوَضَعَ شَطْرَهَا، فَرَجَعْتُ إِلَى مُوسَى، فَقَالَ رَاجِعْ رَبَّكَ: فَذَكَرَ مِثْلَهُ، فَوَضَعَ شَطْرَهَا، فَرَجَعْتُ إِلَى مُوسَى فَأَخْبَرْتُهُ فَقَالَ: رَاجِعْ رَبَّكَ، فَإِنَّ أُمَّتَكَ لاَ تُطِيقُ ذَلِكَ، فَرَجَعْتُ فَرَاجَعْتُ رَبِّي، فَقَالَ: هِيَ خَمْسٌ وَهِيَ خَمْسُونَ، لاَ يُبَدَّلُ القَوْلُ لَدَيَّ، فَرَجَعْتُ إِلَى مُوسَى، فَقَالَ رَاجِعْ رَبَّكَ، فَقُلْتُ: قَدِ اسْتَحْيَيْتُ مِنْ رَبِّي[2].

---

1. ابن حنبل، **مسند الإمام أحمد**، رقم الحديث 2448، 262/4.
2. البخاري، **صحيح البخاري**، كتاب أحاديث الأنبياء، باب ذكر إدريس عليه السلام، رقم الحديث 4334، 358/4.

13. ويحظى موضوع الشفاعة في التراث الإسلامي بتفصيلات عقدية وضحتها ثلة من الأحاديث كقوله عليه الصلاة والسلام «يَشْفَعُ الْأَنْبِيَاءُ فِيمَنْ كَانَ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ مُخْلِصًا, ثُمَّ يَتَحَنَّنُ اللَّهُ بِرَحْمَتِهِ عَلَى مَنْ فِيهَا , فَمَا يَتْرُكُ فِيهَا عَبْدًا فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنَ الْإِيمَانِ إِلَّا أَخْرَجَهُ مِنْهَا»[1]. وبعد تأمل مجموعة من الأخبار الصحيحة في الشفاعة نجد أن مآلها إرادة رحمة الناس من خلال الإذن بأن يتحول من يستحق الجحيم إلى النعيم، ومن يستوجب درجة في الجنة حتى يرتقي إلى أعلى، بل لو أمعنا النظر في مفهوم أن الله يخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من الإيمان عندها سندرك سرّ لطف الله ورحمته وغناه عن العالمين، ولذا قال عبد الرحمن بن أبي عقيل:

انْطَلَقْتُ فِي وَفْدٍ فَأَتَيْنَا رَسُولَ اللَّهِ، فَأَنَخْنَا بِالْبَابِ، وَمَا فِي النَّاسِ أَبْغَضُ إِلَيْنَا مِنْ رَجُلٍ نَلِجُ عَلَيْهِ، فَمَا خَرَجْنَا حَتَّى مَا كَانَ فِي النَّاسِ رَجُلٌ أَحَبَّ إِلَيْنَا مِنْ رَجُلٍ دَخَلْنَا عَلَيْهِ، فَقَال قَائِلٌ مِنَّا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَلَا سَأَلْتَ رَبَّكَ مُلْكًا كَمُلْكِ سُلَيْمَانَ بْنِ دَاوُدَ، فَضَحِكَ وَقَالَ: «فَلَعَلَّ لِصَاحِبِكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَفْضَلَ مِنْ مُلْكِ سُلَيْمَانَ، وَإِنَّ اللَّهَ لَمْ يَبْعَثْ نَبِيًّا إِلَّا أَعْطَاهُ دَعْوَةً فَمِنْهُمْ مَنِ اتَّخَذَ بِهَا دُنْيَاهُ فَأُعْطِيَهَا، وَمِنْهُمْ مَنْ دَعَا بِهَا عَلَى قَوْمِهِ إِذَا عَصَوْهُ فَأُهْلِكُوا، وَإِنَّ اللَّهَ أَعْطَانِي دَعْوَةً فَاخْتَبَأْتُهَا عِنْدَ رَبِّي، شَفَاعَتِي لِأُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ»[2].

1. ابن أبي شيبة، **مصنف ابن أبي شيبة**، تحقيق سعد الشثري، دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، 2015م، رقم الحديث 36906، 19/ 204؛ ابن حنبل، **مسند الإمام أحمد**، رقم الحديث 11081، 17/ 143.
2. ابن أبي شيبة، **مسند ابن أبي شيبة**، رقم الحديث 33901، 17/ 455.

14. وكـان من منهج الأنبيــاء في ممارسة الرحمـة أنهم يعلمون أقوامهم الأدعية الدالة على الرحمة والعطف والاستغاثــة بالودود سبحانـه وتعالى، وهذا ملحظ مهم ينبغي الوقوف عنده، بسبب قلة الاستعانة بالدعاء في هذا العصر الذي غلبتْ فيه المادية الجافة. ذلك أن القرآن فياض بدعوات الأنبياء وأتباعهم بمنطوق (ارحمنا) (من لدنك رحمة)، وقد ذكر الرازي:

قال: (رحمةً) ليكون ذلك شاملًا لجميع أنواع الرّحمة، فأوّلها: أن يحصل في القلب نور الإيمان والتّوحيد والمعرفة، وثانيها: أن يحصل في الجوارح والأعضاء نور الطّاعة والعبوديّة والخدمة، وثالثها: أن يحصل في الدّنيا سهولة أسباب المعيشة من الأمن والصّحّة والكفاية، ورابعها: أن يحصل عند الموت سهولة سكرات الموت وخامسها: أن يحصل في القبر سهولة السّؤال، وسهولة ظلمة القبر. وسادسها: أن يحصل في القيامة سهولة العقاب والخطاب وغفران السّيّئات وترجيح الحسنات فقوله: من لدنك رحمةً يتناول جميع هذه الأقسام، ولمّا ثبت بالبراهين الباهرة القاهرة أنّه لا رحيم إلّا هو، ولا كريم إلّا هو، لا جرم أكّد ذلك بقوله: (من لدنك) تنبيهًا للعقل والقلب والرّوح على أنّ المقصود لا يحصل إلّا منه سبحانه، ولمّا كان هذا المطلوب في غاية العظمة بالنّسبة إلى العبد لا جرم ذكرها على سبيل التّنكير، كأنّه يقول: أطلب رحمةً وأيّة رحمةٍ، أطلب رحمةً من لدنك، وتليق بك، وذلك يوجب غاية العظمة[1].

---

1. الرازي، **مفاتيح الغيب**، 150/7.

ومما يحكى من ممارسة الأنبياء لهذا الأمر أنه:

أوحى الله إلى نبي من الأنبياء أن العذاب حان قال: فذكر ذلك النبي لقومه، وأمرهم أن يخرجوا أفاضلهم فيتوبوا قال: فخرجوا فأمرهم أن يخرجوا ثلاثة نفرٍ من أفاضلهم وفدًا إلى الله، أو قال: بوفادتهم إلى الله قال: فخرج وفدهم أمام القوم، فقال أحد الثلاثة: اللهم إنك أمرتنا في التوراة التي أنزلت على عبدك موسى أن نعفو عمن ظلمنا، وإنا ظلمنا أنفسنا فاعف عنا قال: وقال الآخر: اللهم إنك أمرتنا في التوراة التي أنزلت على عبدك موسى أن لا نرد السؤال إذا قاموا ببابنا، وإنا سؤالٌ من سؤالك ببابٍ من أبوابك فلا ترد سؤالك، وقال الثالث: اللهم أمرتنا في التوراة التي أنزلت على عبدك موسى أن نعتق رقابًا وإنا عبيدك وأرقاؤك فأوجب لنا عتقنا قال: فأوحى الله إليه أنه قبل منهم وعفا عنهم [1].

14. ولا يخفى أن الله بعث لكل قوم رسولًا ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: 24]، ولما كانت طبائع الناس تختلف، وأوطانهم تتفاوت؛ تأتي مسألة اختلاف الشرائع لدى الأنبياء وإن كانوا متفقين في الأصل الأكبر وهو توحيد الله تعالى، وهذا ضرب من ضروب تطبيقهم للرحمة؛ إذ لو بعث الله شريعة واحدة إلى الناس أجمعين لحصلت شتى أنواع النفور من ذلك الإلزام الوحيد بسلوك منهج لا يقبل التعدد ولا التخفيف، ولا النسخ، ولا التجديد.

1. ابن المبارك، عبد الله، **الزهد والرقائق**، دار الكتب العلمية، بيروت، (د.ط).(د.ت)، ص 21.

من أجل ذلك يقول الله تعالى: ﴿لِكُلّٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗاۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَكُمۡ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمۡۖ فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ﴾ [المائدة: 48] ويماثل ما أخبر به النبي ﷺ كما في الصحيح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أَنَا أَوْلَى النَّاسِ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَالْأَنْبِيَاءُ إِخْوَةٌ لِعَلاَّتٍ، أُمَّهَاتُهُمْ شَتَّى وَدِينُهُمْ وَاحِدٌ».[1] ويقول الهروي في المرقاة:

والمعنى أن حاصل أمر النبوة، والغاية القصوى من البعثة التي بعثوا جميعًا لأجلها دعوة الخلق إلى معرفة الحق، وإرشادهم إلى ما به ينتظم معاشهم، ويحسن معادهم. فهم متفقون في هذا الأصل، وإن اختلفوا في تفاريع الشرع التي هي كالوصلة المؤدية، والأوعية الحافظة له. فعبر النبي ﷺ عما هو الأصل المشترك بين جميع الأنبياء بالأب، ونسبهم إليه، وعبر عما يختلفون فيه من الأحكام والشرائع المتفاوتة بالصورة المتقاربة في الفرض، يعني بحسب الأزمنة والمصالح المتعلقة بالأشخاص المختلفة طبعًا بالأمهات، وهو معنى قوله: وأمهاتهم شتى، فإنهم وإن تباينت أعصارهم وتباعدت أيامهم، فالأصل الذي هو السبب في إخراجهم وإبرازهم كلا في عصره وأمره واحدٌ، ولذا قال: (ودينهم واحدٌ) : وهو الدين الحق الذي فطر الناس عليه، مستعدين لقبوله، متمكنين من الوقوف عليه، والتمسك به، فعلى هذا المراد بالأمهات الأزمنة التي اشتملت عليهم، وانكشفت عنهم[2].

---

1. البخاري، **صحيح البخاري**، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قَوْلِ اللَّهِ ﴿وَاذْكُرْ فِي الكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا﴾ [مريم: 16]، رقم الحديث 3443، 444/4
2. الهروي، علي بن سلطان محمد، **مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح**، دار الفكر بيروت، 1994، 3657/9.

15. وقد يتوارث قوم بعض الأعراف أو الطوطميات التي يكون فيها أنواع من الإيذاء الجسماني لهم [1] ثم تأتي جملة من الشرائع لدى الأنبياء لنقل الناس من الصور الوحشية أو الغالية في الأذية نحو تقديس الحياة وتجريم إيذاء الجسم، مثلما ورد في النصوص المقدسة «أنتم أبناء يهوه؛ ربكم، عليكم عدم جرح أنفسكم، أو جز نواصيكم أثناء حزنكم على الميت، كما لا يجوز لكم وشم أنفسكم، لأنكم شعب مقدس ليهوه ربكم، ولا يجوز لكم تدنيس أرضكم»[2].

وكذلك الشأن في الإسلام إذ يعتبر تعذيب النفس حرامًا، ولو كان بزعم الطاعة، والنصوص القرآنية في هذا الموضوع مشهورة نكتفي بواحد منها خشية الإطالة، ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ [النساء: 29].

16. ولم ينحصر موضوع الرحمة في مجريات حياة الأنبياء، بل يمتد الأمر بعد مماتهم أيضًا، فيُحكى أن دانيال كان قبره في تستر، وكان الناس إذا أصابهم القحط ونحوه من الشدائد هرعوا يتوسلون به إلى الله، وقد ذكر بعض المؤرخين هذا الأمر، وأورد ابن أبي شيبة عن أنس:

أَنَّهُمْ لَمَّا فَتَحُوا تُسْتَرَ قَالَ: فَوَجَدَ رَجُلًا أَنْفُهُ ذِرَاعٌ فِي التَّابُوتِ, كَانُوا يَسْتَظْهِرُونَ وَيَسْتَمْطِرُونَ بِهِ, فَكَتَبَ أَبُو مُوسَى إِلَى عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ بِذَلِكَ , فَكَتَبَ عُمَرُ: «إِنَّ هَذَا نَبِيٌّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَالنَّارُ لَا تَأْكُلُ الْأَنْبِيَاءَ , وَالْأَرْضُ لَا تَأْكُلُ

1. انظر: فرويد، سيغموند، **الطوطم والتابو**، (ترجمة: بوعلي ياسين)، دار الحوار، اللاذقية، 1983، ص 131.
2. فيرم، **النصوص الكاملة لمخطوطات البحر الميت**، ص 320.

الْأَنْبِيَاءَ, فَكَتَبَ أَنِ انْظُرْ أَنْتَ وَأَصْحَابُكَ يَعْنِي أَصْحَابَ أَبِي مُوسَى فَادْفِنُوهُ فِي مَكَانٍ لَا يَعْلَمُهُ أَحَدٌ غَيْرُكُمَا» قَالَ: فَذَهَبْتُ أَنَا وَأَبُو مُوسَى فَدَفَنَّاهُ[1].

17. وقد يُعلم النبي قومه معاني الرحمة من خلال أن ما في الكون مربوب لله ومفتقر إلى رحمته، وأن الناس قد يُرحمون بدعاء نملة أو أضأل منها حجمًا؛ نحو ما رواه أبو هريرة أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «خَرَجَ نَبِيٌّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ بِالنَّاسِ يَسْتَسْقُونَ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ فَإِذَا هُمْ بِنَمْلَةٍ رَافِعَةٍ بَعْضَ قَوَائِمِهَا فَقَالَ النَّبِيُّ: «ارْجِعُوا فَقَدِ اسْتُجِيبَ لَكُمْ مِنْ أَجْلِ هَذِهِ النَّمْلَةِ»[2].

18. وقد حرص الأنبياء كلّهم على ألا يسألوا الناس شيئًا من شؤون دنياهم رحمةً بهم حتى لا يتمحلوا ولا يتكلفوا ما لا تطيب له ضمائرهم، إذ حب المال جُبلت عليه الأنفس، ولذا كانت مقولة الأنبياء كنوح عليه السلام: ﴿وَيَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مَالًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ [هود: 29]وقال هود عليه السلام: ﴿يَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِي فَطَرَنِيٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ [هود: 51]، وقال صالح وشعيب ولوط: ﴿وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: 145]، وقال نبينا عليه الصلاة والسلام: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: 90] ﴿قُلۡ مَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٖ فَهُوَ لَكُمۡۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٞ﴾ [سبأ: 47]،

1. ابن أبي شيبة، أبوبكرعبد الله، **المصنف في الأحاديث والآثار**، رقم الحديث 33819
2. الطحاوي، **شرح مشكل الآثار**، 1415هـ، حديث رقم 875.

حتى إن التشريع المتعلق بتركة الأنبياء لها خصوصيتان، الأولى أنهم «لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا وَإِنَّمَا وَرَّثُوا الْعِلْمَ»[1]، والخاصية الثانية أن كل ما تركوه من متاع الدنيا لا يورث؛ وإنما يُتصدَّق به، بدليل ما في الموطأ وغيره عن عائشة أم المؤمنين؛ أَنَّ أَزْوَاجَ النَّبِيِّ ﷺ حِينَ تُوُفِّيَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، أَرَدْنَ أَنْ يَبْعَثْنَ عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ إِلَى أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ. فَيَسْأَلْنَهُ مِيرَاثَهُنَّ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ.فَقَالَتْ عَائِشَةُ: أَلَيْسَ قَدْ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: لاَ نُورَثُ. مَا تَرَكْنَا فَهُوَ صَدَقَةٌ»[2].

1. أبو داود، **سنن أبي داود**، كتاب العلم، باب الحث على طلب العلم، رقم الحديث3641،
2. الأصبحي، مالك بن أنس، **الموطأ**، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1985م، كتاب الاستئذان، باب ما جاء في تركة النبي ﷺ، رقم الحديث 828.

الفصل الثالث

النظرية الكونية للرحمة في القرآن الكريم

المبحث الأول

حقائق التراحم في تسيير الكون من خلال القرآن

المبحث الثاني

الرحمة في التشريع من خلال القرآن الكريم

المبحث الثالث

الحدود في القرآن ومقصدية الرحمة

الفصل الثالث

النظرية الكونية للرحمة في القرآن الكريم

إن استبصار الآيات المسطورة في القرآن؛ لهي دعوة لاستنطاق الآيات المنظورة في الأكوان، فكما أن النظام القرآني لآياته في غاية من الإتقان، فإن ترتيبات الآفاق محكمة مدى الأزمان، وقد كان من سنة النبي ﷺ عبادة التفكر والنظر والتأمل، ففي رواية البخاري من حديث ابن عباس قال: «بت في بيت ميمونة، والنبي ﷺ عندها، فلما كان ثلث الليل الآخر، أو بعضه، قعد فنظر إلى السماء، فقرأ: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾»[1].

وأما رواية مسلم ففيها تكرار الفعل وترداد الآية مرارًا:

فقام نبي الله ﷺ من آخر الليل، فخرج فنظر في السماء، ثم تلا هذه الآية في آل عمران ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ [البقرة: 164] حتى بلغ ﴿فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: 191] ثم رجع إلى البيت فتسوك وتوضأ، ثم قام فصلى ثم اضطجع ثم قام، فخرج فنظر إلى السماء فتلا هذه الآية، ثم رجع فتسوك فتوضأ، ثم قام فصلى[2].

---

1. البخاري، **صحيح البخاري**، باب رفع البصر إلى السماء، رقم الحديث 6215، 48/8.
2. مسلم، **صحيح مسلم**، رقم الحديث 256، 221/1.

بل يعتبر تدبر هذه الآية مما أوجب بدليل رواية عائشة لما قالت: «يا رسول الله لم تبكي وقد غفر الله لك ما تقدم وما تأخر» قال: «أفلا أكون عبدًا شكورًا لقد نزلت علي الليلة آية ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ الآية كلها [آل عمران: 190]»[1].

من أجل ذلك يكون من اللازم إعمال الفكر قصد الاعتبار بما في الأقطار من الآيات، وألا يكون المرء ذا قلب منكوس لا يتعظ كالذين وصفهم الله بقوله: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ [يوسف: 105].

الكون غير متناهٍ والفلك أحد أبحره اللجية، وما نُتف التفنن في هذا العلم إلا فلك أرادت رسم آثار على أمواج الأبحر، متناسية أنها تطفو بإذن الخالق، وتتحرك بمشيئته، غير أن ربان تلك السفينة تؤزه نفسه التواقة أن يستطلع العالم السماوي والفضاء الملكوتي، بما أتيح له من أسباب أرضية، وبما ورثه من آبائه وألبائه.

وذكر طه عبد الرحمن مفهوم الواجبات الرحمية، إذ متى اتصف الإنسان بالرحمة أصبح يقر بآخرية الآخر، بحيث تتعلق الرحمة بالأشياء كلها، فكما أننا نرحم بني جنسنا فكذلك ينبغي أن نرحم الأشياء التي من حولنا، ورحمتنا لها كرحمتنا للإنسان، نوعًا وقدرًا، إذ ندفع عنها هي الأخرى الشرور ونجلب لها الخيرات، حتى نحفظ كيانها ونضمن بقاءها، ولا تقف الأشياء عند حد تلقي

1. ابن حبان، **صحيح ابن حبان**، ذكر البيان بأن المرء عليه إذا تخلى لزوم البكاء على ما ارتكب من الحوبات وإن كان بائنا عنها مجدا في إتيان ضدها، رقم الحديث 620، 7 / 722.

الرحمة منا، بل إنها لا تنفك تبادلنا هذه الرحمة، ولا عجب عندئذ أن توصف الكائنات الحية الدنيا بالرحمة، بل أن توصف بها الأشياء المادية والمعنوية فيقال (مطر رحيم)[1].

وارتباط المطر بالرحمة مثل ارتباط الأرض بالإنبات والرزق، وكل ذلك مندرج في الملكوت، وضرب من ضروب علم الفلك الذي يورث استشعار رحمة الله بالموجودات، إذ الفلك ينطلق من معرفة البروج الإثني عشر وأحوالها، ودرجات المنازل للشمس والقمر، وخطوط العرض والطول للأقاليم والسمات والنظائر، والأزياج ومواسم الأجواء، وفصول السنة ومواقيت الشمس في اللأيام ومقاطع القمر، ومقادير أحجام الكواكب وأبعادها، والأقمار والكواكب السيارات في الكون، وأحوال البحار مدًا وجزرًا وتقلبات الهواء، وفروق الحساب بين السنتين القمرية والشمسية، والانكساف والانخساف، وتحديد الاتجاهات، والاهتداء بمواقع النجوم لإصابة بؤرة الوجهة من قبلة أو موضع بلد، والنجاء به في ظلمات البر والبحر، والاستدلال به على الخرائط المستجدة للمكتشفات من الجزر ونحوها.

وقد تحدث المقريزي في كتابه الخطط عن علم الهيئة، (هيئة الأفلاك) فذكر أنه على ثلاثة أقسام:

1. معرفة تركيب الأفلاك، وكمية الكواكب، وأقسام البروج وأبعادها وعظمتها وحركتها.
2. علم الزيج وعلم التقويم.

---

1. عبد الرحمن، طه، **روح الحداثة**، ص 253.

3. معرفة كيفية الاستدلال بدوران الفلك على الحوادث، وهو علم الأحكام، ثم أفاض رحمه الله في تفصيل ذلك[1].

وكل ذلك مضبوط بالحساب والدور الزماني وتجارب الأمم، ولحقه بعد ذلك التنبؤ بالأجواء وأحوال الطقس المستقبلية وتحديد أزمنة السفر المناسبة، والخالية من معكرات الهناء كالريح العاصفة أو الصواعق والأمطار الثجاجة.

ثم ألحق شيء تتجاذبه القوانين الفلكية من جهة، والتخرص والرجم بالغيب من جهة أخرى، وهو الاستدلال بأحوال الأجرام العلوية على الوقائع السفلية في الأرض كفترات النحس والسعادة، والأفراح والأتراح، ومنازل الرحمات، ومع كون هذا الجزء في غاية من الخطورة إلا أنه استهوى كثيرًا من المشتغلين بالفلك قديمًا وحديثًا، لاسيما في العصور التي شهدت نوعا من الصراعات، ومحاولة كل إمبراطورية أن يستتب لها شأن الملك، لذا كانت تستعين بهذا العلم الذي سمي بعد ذلك بعلم التنجيم، وعلماؤه كانوا مقربين من بطانة الملوك السابقين. وغير خاف أن فرعون حين بدأ قتل المواليد الذكران من بني إسرائل إنما كان ذلك بإيعاز من المنجمين الذين أخطروه بزوال ملكه برجل من بني إسرائيل يولد في عهد فرعون. والمشهور في الدرس الفلكي المعاصر أن باكورة الكتب في هذا العلم هو كتاب (المجسطي) لبطليموس، على ما فيه من ملاحظات مثل اعتباره الأرض قطبًا للكون، ثم تلته في القرن السادس عشر ميلادي اعتبار الشمس قطبًا للكون، ومركز دوران الكواكب

1. المقريزي، تقي الدين أبي العباس، **المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار**، دار الكتب العلمية، بيروت، 1418 هـ، 13/1.

السيارة، إعمالًا لنظرية فيثاغورس وكوبرنيكس، وزيادات جاليليو، ودراسات شيكو داسكولي.

ولعل من المناسب التنبيه على أن علم الفلك لا تنطبق عليه أصول التعاريف بالمعنى الفلسفي أو الاصطلاحي الدقيق، أو إعمال نظرية المنع والجمع، نظرًا لأنه فن غير متناول باليد أو مقدورٍ عليه بإحكام، وتلك الأجرام كانت قبل وجود الإنسان، وعمر هذا المخلوق الحادث لا يؤهله لاستنتاج جميع الظواهر الكونية في الآفاق المشهودة. ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [غافر:57].

هذا الطرح في بابته الأولى منطقي استقرائي، يستسيغه التباحث والنظر، غير أن عمقه يتربص به التسليم البديهي، حيث يتشابه بعلاقة الحوت بالبحر، فلا حياة للإنسان حين انفكاك جذاذات الفلك من حياته. ألم تر أن الشمس توقده وتوقظه، والليل يسكنه ويسكِّنه ويؤويه، والقمر ينيره وينوِّره ويحصيه، والنجوم تعلمه وفي الظلمات تهديه، والبحر يغذيه وعلى الفلك يسريه، فلا حياة بدون الفلك السابح، كما لا حياة للحوت بدون العباب المالح.

وعلى الاعتبار نفسه تسطو حيثيات المواقيت الفلكية والعلوم الكونية على مدارك النظر في العلوم الإنسانية جمعاء، حيث لا يخفى ارتباط جملة من شؤون العبادات بالفلك، كسمت القبلة، ومواقيت الصلاة، وأحكام الصيام والحج وتعلقهما برؤية الأهلة، واستصحاب ذلك في حولان الحول القمري في أداء الزكوات المفروضة، وفي الأحوال الشخصية كعدة المتوفى عنها ونحوها، ومحاولة معرفة مواعيد الأمطار والرياح اللواقح، ونحو ذلك من فروع الرحمة والعيش الرغد الذي يسعى إليه كل جيل.

المبحث الأول: حقائق التراحم في تسيير الكون من خلال القرآن

تتبلور المعلومات لتصير حقائق بعد انتقالها من مجرد هاجس أو خاطر إلى فرضية ثم نظرية ثم تتشربها اليقينيات لتصبح حقيقة لا يتنازع عليها اثنان، ومنذ وجود الإنسان على الأرض أخذ في اكتشاف خباياها مسترشدًا بحواسه، وبما تعلمه الأجداد عن المعلم الأول للإنسانية، ويبدو أن أهل الكتاب بشكل عام يؤمنون بأن آدم هو مصدر العلوم الأولى للإنسان سواء في الزرع ونسج الثياب ونحو ذلك من ضروريات بقاء النوع البشري.

ومن خلال استقراء الآيات الكونية وتحليلها نلاحظ أن تسيير الكون يثمر نظرية دوران الانتفاع بين الخلق، ويبرز كثيرًا من الحقائق الدالة على أن مآلات التسيير في اتجاه الرحمة، مع ما يحركه من بواعث الإيمان، ووشائج تزكية النفوس، وقواطع الأدلة الكاشفة عن خضوع العوالم لله العلي الحكيم.

وكان الغزالي من أوائل الحريصين على بيان كيف نقرأ الكون إذ يقول:

وأما آيات الله في أرضه ففي مشاهدتها فوائد للمستبصر، ففيها قطع متجاورات، وفيها الجبال والبراري والبحار وأنواع الحيوان والنبات، وما من شيءٍ منها إلا وهو شاهد لله بالوحدانية ومسبح له بلسان ذلق لا يدركه إلا من ألقى السمع وهو شهيد، وأما الجاحدون والغافلون والمغترون بلامع السراب من زهرة الدنيا فإنهم لا يبصرون ولا يسمعون لأنهم عن السمع معزولون، وعن آيات ربهم محجوبون ﴿يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ﴾ وما أريد بالسمع السمع الظاهر فإن الذين أريدوا به ما كانوا

معزولين عنه وإنما أريد به السمع الباطن ولا يدرك بالسمع الظاهر إلا الأصوات، ويشارك الإنسان فيه سائر الحيوانات، فأما السمع الباطن فيدرك به لسان الحال الذي هو نطق وراء نطق المقال[1].

بل إن مجرد الاعتبار والنظر في الكائنات هو ملامسة لرحمة الله التي نص عليها أبو الدرداء رضي الله عنه حيث قال: «التمسوا الخير دهركم كله، وتعرضوا لنفحات رحمة الله، فإن لله نفحاتٍ من رحمته يصيب بها من يشاء من عباده، واسألوا الله أن يستر عوراتكم ويؤمن روعاتكم»[2]. وقد روي مرفوعًا من حديث أنس عند الطبراني في الكبير، ووفي الأوسط عن محمد بن مسلمة، وفي الدعاء أيضًا «افعلوا الخير دهركم وتعرضوا لنفحات رحمة الله، فإن لله عزوجل نفحاتٍ من رحمته يصيب بها من يشاء من عباده وسلوا الله عزوجل أن يستر عوراتكم وأن يؤمن روعاتكم»[3]. ورواه الدولابي عن ابن عمر مرفوعًا «تعرضوا لنفحات الله في أيام دهركم؛ فإن لله نفحاتٍ عسى الله أن يصيبكم منها بواحدةٍ فلن تشقوا بعدها أبدًا»[4].

ويلاحظ أن أبا الدرداء وهو أحد رواة هذا الحديث كان كثير التأمل والنظر في الآيات الكونية، فقد صح عن زوجته أم الدرداء أنها قالت حينما سألها غير واحد؛ منهم عون بن عبد الله قال: قلت لأم الدرداء: أي عبادة أبي الدرداء

1. الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد، **إحياء علوم الدين**، دار المعرفة، بيروت، (د.ت). 2/246.
2. ابن أبي شيبة، **مصنف ابن أبي شيبة**، رقم الحديث 37316، 19/ 351.
3. الطبراني، أبي القاسم سليمان بن أحمد، **الدعاء**، دار الكتب العلمية، بيروت، 1413هـ، رقم الحديث 26، ص 29.
4. الدولابي، أبو بِشْر محمد، بن أحمد، **الكنى والأسماء**، تحقيق أبو قتيبة نظر محمد الفاريابي، 1421هـ 2000م، رقم الحديث 1810، 3/ 1031.

كان أكثر؟ قالت: «التفكر والاعتبار»[1]. وهو الذي قال: «التفكر ساعة خير من قيام ليلةٍ»[2]. ولا يخفى أن أبا الدرداء كان من كبار قراء الصحابة الذين نشروا القرآن في الشام وفيها توفي رضي الله عنه، ويبدو أن عبادة التفكر والاعتبار لديه نابعة من تثويره للقرآن ومعرفته لمقاصده.

إن خمس القرآن يتحدث عن آيات الله في الأقطار والآفاق، ومع هذه الكثرة أجد -حسب اطلاعي- لدى أغلب المفسرين تقصيرًا في العناية بالآيات الكونية، بالمقابل أجد العناية الفائقة لدى المفسرين بالآيات الفقهية مع أنها دون الآيات العلمية الكونية من حيث العدد. وسأحاول في هذا المبحث توجيه النظر نحو اقتناص حقائق التراحم بين الكائنات والعلاقة فيما بينها من خلال القرآن الكريم على طريقة الجمع بين المتناظرات، لأن الوقوف عند كل آية سيطيل المبحث.

فأول أمر جاء في القرآن الكريم (اعبدوا) ربط بتعليل استحقاق العبادة بما في السماء والأرض من المنن، ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾ [البقرة: 22] وتلك المنن يتداخل نظامها ويتشابك وفق تلازم ودوران محكم يناط برحمة الله ولطفه، فالأرض مبسوطة رحمة بالخلق، والسماء سقف محفوظ رحمة بالخلق، والماء النازل رحمة بالشاربين وبكل ما يحيا بالقطر، ولذلك اتخذ إبراهيم -عليه السلام- طرائق الحجاج بعلم الأفلاك ودوران الانتفاع

1. ابن المبارك، **الزهد والرقائق**، رقم الحديث 286، ص 97.
2. أبو داود، **صحيح أبو داود**، الزهد، رقم الحديث 199، ص 199.

بالمنن الإلهية في ملكوته، وما ذلك إلا لبلوغه -عليه السلام- مرتبة الموقنين بعلم الأجرام والفضاء بحجة قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ﴾ [الأنعام: 75] وهو فتح رباني عليه؛ مع أن الله أمرنا بالنظر في ذلك الملكوت، فقد يفتح على المرء، وقد توصد دونه الأبواب، ﴿أَوَلَمۡ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٖ﴾ [الأعراف: 185].

وقد أفادنا القرآن في تقسيمه النظر إلى معان؛ فكان أهمها:

- الأول: النظر المازج بين البصر بالعين الموصل للبصيرة وبين عمل التفتيش في كينونة الأشياء، مثل قوله تعالى ﴿قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ بَدَأَ ٱلۡخَلۡقَۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأٓخِرَةَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [العنكبوت: 20] وهذا أمر بالبحث في معرفة أول الخلق. وعلم الأوائل وإن كان أمرًا تاريخيًا غيبيًا إلا أن الوصول إليه يكون بما صح عن الأنبياء، وقد يحصل شيء منه عن طريق دراسة الآثار.

وطلب دراسة بدايات الخلق أمر قديم قد وقع في عهد المصطفى ﷺ، وارتبط بقوم حكماء ورحماء، ففي صحيح البخاري عن عمران بن حصين قال:

دخلت على النبي ﷺ، وعقلت ناقتي بالباب، فأتاه ناس من بني تميم فقال: «اقبلوا البشرى يا بني تميمٍ»، قالوا: قد بشرتنا فأعطنا، مرتين، ثم دخل عليه ناس من أهل اليمن، فقال: «اقبلوا البشرى يا أهل اليمن، إذ لم يقبلها بنو تميمٍ»، قالوا: قد قبلنا يا رسول الله، قالوا: جئناك نسألك عن هذا الأمر؟

قال: «كان الله ولم يكن شيء غيره، وكان عرشه على الماء، وكتب في الذكر كل شيءٍ، وخلق السموات والأرض[1].

وفي لفظ آخر عند البخاري نفسه قال أهل اليمن «جئناك لنتفقه في الدين، ولنسألك عن أول هذا الأمر ما كان»[2]. وهؤلاء الوافدون على النبي ﷺ قد وصفهم في حديث آخر بقوله: «أتاكم أهل اليمن، أضعف قلوبًا، وأرق أفئدة، الفقه يمانٍ والحكمة يمانية»[3].

ولعل رقة أفئدتهم نابعة من التأمل فيما برأ الله، فأكسبهم ذلك الرحمة واللين والحكمة التي وصفوا بها، ولذلك يقول ابن قرقول: «والرقة عبارة عن صفاء القلب وإدراكه من المعرفة ما لا يدركه من ليس قلبه كذلك، وأن ذلك موجب لقبولهم وسرعة إجابتهم»[4].

- الثاني: النظر المجرد عن الفهم مثل قوله تعالى: ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا۟ ۖ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: 198].
- الثالث: النظر الحيران وهو المذكور في قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر: 68].

---

1. البخاري، **صحيح البخاري**، كتاب بدأ الخلق، باب ما جاء في قول الله تعالى: {وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه}، رقم الحديث 9319، 4/ 276.
2. البخاري، **صحيح البخاري**، كتاب التوحيد، باب {وكان عرشه على الماء}، رقم الحديث، 3741، 336/9.
3. البخاري، **صحيح البخاري**، كتاب المغازي، باب قدوم الأشعريين وأهل اليمن، رقم الحديث، 4372، 437/5.
4. ابن قرقول، **مطالع الأنوار**، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر، 2012، 183/3.

- الرابع: النظر بمعنى الرحمة، وقد جاء في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [آل عمران: 77]. قال أبو هلال العسكري، «النظر بمعنى الرحمة، وهو قوله تعالى: (ولا ينظر إليهم يوم القيامة) أي: لا يرحمهم، كقول العربي انظر إليّ نظر الله إليك، أي: ارحمني رحمك الله»[1]. وقد روى ابن أبي حاتم عن عمران الجندي أنه قال: «إن الله لم ينظر إلى شيءٍ قط إلا رحمه، ولو نظر إلى أهل النار لرحمهم، ولكن لا ينظر إليهم»[2].

وكثيرًا ما يتعلق الأمر بالنظر بمصطلح الآيات الذي ورد مرارًا بعبارة ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾، كقوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ۝٢٠ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: 21] وقد أشارت آية أخرى بهذا المطلع إلى تشويق الإنسان إلى دراسة الكائنات الموجودة في السماوات، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ﴾ [الشورى: 29] وفي المنظور الحديث، والمظنون المحفز على البحث الحثيث، فرضية وجود حياة لكائنات ودواب خارج الأرض، وتأتي نظرية محاولة الاتصال بالمريخ نظرًا لقرب ملامح هيئته من جغرافية الأرض، فقد ذكر القاسمي أن قوله تعالى ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ

1. العسكري، أبو هلال، **الوجوه والنظائر**، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2007، ص 481.
2. ابن أبي حاتم، تفسير **القرآن العظيم**، 2509/8.

قَدِيرٌ﴾ [الشورى:29] أن بعض الباحثين ذهبوا إلى فرضية أن هذه الدواب حيوانات كحيوانات الأرض. ولا يبعد أن يكون بينهم حيوان عاقل كالإنسان، وبدأ البعض منهم يفكرون بإيجاد الوسائل للمخابرة بالكهربائية مع سكان المريخ الذي هو أقرب السيارات إلينا. وليس ذلك بالمستحيل فنًا. ويستدل على إمكانيته من آخر الآية نفسها وهو قوله تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ﴾ فلا يبعد أن يتخابرا ويجتمعا فكرًا، إذا لم يجتمعا جسمًا.

يقول القاسمي: «ومع هذا الجد العنيف، والجهد المتواصل منذ ثلاثمائة سنة، لم يتوصلوا إلا بالظن إلى ما أنبأت به هذه الآية. وجل ما توصلوا إليه بالبرهان العقلي، أن الأرض أصغر من الشمس وأنها تدور حولها. وأن الكواكب السيارات كريات. وأن النجوم الثوابت شموس، ولها سيارات تدور حولها. ولما ثبت لديهم جميعًا وجود الماء والهواء، وحصول الصيف والشتاء في هذه السيارات، ظنوا أنه يوجد فيها عالم كعالم الأرض. وبدأ البعض منهم يفكرون بإيجاد الوسائل للمخابرة بالكهربائية مع سكان المريخ الذي هو أقرب السيارات إلينا. وليس ذلك بالمستحيل فنًا. ويستدل على إمكانيته من آخر الآية نفسها وهو قوله تعالى: وهو على جمعهم إذا يشاء قدير، فلا يبعد أن يتخابرا ويجتمعا فكرًا، إذا لم يجتمعا جسمًا. فلينظر الفلكيون إلى ما حوته هذه الآية المكنوزة في القرآن. وليعلم المعجبون منا بالعلوم العصرية، الضاربون صفحًا عن العلوم الإسلامية، ما في كتاب الله من الحكمة والبيان»[1]، وكيف يمكن التواصل مع العوالم الخارجية من دون التحصيل العلمي والبحث المعمق في الآفاق، وضبط الارتفاقات البشرية باللطف والرحمة والحكمة.

1. القاسمي، **محاسن التأويل**، دار الكتب العلمية، بيروت، 1998، 369/8.

ومن رحمة الله في الآيات الكونية التنصيص على أن كل شيء هيئ في الأرض فهو من أجل البشر ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: 29] «موضع (ما) مفعول به وتأويله أن جميع ما في الأرض منعم به عليكم فهو لكم»[1]. ومثلها قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ مَكَّنَّٰكُمۡ فِى ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلۡنَا لَكُمۡ فِيهَا مَعَٰيِشَۗ قَلِيلًا مَّا تَشۡكُرُونَ﴾ [الأعراف: 10]. إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ يُغۡشِى ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ يَطۡلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتِۭ بِأَمۡرِهِۦٓۗ أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾ ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعًا وَخُفۡيَةًۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفۡسِدُواْ فِى ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا وَٱدۡعُوهُ خَوۡفًا وَطَمَعًاۚ إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَىۡ رَحۡمَتِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتۡ سَحَابًا ثِقَالًا سُقۡنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلۡنَا بِهِ ٱلۡمَآءَ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ كَذَٰلِكَ نُخۡرِجُ ٱلۡمَوۡتَىٰ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: 54 - 57].

ويندرج ضمنها آيات التسخير كقوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡفُلۡكَ تَجۡرِى فِى ٱلۡبَحۡرِ بِأَمۡرِهِۦ وَيُمۡسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحج: 65] ﴿أَلَمۡ تَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلۡأَرۡضِ وَأَسۡبَغَ عَلَيۡكُمۡ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةًۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾ [لقمان: 20] ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡبَحۡرَ لِتَجۡرِىَ ٱلۡفُلۡكُ فِيهِ بِأَمۡرِهِۦ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعًا مِّنۡهُۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوۡمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: 12، 13] ﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمۡ فِى

1. الزجاج، **معاني القرآن**، 107/1.

ٱلۡأَرۡضِ مُخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهُۥٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَذَّكَّرُونَ ١٣ وَهُوَ ٱلَّذِي سَخَّرَ ٱلۡبَحۡرَ لِتَأۡكُلُواْ مِنۡهُ لَحۡمٗا طَرِيّٗا وَتَسۡتَخۡرِجُواْ مِنۡهُ حِلۡيَةٗ تَلۡبَسُونَهَاۖ وَتَرَى ٱلۡفُلۡكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ [النحل: 14] ﴿وَٱلَّذِي نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءَۢ بِقَدَرٖ فَأَنشَرۡنَا بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗاۚ كَذَٰلِكَ تُخۡرَجُونَ ١١ وَٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَزۡوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡفُلۡكِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ مَا تَرۡكَبُونَ ١٢ لِتَسۡتَوُۥاْ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ رَبِّكُمۡ إِذَا ٱسۡتَوَيۡتُمۡ عَلَيۡهِ وَتَقُولُواْ سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقۡرِنِينَ﴾ [الزخرف: 11 - 13] ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمۡ تُوقِنُونَ﴾ [الرعد: 2] ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡفُلۡكَ لِتَجۡرِيَ فِي ٱلۡبَحۡرِ بِأَمۡرِهِۦۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡأَنۡهَٰرَ ٣٢ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ دَآئِبَيۡنِۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ ٣٣ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلۡتُمُوهُۚ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَظَلُومٞ كَفَّارٞ﴾ [إبراهيم: 32، 34] ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗۖ لَّكُم مِّنۡهُ شَرَابٞ وَمِنۡهُ شَجَرٞ فِيهِ تُسِيمُونَ ١٠ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرۡعَ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلۡأَعۡنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ١١ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمۡرِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾ [النحل: 10 - 12] ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ فَأَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ٦١ ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾ [العنكبوت: 61، 62] ﴿ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا

تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝٢٩ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ۝٣٠ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [لقمان: 29 - 31]، ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾ [فاطر: 13] ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ﴾ [الزمر: 5]، ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: 54]، ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [غافر: 64].

وكل الآيات الدالة على التسخير مآلها تعليل أن الله بالناس لرؤوف وأنه لم يخلق ليعذب، إذ لو نظر العاقل إلى الكائنات. يقول ابن القيم في الفوائد:

وما فيها من المصالح والحكم والغايات المحمودة دال على حكمته تعالى، وما فيها من النفع والإحسان والخير دال على رحمته ... وما فيها من الإكرام والتقريب والعناية دال على محبته ... وما فيها من ابتداء الشيء في غاية النقص والضعف، ثم سوقه إلى تمامه ونهايته دال على وقوع المعاد، وما فيها من أحوال النبات والحيوان، وتصرف المياه دليل على إمكان المعاد وما فيها

من ظهور آثار الرحمة والنعمة على خلقه دليل على صحة النبوات وما فيها من الكمالات التي لو عدمتها كانت ناقصة دليل على أن معطي تلك الكمالات أحق بها فمفعولاته من أدل شيء على صفاته وصدق ما أخبرت به رسله عنه، فالمصنوعات شاهدة تصدق الآيات المسموعات منبهة على الاستدلال بالآيات المصنوعات[1].

وقد خصص ابن القيم شطرًا كبيرًا في كتابه مفتاح دار السعادة لبيان هذا التكامل النفعي بين ما برأ الله تعالى، فلو نظر المرء إلى منفعة الريح وما يجري له في البر والبحر وما هيئت له من الرحمة وكيف سخرت للسحاب حتى أمطر فسخرت له المثيرة أولا فتثيره بين السماء والأرض ثم سخرت له الحاملة التي تحمله على متنها كالجمل الذي يحمل الراوية ثم سخرت له المؤلفة فتؤلف بين كسفه وقطعه ثم يجتمع بعضها إلى بعض فيصير طبقًا واحدًا ثم سخرت له اللاقحة بمنزلة الذكر الذي يلقح الأنثى فتلقحه بالماء ولولاها لكان جهامًا لا ماء فيه ثم سخرت له المزجية التي تزجيه وتسوقه إلى حيث أمر فيفرغ ماءه هنالك ثم سخرت له بعد إعصاره المفرقة التي تبثه وتفرقه في الجو فلا ينزل مجتمعا ولو نزل جملة لأهلك المساكن والحيوان والنبات بل تفرقه فتجعله قطرًا وكذلك الرياح التي تلقح الشجر والنبات ولولاها لكانت عقيمًا وكذلك الرياح التي تسير السفن ولولاها لوقفت على ظهر البحر. ومن منافعها أنها تبرد الماء وتضرم النار التي يراد إضرامها وتجفف الأشياء التي يحتاج إلى جفافها وبالجملة فحياة ما على الأرض من نبات وحيوان بالرياح فإنه لولا تسخير الله لها لعباده لذوي النبات ومات الحيوان وفسدت المطاعم وأنتن العالم وفسد.

1. ابن القيم، **الفوائد**، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 2، 1973، ص 21.

وإذا ركدت الرياح كيف يحدث الكرب والغم الذي لو دام لأتلف النفوس وأسقم الحيوان وأمرض الأصحاء وأنهك المرضى وأفسد الثمار وعفن الزرع وأحدث الوباء في الجو فسبحان من جعل هبوب الرياح تأتي بروحه ورحمته ولطفه ونعمته كما قال النبي في الرياح إنها من روح الله تأتي بالرحمة[1]. وكذلك يقول ابن القيم في مفتاح دار السعادة:

الأزمنة والفصول وما فيها من المصالح والحكم: إذ لو كان الزمان كله فصلًا واحدًا لفاتت مصالح الفصول الباقية فيه.فلو كان صيفًا كله لفاتت منافع مصالح الشتاء. ولو كان شتاء لفاتت مصالح الصيف. وكذلك لو كان ربيعًا كله أو خريفًا كله ففي الشتاء تغور الحرارة في الأجواف وبطون الأرض والجبال فتتولد مواد الثمار وغيرها، وتبرد الظواهر، ويستكثف فيه الهواء؛ فيحصل السحاب والمطر والثلج والبرد الذي به حياة الأرض وأهلها، واشتداد أبدان الحيوان وقوتها، وتزايد القوى الطبيعية، واستخلاف ما حللته حرارة الصيف من الأبدان. وفي الربيع تتحرك الطبائع، وتظهر المواد المتولدة في الشتاء؛ فيظهر النبات، ويتنور الشجر بالزهر، ويتحرك الحيوان للتناسل. وفي الصيف يحتد الهواء، ويسخن جدًا؛ فتنضج الثمار، وتنحل فضلات الأبدان والأخلاط التي انعقدت في الشتاء، وتغور البرودة، وتهرب إلى الأجواف؛ ولهذا تبرد العيون والآبار، ولا تهضم المعدة الطعام التي كانت تهضمه في الشتاء من الأطعمة الغليظة ؛ لأنها كانت تهضمها بالحرارة التي سكنت في البطون. فلما جاء الصيف خرجت الحرارة إلى ظاهر الجسد، وغارت البرودة فيه. فإذا جاء الخريف اعتدل الزمان وصفا الهواء وبرد؛ فانكسر ذلك السموم، وجعله الله

1. انظر: ابن القيم، **مفتاح دار السعادة**، دار الكتب العلمية، بيروت، (د.ت)، 217/1.

بحكمته برزخًا بين سموم الصيف، وبرد الشتاء لئلا يتنقل الحيوان وهلة واحدة من الحر الشديد إلى البرد الشديد؛ فيجد أذاه ويعظم ضرره. فإذا انتقل إليه بتدريج وترتب لم يصعب عليه، فإنه عند كل جزء يستعد لقبول ما هو أشد منه حتى تأتي جمرة البرد بعد استعداد وقبول حكمة بالغة وآية باهرة، وكذلك الربيع برزخ بين الشتاء والصيف ينتقل فيه الحيوان من برد هذا إلى حر هذا بتدريج وترتيب[1].

كما أن صفة الرزق بغير حساب للبشر ولغيرهم يستنبط منها عجائب من ألوان الرحمات. ففي قوله تعالى: ﴿تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۖ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ ۖ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: 27] برهان على التنظيم الذي تتعلق فيه أرزاق المخلوقات المعيشية بمجريات التكوين وتسيير الأجرام، ولذلك ارتبطت صفة لطف الله بالرزق في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ﴾ [الشورى: 19].

ومن المنظور الشرعي في الأحكام الفقهية يجد الباحث أن تسيير الكون وارتباطه بالرحمة بين أطراف البرية يوحي بأن الأصل في الرزق أنه تشاركي غير خاضع للتحريم، إذ مصدره منة الله ورحمته، ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ ۖ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ [يونس: 58، 59]، غير أن ضعف الإيمان لدى قوم أو انعدامه، واستحسان التخاذل المنطقي لدى آخرين، وهو ما يعبر عنه بالشك وعدم اليقين في

1. ابن القيم، **مفتاح دار السعادة**، 209/1.

النظريات الشرعية؛ كل ذلك يحول بين المرء والوصول إلى الجواب الشافي المتعلق بنتيجة الرزق وتداخله مع الملكوت، وذلك عين ما أخبر الله به في مطلع سورة الجاثية ﴿إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٣ وَفِي خَلۡقِكُمۡ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٞ لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ۝٤ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزۡقٖ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٞ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ۝٥ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتۡلُوهَا عَلَيۡكَ بِٱلۡحَقِّۖ فَبِأَيِّ حَدِيثِۭ بَعۡدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤۡمِنُونَ﴾ [الجاثية: 3 - 6].

بيد أن ضعف الإنسان البنيوي يجعله معتادًا على عدم الفكر في مصدر الرزق، كالطفل الذي يسوق له أبواه أنواعًا من المطعومات وهو غير مدرك للجهد المبذول في استجلابها، حينئذ ندرك علاقة الرزق باسم القوي الذي اقترن في القرآن الكريم؛ إشارة إلى هذه الحيثية، ﴿مَآ أُرِيدُ مِنۡهُم مِّن رِّزۡقٖ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطۡعِمُونِ ۝٥٧ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ﴾ [الذاريات: 57، 58]. وأن سوق الرزق من القوي المتين حقيقته اللطف والرحمة بالمسوق إليه، وهو الإنسان الضعيف، وهنا نستوعب تناسب وصف الإنسان بالضعف والنهي عن أكل أرزاق (أموال) الناس بالباطل مع إيغال المشهد بين قاعدتي التخفيف والرحمة في قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمۡۚ وَخُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ ضَعِيفٗا ۝٢٨ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٖ مِّنكُمۡۚ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا﴾ [النساء: 28، 29].

ومن الجانب السيكولوجي يعتبر مجرد إبصار الجمال في المخلوقات أحد الأنواع التي تتحصل بها السعادة في علم النفس، وقد أمر الله بهذا النظر

في سورة الأنعام فقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّـٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَـٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: 99] فيظل مكمن السر بين الطاقة التي تتخللها تصاوير جمال الخلق نحو البصر في غاية من الرقة واللطف والرحمة لتفرز لها النفس سيولًا من الأحاسيس التي توصف في النهاية بالبهجة المذكورة في قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ [النمل: 60].

والابتهاج الحاصل بهذه المخلوقات التي بثها الله في أرجاء الأرض وأجرام السماء يجب أن يتأمل في سياق ما لو فقدناها، ولذلك ربطها الله برحمته لأنها سبب لوجود هذا التسيير المنتظم لها النافع للمخلوقات النامية، ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [القصص: 71 - 73]، بل يندرج ضمن الرحمة الإحصاء الذي تيسره الشمس والقمر بتكويناتها المتنقلة ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [يونس: 5].

وقراءة الكون بنظرية الانتفاع تثمر تتبع الأسباب والمسببات على غرار ما حاول كثير من الطبائعيين أن يبحثوا عن أصله فصرفتهم الأقاويل البعيدة إلى منحى من الهرطقة من وراء الظنون، زاعمين أن الصدفة هي التي أنشأت هذا الإتقان في كل ذرة ومجرة ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ١١٥ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: 115، 116].

ومع استطاعة العقلاء قراءة الآيات المشاهدة في الآفاق والوصول إلى جملة من النتائج التي يستعين بها الإنسان في نظريات علمية كنظرية الانتفاع المتشابك بين الخلق، أو حتى في بعض الفرضيات، كفرضية التطوير المتعلق بالتغييرات الجينية لبعض المخلوقات؛ كل ذلك يظل شيئًا ضئيلًا جدًا مقارنة بما لا يعرفه جهابذة الباحثين في العلوم، إذ تعتبر الأسرار المخفية عن الإنسان لطفًا بعقله حتى لا يصطدم بما لا يطيقه الإدراك البشري.

ولو افترضنا شخصًا يريد رؤية ما لا يطيقه بصره، أو يستوعبه سمعه، لانهارت نفسه، وحار عقله، وخارت عزيمته، ولذا عبر القرآن في جملة مما لا نفهمه بعلة أن الخالق بنا حليم ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: 44] ولذلك يجعل الله من ذهاب نظام الكون انتقالًا إلى دار أخرى، فتتحول الجبال الرواسي إلى صوف منفوش منسوف، ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ١٠٥ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ١٠٦ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ١٠٧ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ [طه: 105 - 108]، وكل تلك المشاهد

لا يتحملها بصر، ولا يطيقها بشر، بل حينما نص الله على أنه ما يزال يوسع في خلق السماء، وعلم أن الناس لا يطيقون فهم ذلك دلهم على الملجأ، وهو الفرار إلى الله، ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ۝٤٧ وَٱلۡأَرۡضَ فَرَشۡنَٰهَا فَنِعۡمَ ٱلۡمَٰهِدُونَ ۝٤٨ وَمِن كُلِّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَا زَوۡجَيۡنِ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ۝٤٩ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الذاريات: 47 - 50].

وهذا الفرار هو أحد الأقطاب التي يجادل بها في قضايا التمانع المذكور في قوله تعالى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٖ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنۡ إِلَٰهٍۚ إِذٗا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [المؤمنون: 91] ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةٗ مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ هُمۡ يُنشِرُونَ ۝٢١ لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝٢٢ لَا يُسۡـَٔلُ عَمَّا يَفۡعَلُ وَهُمۡ يُسۡـَٔلُونَ ۝٢٣﴾ [الأنبياء: 21 - 23]، وفيه الإشارة إلى التسليم والإيمان إذ يستحيل إدراك ما لا تطيقه العقول، فيصير السبيل بث الرحمة والمآنسة في الإيمان كما ذيل الله آية بدأ الخلق بالإيمان حيث لا مجال لفهم جذور الأزلية ﴿أَوَلَمۡ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ كَانَتَا رَتۡقٗا فَفَتَقۡنَٰهُمَاۖ وَجَعَلۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ كُلَّ شَيۡءٍ حَيٍّۚ أَفَلَا يُؤۡمِنُونَ ۝٣٠﴾ [الأنبياء: 30].

ولقد ذاق عدد من الفلاسفة الأولين لوعة الحيرة حينما دخلوا بوتقة تعليل الوجود دون رحمة التسليم النفسي وسكينة الإيمان العقدي، مثل ما نرى لدى ديموقريطس (Democritus) ويقول علي سامي النشار بأن:

علل الأشياء التي تأتي الآن إلى الوجود ليس لها بداية، ولكن من زمن لا متناه سحيق، عينت سلفًا كل الأشياء الكائنة والتي تكون والتي سوف تأتي، و(لا تناه) العالم ليس هو هنا كما هو الحال عند لوقيبوس، وكما هو الحال عند ديموقريطس في مواضع أخرى لا تناه فراغي، ولكنه تناه في الزمان والأبدية...

وهنا وللمرة الثانية يقبل ديموقريطس ومن ورائه النسق الذري الفكرة الإيلية عن أبدية العالم[1].

إنه لا مرية في حصول انتفاع الإنسان انتفاعًا سرمديًا بكل ما حوله من الأفلاك والأجرام المرئية وغير المرئية، ولذا عبر القرآن مليًا عن المنن المنثورة التي يرفل فيها بنو آدم بمصطلح (النفع)، وهو من محصلات الرحمة الباعثة على إيقاع ذلك النفع وعدم طغيانه أو زواله، ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: 164] ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [الرعد: 17]، ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِي ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الروم: 48 - 50].

وإذا كان الانتفاع بكثير من الأجرام المتسببة للانشراح والفرح واقعًا متواترًا؛ فإن عددًا من البهائم المسخرة يتحصل بها النفع واستشعار أفنان

1. النشار، علي سامي، **ديموقريطس فيلسوف الذرة وأثره في الفكر الفلسفي حتى عصورنا الحديثة**، الإسكندرية، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، 1972، ص 19.

من الرحمات كذلك، ﴿وَٱلۡأَنۡعَٰمَ خَلَقَهَاۖ لَكُمۡ فِيهَا دِفۡءٞ وَمَنَٰفِعُ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ۝٥ وَلَكُمۡ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسۡرَحُونَ ۝٦ وَتَحۡمِلُ أَثۡقَالَكُمۡ إِلَىٰ بَلَدٖ لَّمۡ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلۡأَنفُسِۚ إِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ [النحل: 5، 7]، وليلاحظ تذييل الآية بصفتي الرأفة الرحمة الدالتين على المقصود من ذلك التسخير، كما تتجلى الرحمة في الجبال الرواسي، التي عللها خالقها عزوجل بأنها سبب عدم ميد الأرض واضطرابها، مع تذييل تسيير الأرض والعلامات الكونية بالمغفرة والرحمة ﴿وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ وَأَنۡهَٰرٗا وَسُبُلٗا لَّعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ۝١٥ وَعَلَٰمَٰتٖۚ وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ ۝١٦ أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝١٧ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [النحل: 15 - 18]. ويقول الرازي: ولقد:

وضع الأفلاك والكواكب بحيث صارت أسبابًا لحصول مصالح العباد، فخلق الليل ليكون سببًا للراحة والسكون وخلق النهار ليكون سببًا للمعاش والحركة هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورًا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك إلا بالحق، [يونس: 5] وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر [الأنعام: 97] واقرأ قوله: ألم نجعل الأرض مهادًا، والجبال أوتادًا [النبأ: 5، 6]- إلى آخر الآية واعلم أنك إذا تأملت في عجائب أحوال المعادن والنبات والحيوان وآثار حكمة الرحمن في خلق الإنسان قضى صريح عقلك بأن أسباب تربية الله كثيرة، ودلائل رحمته لائحة ظاهرة[1].

ومن الجدير بالذكر أن المشاهدات مما يذكره علماء المنطق والجدل

1. الرازي، **مفاتيح الغيب**، 200/1.

والتباحث الفلسفي في قضايا القطعيات والعلوم الضرورية، إذ المشاهدات كالأوليات والمجربات والمتواترات، «وتكون حجة على الغير إذا شاركه في المشعر والشعور»[1]، وقد وظف القرآن الكريم هذه الطريقة في إلزام الحجة؛ مستصحبًا معاني الرحمة التي يستشعرها المخاطبون، ففي قوله تعالى: ﴿قُلۡ مَن يَكۡلَؤُكُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحۡمَٰنِۚ بَلۡ هُمۡ عَن ذِكۡرِ رَبِّهِم مُّعۡرِضُونَ﴾ [الأنبياء: 42] «إنما خص هاهنا اسم الرحمن بالذكر تلقينًا للجواب حتى يقول العاقل: أنت الكالئ يا إلهنا لكل الخلائق برحمتك، كما في قوله: ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ﴾ [الانفطار: 6] إنما خص اسم الكريم بالذكر تلقينا للجواب»[2].

يقول الرازي في مفاتيح الغيب :

كما أن مَنْ كَانَ اطِّلَاعُهُ عَلَى آثَارِ حِكْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى فِي تَدْبِيرِ الْعَالَمِ الْأَعْلَى وَتَدْبِيرِ الْعَالَمِ الْأَسْفَلِ أَكْثَرَ، كَانَ اطِّلَاعُهُ عَلَى أَسْمَاءِ اللَّهِ تَعَالَى أَكْثَرَ، وَوُقُوفُهُ عَلَى الصِّفَاتِ الْمُوجِبَةِ لِلْمَدْحِ وَالتَّعْظِيمِ أَكْثَرَ، فَمَنْ طَالَعَ تَشْرِيحَ بَدَنِ الْإِنْسَانِ وَوَقَفَ فِيهِ عَلَى مَا يَقْرُبُ مِنْ عَشَرَةِ آلَافِ نَوْعٍ مِنْ أَنْوَاعِ الرَّحْمَةِ وَالْحِكْمَةِ فِي تَخْلِيقِ بَدَنِ الْإِنْسَانِ فَقَدْ حَصَلَ فِي عَقْلِهِ عَشَرَةُ آلَافِ نَوْعٍ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ تَعَالَى الدَّالَّةِ عَلَى الْمَدْحِ وَالتَّعْظِيمِ، ثُمَّ إِنَّ مَنْ وَقَفَ عَلَى الْعَدَدِ الَّذِي ذَكَرْنَاهُ مِنْ أَقْسَامِ الرَّحْمَةِ وَالْحِكْمَةِ فِي بَدَنِ الْإِنْسَانِ صَارَ ذَلِكَ مُنَبِّهًا لِلْعَقْلِ عَلَى أَنَّ الَّذِي لَمْ يَعْرِفْهُ مِنْ أَقْسَامِ الْحِكْمَةِ وَالرَّحْمَةِ فِي تَخْلِيقِ هَذَا البدن أكثر مما عرفه[3].

1. السيالكوتي، عبد الحكيم بن شمس الدين، **الحاشية على شرح المواقف لإيجي**، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 2، 2005، 42/2.
2. الرازي، **مفاتيح الغيب**، 146/22.
3. الرازي، **مفاتيح الغيب**، 142/1.

المبحث الثاني: الرحمة في التشريع من خلال القرآن الكريم

إن كافة الناس متفقون على أن العالم محدث، وأن كل العوالم لا بد لها من موجد، وأن هذا الموجد قادر عليم غني، وأن كل مخلوق فهو عاجز ويتعلم بعد جهل ويلحقه ضعف وفناء، مما يقتضي أن موجد الكون له مقصد في إيجاد تلك العوالم المتحركة والساكنة والنامية والمتولدة والمتوالدة، كل هذا يستدعي في هذا المبحث محاولة تحليل التلازم بين التكوين والإيجاد وبين التشريع والإسعاد، وبيان المنهج الرحماني للقرآن في تشريع الأحكام، وإثبات أن التشريع مرتبط بارتفاقات الناس ومصالحهم.

وقد اشتهر «إنكاره سبحانه على من زعم أنه لم يخلق الخلق لغاية ولا لحكمة كقوله: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا﴾ وقوله: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ وقوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ۝٣٨ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ والحق هو الحكم والغايات المحمودة التي لأجلها خلق ذلك كله، وهو أنواع كثيرة منها: أن يعرف الله تعالى بأسمائه وصفاته وأفعاله وآياته، ومنها: أن يحب ويعبد ويشكر ويذكر ويطاع، ومنها: أن يأمر وينهى ويشرع الشرائع، ومنها: أن يدبر الأمر ويبرم القضاء ويتصرف في المملكة بأنواع التصرفات»[1].

وقد تطرق زمرة من الأصوليين إلى موضوع المصلحة في التشريع وأن ألطاف الله لا تنفك عن حكمه، ويقول الحسن البصري: وأن ما يعلم بالشرع

---

1. ابن القيم، **شفاء العليل**، ص 198.

وحده فهو ما في السمع دليل عليه دون العقل كالمصالح والمفاسد الشرعية وما له تعلق بهما، أما المصالح والمفاسد الشرعية فهي كالأفعال التي تعبدنا بفعلها أو تركها بالشريعة نحو كون الصلاة واجبة، وشرب الخمر حرامًا، وغير ذلك، وإنما قلنا إنه ليس في العقل دليل على ذلك لأنه لو كان في العقل دليل على ذلك لكان ذلك الدليل إما حكمًا موجبًا عن وجوبها أو وجهًا موجبًا لها والحكم الموجب عن وجوبها هو الذم والمدح[1].

ويقول ابن القيم في مفتاح دار السعادة: ومهما تأملت الشريعة التي بعث الله بها رسوله حق التأمل وجدتها من أولها إلى آخرها شاهدة بذلك ناطقة به ووجدت الحكمة والمصلحة والعدل والرحمة باديًا على صفحاتها مناديًا عليها يدعو العقول والألباب إليها، وأنه لا يجوز على أحكم الحاكمين ولا يليق به أن يشرع لعباده ما يضادها، وذلك لأن الذي شرعها علم ما في خلافها من المفاسد والقبائح والظلم والسفه الذي يتعالى عن إرادته وشرعه، وأنه لا يصلح العباد إلا عليها ولا سعادة لهم بدونها البتة. فتأمل محاسن الوضوء بين يدي الصلاة وما تضمنه من النظافة والنزاهة ومجانبة الأوساخ والمستقذرات، وتأمل كيف وضع على الأعضاء الأربعة التي هي آلة البطش والمشي ومجمع الحواس التي تعلق أكثر الذنوب والخطايا بها، ولهذا خصها النبي صلى الله علية وسلم بالذكر في قوله (إن الله كتب على ابن آدم حظه من الزنا أدرك ذلك ولا محالة فالعين تزني وزناها النظر والأذن تزني وزناها الاستماع واليد تزني وزناها البطش والرجل تزني وزناها المشي والقلب يتمنى ويشتهي والفرج يصدق ذلك

1. البصري، أبو الحسين، **المعتمد في أصول الفقه**، تحقيق خليل الميس، دار الكتب العلمية، بيروت، 1403هـ، 328/2.

ويكذبه)، فلما كانت هذه الأعضاء هي أكثر الأعضاء مباشرة للمعاصي كان وسخ الذنوب ألصق بها وأعلق من غيرها، فشرع أحكم الحاكمين الوضوء عليها ليتضمن نظافتها وطهارتها من الأوساخ الحسية وأوساخ الذنوب والمعاصي وقد أشار النبي إلى هذا المعنى بقوله (إذا توضأ العبد المسلم خرجت خطاياه مع الماء أو مع آخر قطرة من الماء حتى يخرج من تحت أظفاره)[1].

وأحكام الشريعة عدل كلها، ويقول ابن القيم في أعلام الموقعين:

ورحمة كلها، ومصالح كلها، وحكمة كلها؛ فكل مسألة خرجت عن العدل إلى الجور، وعن الرحمة إلى ضدها، وعن المصلحة إلى المفسدة، وعن الحكمة إلى العبث؛ فليست من الشريعة وإن أدخلت فيها بالتأويل، فالشريعة عدل الله بين عبادة، ورحمته بين خلقه، وظله في أرضه، وحكمته الدالة عليه وعلى صدق رسوله -ﷺ- أتم دلالةٍ وأصدقها، وهي نوره الذي به أبصر المبصرون، وهداه الذي به اهتدى المهتدون، وشفاؤه التام الذي به دواء كل عليل، وطريقه المستقيم الذي من استقام عليه فقد استقام على سواء السبيل؛ فهي قرة العيون، وحياة القلوب، ولذة الأرواح؛ فهي بها الحياة والغذاء والدواء والنور والشفاء والعصمة، وكل خيرٍ في الوجود فإنما هو مستفاد منها، وحاصل بها، وكل نقص في الوجود فسببه من إضاعتها[2].

إن تدقيق النظر صوب مرتكزات الرحمة في التشريع من خلال القرآن الكريم يقتضي التتبع لقصة نزول الأحكام سواء في العهد المكي الذي دام

1. ابن القيم، **مفتاح دار السعادة**، 23/2.
2. ابن القيم، **إعلام الموقعين**، 338/4.

ثلاثة عشر عامًا أو العهد المدني المستغرق لأعوامه العشرة، ونلاحظ بحسب ترتيب النزول عند الإمام الزهري [1] أن القرآن المكي يغلب عليه التقرير العقدي، والتقريع الجدلي، والعظة، والاعتبار بالقصص الماضية.

ولذلك يصح القول إن أول ما يلاحظ في موضوع الرحمة في التشريع في القرآن الكريم أن التنزلات المكية لم تتضمن الاستطرادات التشريعية أو الفقهية، وهذا عين الرحمة، إذ القرآن الكريم يعتبر قضية الاقتناع بالدين والاستسلام لحاكمية الله والخضوع له بألوهيته الحقة وتفرده بالعبادة أهم المهمات، ولا شك أن الطقوس التشريعية تتفاوت، ومآلاتها الانقياد لله والاعتراف له بالوحدانية واستحقاقه التأله والمحبة والخوف والرجاء.

ومن خلال هذا المنطلق الأهم يستشف المسلم أن قضية التدرج آخذة بزمام الرحمة، فلم يكن في العهد المكي إلا المطالبة بـ(لا إله إلا الله محمد رسول الله)، وهو مفتاح الإسلام وركن من أركانه، ولذا يجب على كافة المسلمين إدراك جلالة هذه الكلمة وأنها مبدأ الدين ومنتهاه، علاوة على تضمن الموضوع خطر الحكم على المقصرين في العبادات بالتفسيق أو التكفير وهم قد دخلوا في دين الله بتلك الكلمة العظيمة.

ويمكن إجمال أوجه الرحمة في التشريع من خلال القرآن الكريم حسب الآتي:

1. غالب القرآن المكي منصب على تصحيح الخلل العقدي ولم تتوال الأحكام حتى يصح القلب بإفراد الله بالتأله والخضوع والاستسلام وهو

---

1. الزهري، **الناسخ والمنسوخ وتنزيل القرآن بمكة والمدينة**، تحقيق حاتم الضامن، ط 3، 1998، ص 38.

الدين الذي أمرت به قريش، ويبدو أن سياق سورة الزمر حكى هذه الجدلية بجميع حيثياتها ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ١ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ٢ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ٣ لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ٤ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ٥﴾ [الزمر: 1 - 5].

2. قضى الله أن كل ما ينزل من القرآن لا تنفك عنه الرحمة للمؤمنين لاسيما في التشريع الذي يتم به استقامة جوارح المرء، واعتدال مروءته أمام الخلق،﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: 82] ﴿وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النمل: 77] ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: 9] ﴿مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ﴾ [طه: 2]

3. ظل المسلمون في مكة أكثر من عشر سنوات دون تشريعات ماخلا نوعًا من الذكر والصلاة والتصدق الذي يعرفه العرب من ملة إبراهيم عليه السلام، بل إن عائشة رضي الله عنها حكت أن محمدًا عليه الصلاة والسلام قبيل بعثته: «حبب إليه الخلاء، فكان يخلو بغار حراءٍ يتحنث

فيه - وهو التعبد - الليالي أولات العدد، قبل أن يرجع إلى أهله ويتزود لذلك»[1].

4. شرعت الصلاة لذكر الله، فهي مقصد تبع لتوحيده سبحانه وتعالى ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾ [طه: 14]، وتم ذلك في واقعة الإسراء والمعراج قبل السنة العاشرة للبعثة، ومن رحمة الله أنها خمس صلوات بأجر خمسين تخفيفًا ولطفًا من الله، على ما ورد في حديث المعراج في صحيح البخاري :

حتى مررت على موسى، فقال: ما فرض الله لك على أمتك؟ قلت: فرض خمسين صلاة، قال: فارجع إلى ربك، فإن أمتك لا تطيق ذلك، فراجعت، فوضع شطرها، فرجعت إلى موسى، قلت: وضع شطرها، فقال: راجع ربك، فإن أمتك لا تطيق، فراجعت فوضع شطرها، فرجعت إليه، فقال: ارجع إلى ربك، فإن أمتك لا تطيق ذلك، فراجعته، فقال: هي خمس، وهي خمسون، لا يبدل القول لدي، فرجعت إلى موسى، فقال: راجع ربك، فقلت: استحييت من ربي»[2].

ومفهوم (فإن أمتك لا تطيق ذلك) هو تخفيف ورحمة، إذ لا شك أن هذه الشفاعة من موسى هي بقدر الله وإرادته، ﴿مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ﴾ [البقرة: 255].

1. مسلم، **صحيح مسلم**، كتاب الإيمان، رقم الحديث 160، 1/139.
2. البخاري، **صحيح البخاري**، كتاب الصلاة، باب كيف فرضت الصلاة في الإسراء؟، رقم الحديث 349، 1/ 78.

5. اشتمال القرآن لاسيما المكي منه على الآيات الجامعة لحقوق الإنسان، والتراحم بين البرية، وتقرير التشريعات الإنسانية الخالدة التي تصلح لكل زمان ومكان، كالآية التي قال عنها العز بن عبد السلام:

وأجمع آيةٍ في القرآن للحث على المصالح كلها والزجر عن المفاسد بأسرها قوله تعالى ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: 90] فإن الألف واللام في العدل والإحسان للعموم والاستغراق، فلا يبقى من دق العدل وجله شيء إلا اندرج في قوله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ﴾ [النحل: 90] ولا يبقى من دق الإحسان وجله شيء إلا اندرج في أمره بالإحسان، والعدل هو التسوية والإنصاف، والإحسان: إما جلب مصلحةٍ أو دفع مفسدةٍ وكذلك الألف واللام في الفحشاء والمنكر والبغي عامة مستغرقة لأنواع الفواحش ولما يذكر من الأقوال والأعمال. وأفرد البغي - وهو ظلم الناس - بالذكر مع اندراجه في الفحشاء والمنكر للاهتمام به، فإن العرب إذا اهتموا أتوا بمسميات العام. ولهذا أفرد البغي وهو الظلم مع اندراجه في الفحشاء والمنكر للاهتمام به، كما أفرد إيتاء ذي القربى بالذكر مع اندراجه بالعدل والإحسان[1].

6. انفراد القرآن تقرير الحقوق المبنية على بث الرحمة بين الناس، والحرص على أن تكون الأفعال المترتبة على العيش المشترك تنطلق من إرادة الخير للغير، يقول العز ابن عبد السلام فيقواعد الأحكام:

---

1. العز بن عبد السلام، **قواعد الأحكام في مصالح الأنام**، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، ط 2، 1991، 2 /190.

وضابطها جلب كل مصلحةٍ واجبةٍ أو مندوبةٍ، ودرء كل مفسدةٍ محرمةٍ أو مكروهةٍ. وهي منقسمة إلى فرض عينٍ وفرض كفايةٍ، وسنة عينٍ وسنة كفايةٍ، والشريعة طافحة بذلك ويدل على ذلك جميعًا قوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ [المائدة: 2]، وهذا نهي عن التسبب إلى المفاسد، وأمر بالتسبب إلى تحصيل المصالح، فمن الأدلة المشتملة على الأمر قوله تعالى: ﴿وَمَا يَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ ۗ﴾ [آل عمران: 115]، وقوله:

﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ [المائدة: 2]، وقوله: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ﴾ [الأنبياء: 94]، وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾ [الأعراف: 170] وقوله - عليه السلام -: «كل معروفٍ صدقة»، وقوله: «الله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه» وقوله: «من يسر على معسرٍ يسر الله عليه، ومن ستر مسلما ستر الله عليه»، وقوله: «إن الله كتب الإحسان على كل شيءٍ»، وقوله. «في كل كبدةٍ رطبةٍ أجر»[1].

7. كثرة الاستثناءات والترخيصات الواردة في الشريعة دالة على مقصدية الرحمة في الأحكام، فقد راعت الشريعة الصبي فلم تكلفه بشيء، وأسقطت التكاليف عن فاقد مناطها، وخففت عن المرأة والضعيف والمريض والشيخ الكبير والمسافر والحامل والمرضع، مع أن ما يكلف به أضداد هؤلاء هو يسير لا حرج فيه.

---

1. العزبن عبد السلام، **قواعد الأحكام**، 156/1.

فهذه المرأة الحامل مثلًا يقول الشافعي :

فإن الله رأفة بها بضعفها ورحمة بها وبحملها أجازلها الإفطار مع الفدية وهي إطعام مسكين كل يوم، ومثلها المرضع لحاجتها إلى إدرار اللبن لولدها ولا يتم ذلك مع الصوم، ثم هو يجهدها ويضعفها إضعافًا شديدًا لا ترضاه الشريعة التي يقول كتابها ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: 78] ويقول أيضًا: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: 185] [1].

وقوله جل ذكره: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: 78]، أي: «لم يضيق عليكم في أحكامه، فيكلفكم ما تعجزون عنه»[2].

يقول ابن حجر في فتح الباري:

أي دين الإسلام ذو يسرٍ أو سمى الدين يسرًا مبالغة بالنسبة إلى الأديان قبله، لأن الله رفع عن هذه الأمة الإصر الذي كان على من قبلهم، ومن أوضح الأمثلة له أن توبتهم كانت بقتل أنفسهم وتوبة هذه الأمة بالإقلاع والعزم والندم. قوله أحب الدين أي خصال الدين لأن خصال الدين كلها محبوبة[3].

8. أشربت الشريعة الإسلامية في طياتها اعتبار الأخلاق موجبًا للحكم أو مفضيًا إلى عدم إيجابه بحسب تحقيق ذلك المبدأ الخلقي، إذ التكليف بالعمل بالرأفة كالعطف والحنان والشفقة وتحمل الأذى إنما يكون

---

1. الشافعي، محمد بن إدريس، ترتيب **مسند الشافعي**، تحقيق يوسف الحسني وعزت العطار الحسيني، دار الكتب العلمية، بيروت، 1951م، 278/1.
2. البغوي، أبو محمد الحسين بن مسعود، **شرح السنة**، تحقيق شعيب الأرنؤوط ومحمد زهير الشاويش، ط 2، 1403 هـ - 1983م، 108/1.
3. ابن حجر، فتح الباري، 93/1.

في ما هو حق محض للإنسان، وكل ما سنه الإسلام من وجوب احترام الجار، وصون عرضه، وغض البصر عن عوراته، ومن السعي إلى ربط القلوب بالمحبة وتبادل السلام، والتهادي، والإعانة عند الشدائد كزيارة المريض ودفن الموتى، والصلاة عليهم، ونصرة المظلوم وردع الظالم، ودرء ما يجلب الشقاوة والعداوة، وخاصة بين الأقارب، ومن الاتصاف بالتراحم والشفقة على المستضعفين، والرفق بخلق الله تعالى، والتكافل والتعاضد في محاربة الحاجة والفقر والكربات، وسد الذرائع المفضية إلى الأذى، وغير ذلك من متجليات الإلزام بالأخلاق النبيلة؛ فإن ذلك كله معدود من الحقوق الواجبة على المسلم للمسلم وغيره، وبدهي أنه لا يدفع الشر إلا بناء المعاملات على أسس تمنع النفوس من الميل عن جادة الخير، وحسن الخلق، فبذلك تزول الشحناء والأحقاد، ويمنع نشوءها، ومن أجل ترسيخ هذا المنهج الخلقي في هذا الدين وجعله مما يتقرب به إلى الله تعالى دعا النبي ﷺ إلى التحلي بالتسامح في كلمات له، ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام: «رحم الله عبدًا سمحًا إذا باع سمحًا إذا اشترى سمحًا إذا اقتضى» [1].

9. لما كانت تطبيق الشريعة مرتبطة برسولها عليه الصلاة والسلام فمن اللازم تعلقها بأخص خصائصه وأشهر صفاته، ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: 107]، وقد نص أن من أسمائه أنه نبي الرحمة، وأن

1. ابن حبان، **صحيح ابن حبان**، كتاب أحكام البيع، ذِكْرُ تَرَحُّمِ اللَّهِ جَلَّ وَعَلَا عَلَى الْمُسَامِحِ فِي الْبَيْعِ وَالشِّرَاءِ وَالْقَبْضِ والإعطاء، رقم الحديث 4903، 11/ 267.

الله وصفه بقوله: ﴿عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ﴾ أي: يعز عليه الشيء الذي يعنت أمته ويشق عليها؛ ولهذا جاء في الحديث المروي من طرقٍ عنه أنه قال: «بعثت بالحنيفية السمحة» وفي الصحيح: «إن هذا الدين يسر وشريعته كلها سهلة سمحة كاملة، يسيرة»[1]،

ويقول الدهلوي في حجة الله البالغة: ومعلوم أن للأنبياء عليهم السلام دعوات كثيرة مستجابة، وكذا استجيب لنبينا ﷺ في مواطن كثيرة، لكن لكل نبي دعوة واحدة منبجسة من الرحمة التي هي مبدأ نبوته، فإنها إن آمنوا كانت بركات عليهم، وانبجس من قلبه في قلب النبي أن يدعو لهم، وإن أعرضوا صارت نقمات عليهم، وانبجس في قلبه ان يدعو عليهم، واستشعر نبينا ﷺ أن أعظم مقاصد بعثته أن يكون شفيعًا للناس، واسطة لنزول رحمة خاصة يوم الحشر فاختبأ دعوته العظمى المنبجسة من أصل نبوته لذلك اليوم[2].

10. وقد ربط القرآن جملة من الأحكام التشريعية بمصطلحات تفيد سقوطها بوجود المشقة؛ مثل مفهوم الاضطرار، والحرج، والتخفيف، والعسر، واليسر، بل تعلقت أسماؤه الحسنى بكثير من الأحكام الشرعية، ففي قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: 115] أي: «واسع الرحمة، واسع الشريعة بالترخيص لهم والتوسعة على عباده في دينهم، لا يضطرهم إلى ما يعجزون عن أدائه»[3]. ونرى الرازي حينما صاغ أهداف

---

1. ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، بيروت، دار الكتب العلمية، 1419هـ، 241/4.
2. الدهلوي، **حجة الله البالغة**، 117/2.
3. الواحدي، **التفسير الوسيط**، 194/1.

سورة الفاتحة يشير إلى هذا المبدأ فكأن الله يقول في فاتحة كتابه:

فأنا الرحمن الرحيم وأنا مالك يوم الدين، فما دمت في هذه الحياة الدنيا لا أخليك عن أقسام رحمتي وأنواع نعمتي وإذا مت فأنا مالك يوم الدين، لا أضيع عملا من أعمالك، فإن أتيتني بالخير قابلت الخير الواحد بما لا نهاية له من الخيرات، وإن أتيتني بالمعصية قابلتها بالصفح والإحسان والمغفرة. ثم لما قرر أمر الربوبية بهذا الطريق أمره بثلاثة أشياء: أولها: مقام الشريعة، وهو أن يواظب على الأعمال الظاهرة، وهو قوله: إياك نعبد وثانيها: مقام الطريقة، وهو أن يحاول السفر من عالم الشهادة إلى عالم الغيب، فيرى عالم الشهادة كالمسخر لعالم الغيب[1].

فالإسلام دين العز والرحمة: ذكر من أسمائه تعالى في هذا الموطن ﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾، للتنبيه على أن هذا الدين الذي نزله الرب الموصوف بالعزة والرحمة، هو دين عزة ورحمة. ومن مقتضى العزة القوة والمنعة والرفعة، ومن مقتضى الرحمة الفضل والخير والمصلحة، وهذه كلها متجلية في أحكام الإسلام. والعدل والإحسان اللذان أمر الله بهما وانبنت أحكام الإسلام عليهما لا يكونان إلا عن العزة والرحمة فالذليل لا ينهض بالحكم، ولا يقيم ميزان العدل، والقاسي لا يكون منه إحسان[2]. وفي قوله تعالى ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمۡۚ وَخُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: 28] يقول ابن عاشور في التحرير والتنوير:

---

1. الرازي، **مفاتيح الغيب**، 165/1.
2. ابن باديس، عبد الحميد محمد، **تفسير ابن باديس**، دار الكتب العلمية، بيروت، 1995، ص 295.

أعقب الاعتذار الذي تقدم بقوله: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [النساء: 26] بالتذكير بأن الله لا يزال مراعيًا رفقه بهذه الأمة وإرادته بها اليسر دون العسر، إشارة إلى أن هذا الدين بين حفظ المصالح ودرء المفاسد، في أيسر كيفيةٍ وأرفقها، فربما ألغت الشريعة بعض المفاسد إذا كان في الحمل على تركها مشقة أو تعطيل مصلحةٍ، كما ألغت مفاسد نكاح الإماء نظرًا للمشقة على غير ذي الطول. والآيات الدالة على هذا المعنى بلغت مبلغ القطع كقوله: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج:78] وقوله: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: 185] وقوله: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَـٰلَ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: 157]، وفي الحديث الصحيح: «إن هذا الدين يسر ولن يشاد هذا الدين أحد إلا غلبه»، وكذلك كان يأمر أصحابه الذين يرسلهم إلى بث الدين فقال لمعاذٍ وأبي موسى: «يسرا ولا تعسرا» وقال: (إنما بعثتم مبشرين لا منفرين) . وقال لمعاذٍ لما شكا بعض المصلين خلفه من تطويله «أفتان أنت» . فكان التيسير من أصول الشريعة الإسلامية، وعنه تفرعت الرخص بنوعيها. وقوله: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ ضَعِيفًا﴾ تذييل وتوجيه للتخفيف، وإظهار لمزية هذا الدين وأنه أليق الأديان بالناس في كل زمانٍ ومكانٍ، ولذلك فما مضى من الأديان كان مراعى فيه حال دون حالٍ[1].

11. اتصف التشريع في القرآن الكريم بتعرضه للمتغيرات كالتقييد والتخصيص والنسخ، وثمة جملة من الأحكام تحولت من الإيجاب إلى

1. ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، 22/5.

الندب، أو من الوجود إلى العدم بسبب قضية النسخ التي تعتريها الرحمة ظاهرًا وباطنًا، مثلما يروي أبو هريرة في صحيح مسلم:

لما نزلت على رسول الله ﷺ ﴿لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: 284]، **قال: فاشتد ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ، فأتوا رسول الله ﷺ ثم بركوا على الركب، فقالوا: أي رسول الله، كلفنا من الأعمال ما نطيق، الصلاة والصيام والجهاد والصدقة، وقد انزلت عليك هذه الآية ولا نطيقها، قال رسول الله ﷺ: «أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم سمعنا وعصينا؟ بل قولوا: سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير»، قالوا: سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير، فلما اقترأها القوم، ذلت بها ألسنتهم، فأنزل الله في إثرها:** ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [البقرة: 285]، **فلما فعلوا ذلك نسخها الله تعالى، فأنزل الله عز وجل:** ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ﴾ [البقرة: 286] **«قال: نعم»**﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ﴾ [البقرة: 286] **«قال: نعم»** ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ﴾ [البقرة: 286] **«قال: نعم»** ﴿وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: 286] **«قال: نعم»**[1].

1. مسلم، **صحيح مسلم**، كتاب الإيمان، حديث رقم: 125، 115/1.

وقال ابن عباس في صحيح مسلم:

لما نزلت هذه الآية: ﴿وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: 284]، قال: دخل قلوبهم منها شيء لم يدخل قلوبهم من شيءٍ، فقال النبي ﷺ: «قولوا: سمعنا وأطعنا وسلمنا» قال: فألقى الله الإيمان في قلوبهم، فأنزل الله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: 286]

«قال: قد فعلت» رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾ [البقرة: 286] «قال: قد فعلت» ﴿وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا﴾ [البقرة: 286] «قال: قد فعلت»[1].

12. ومن مظاهر الرحمة في الشريعة من خلال القرآن الكريم تعلق جملة من الأحكام بالرحمة بالآخرين المنتحلين لديانات أخرى، مثل: ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ﴾ [البقرة: 177] ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾ [الإنسان: 8، 9] ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾﴾ [البلد: 12 - 16] ﴿فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ [المائدة: 89] ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة: 8].

---

1. مسلم، **صحيح مسلم**، كتاب الإيمان، حديث رقم: 126، 1/116.

وصح عن سعيد بن جبيرٍعن ابن عباسٍ عن النبي ﷺ «أنه كان يأمربأن لا يصدق إلا على أهل الإسلام حتى نزلت وما تنفقوا من شيءٍ في سبيل الله يوف إليكم فأمربالصدقة بعدها على كل من سألك من كل دينٍ»[1].

13. علقت الشريعة مقصد الرحمة بالامتثال لطائفة من الأحكام، ولا شك أن من الغايات الكبرى للقرآن الكريم تحصيل الرحمة سواء الدنيوية أو الأخروية، نحو قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الحجرات: 10] ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [النور: 56]﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ ۚ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المجادلة: 12]

14. وقد ربطت الشريعة جملة من المأمورات والمنهيات بمرادفات الرحمة التي تعطف على ذلك اللفظ، مثل مصطلحي الفضل، والخير، ولهذا لما كان القرآن كتاب رحمة سئل المؤمنون عما أنزل الله، فسموه خيرًا، ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۚ قَالُوا۟ خَيْرًا ۗ﴾ [النحل: 30]، بل في قصة الخضر قال: ﴿فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ [الكهف: 81]، ونجد عددًا من الآيات وظف فيها اسم الفضل والخير للدلالة على فروع الرحمة كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الجمعة: 10] ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن

---

1. ابن أبي حاتم، **تفسير القرآن العظيم**، 1724/5.

يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيۡءٖۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمۡ تَكُن تَعۡلَمُۚ وَكَانَ فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ عَظِيمٗا﴾ [النساء: 113] ﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ لَمَسَّكُمۡ فِي مَآ أَفَضۡتُمۡ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ [النور: 14] ﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ أَبَدٗا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ﴾ [النور: 21] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝٢٨ لِّئَلَّا يَعۡلَمَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ أَلَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلۡفَضۡلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ [الحديد: 28، 29] ﴿فَـَٔامِنُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ﴾ [النساء: 170] ﴿ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡ﴾ [النساء: 171] ﴿إِنْ يَعْلَمِ اللهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا﴾ [الأنفال: 70] ﴿فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيۡرٗا لَّهُمۡۖ﴾ [التوبة: 74] ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ صَبَرُواْ حَتَّىٰ تَخۡرُجَ إِلَيۡهِمۡ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [الحجرات: 5].

15. **وتعلقت جملة من الأحكام بمحبة الله الموجبة للرحمة كقوله تعالى:** ﴿فَإِذَا تَطَهَّرۡنَ فَأۡتُوهُنَّ مِنۡ حَيۡثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلۡمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: 222] ﴿بَلَىٰۚ مَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: 76] ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [آل عمران: 134] ﴿فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسۡتَكَانُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝١٤٦ وَمَا كَانَ قَوۡلَهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسۡرَافَنَا فِيٓ أَمۡرِنَا وَثَبِّتۡ

أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: 146 - 148] ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: 159] ﴿وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا ۖ وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [المائدة: 42] ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّأَحْسَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة: 93] ﴿فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: 4] ﴿فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: 7] ﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾ [التوبة: 108] ﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [التوبة: 8] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾ [الصف: 4].

16. **ومن رحمة الله في التشريع ما يترتب على العمل اليسير من الأجر الكبير، مع مضاعفة الله تعالى ذلك عشر مرات أو أكثر.** ﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: 261] ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ﴾ [الأنعام: 160] ﴿إِن تُقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [التغابن: 17]

﴿وَمَن يَقۡتَرِفۡ حَسَنَةٗ نَّزِدۡ لَهُۥ فِيهَا حُسۡنًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ شَكُورٌ﴾ [الشورى: 23]﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي رَوۡضَاتِ ٱلۡجَنَّاتِۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمۡۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ﴾ [الشورى: 22]، بل على قول كلمة واحدة يفيض بها الرحمن من رحماته وصلواته ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ﴾ [البقرة: 156، 157].

17. قد أحاط القرآن أمهات العبادات في الشرع بأوصاف جعلتها تتضمن أسرارًا نافعة للجسم الفردي للإنسان، وللجسم الجماعي للأمة، فمثلًا في فريضة الحج. ويقول الدهلوي:

فإن الهمم إذا اجتمعت بهذه الكيفية لا يتخلف عنها نزول الرحمة والمغفرة... وكما أن الدولة تحتاج إلى عرضة بعد كل مدة؛ ليتميز الناصح من الغاش والمنقاد من المتمرد، وليرتفع الصيت، وتعلو الكلمة، ويتعارف أهلها فيما بينهم، فكذلك الملة تحتاج إلى حج ليتميز الموفق من المنافق، وليظهر دخول الناس في دين الله أفواجًا، وليرى بعضهم بعضًا، فيستفيد كل واحد ما ليس عنده، إذ الرغائب إنما تكتسب بالمصاحبة والترائي[1].

ونحو ذلك صلاة الجنازة . ويقول الدهلوي أيضًا فقد شرعت الصلاة على الميت لأن اجتماع أمة من المؤمنين شافعين للميت له تأثير بليغ في نزول الرحمة عليه... ويعد لنزوله الرحمة بمنزلة الاستسقاء - وجب أن يرغب في أحد الأمرين أن يكون من نفس عالية تعد أمة من الناس، أو جماعة عظيمة[2].

1. الدهلوي، **حجة الله البالغة**، 141/1.
2. الدهلوي، **حجة الله البالغة**، 57/2.

المبحث الثالث: الحدود في القرآن ومقصدية الرحمة

يكتسب المجتمع طابع الاستمرار كلما اعتصم أفراده بقوانين منظمة تحمي دماءهم وأموالهم وأعراضهم، فمنذ نشوء التكتلات المجتمعية دعت الحاجة إلى سن مجموعة من القرارات السلطوية التي يتبنى الاقتناع بها كل المنخرطين ضمن تلك المنظومة المجتمعية.

وما دام حب التملك البشري تعتريه نشوة الانقضاض على ملك الغير، وقد يستدعي ذلك التقاتل أو حرمان الضعفاء من حقوقهم؛ فمن الطبيعي وضع إلزامات يرجع إليها كل الأفراد في نطاق العدل والشمول والمسؤولية، ولذلك نجد القوانين التاريخية القديمة ركزت على ضبط ما يكثر فيه النزاع غالبًا، ففي التراث البابلي كانت تشريعات حمورابي تحمل عددًا من بنود مندرجة في الحدود كقوله: «إذا اتهم رجل رجلًا بجريمة قتل ثم لم يثبت ذلك (ضده) يحكم على المتهم (المدعي) بالموت»[1]، أو قوله في المادة 154: «إذا جامع ابنته فعليهم أن يطردوا (ينفوا) ذلك السيد من المدينة»[2].

وقد «اكتشف الأثريون في تنقيباتهم التي قاموا بها عدة هياكل منقوشًا عليها اسم دنجي ملك أور (23500 ق.م) ولما أزالوا هذا الآجر عن موضعه تحته آجر آخر مسطور عليه اسم أور أنجور وهو والد دنجي (2400 ق.م)»[3].

1. مجموعة من المؤلفين، **شريعة حمورابي وأصل التشريع في الشرق القديم**، (ترجمة: أسامة سراس)، دار علاء الدين، دمشق، 1993، ص 95.
2. مجموعة من المؤلفين، **شريعة حمورابي** (ترجمة: محمود الأمين)، شريعة حمورابي، لندن، دار الوراق، 2007، ص 45.
3. الكرملي، أنستانس، "هيكل أدب"، **مجلة لغة العرب العراقية**، مج9، ع 87، 02/ 1931م، ص 98.

وقد ذهب ديورانت أنه:

كان يقوم إلى جانب هذا النظام الملكي الإقطاعي طائفة من القوانين تستند إلى سوابق كثيرة من عهد أور أنجور ودنجى اللذين جمعًا قوانين أور ودوناها، فكانت هي المعين الذي استمد منه حمورابي شريعته الذائعة الصيت. وكانت تلك الشرائع أبسط وأكثر بدائية من الشرائع اللاحقة، ولكنها كانت أيضًا أقل منها قسوة[1].

ويبدو أن المصريين شهدوا مثل ذلك قبل حمورابي في فلسفة بتاح حوتب صاحب كتاب الأخلاق والسلوك الحسن، وكثير مما في حكمته عبارة عن نصائح أخلاقية كقوله: «إذا أردت أن يكون خلقك محمودًا وأن تطهر قلبك من كل شر فاحذر الشراهة فإنها مرض عضال، فهي تجعل الصديق عدوًا»[2]، أو قوله: «إذا كنت قد تسامحت في سابق الأيام فصفحت عن شخص بغية هدايته، فدعه وشأنه، ولا تذكره بفضلك في الغد»[3]، وقد يتخللها بعض الإشارات في الجوانب العقابية السلوكية مثل قوله: «فلتعلم أن الرذيلة يجب أن تمحق، حتى يتأتى للفضيلة أن تعيش وتبقى»[4].

بل حتى في فكر كونفوشيوس عمل بالصرامة إذا اقتضت الضرورة العمل بها. وقد ذكر ذلك كربل في كتابه الفكر الصيني:

فلقد كان يؤمن في أسف بأن هناك أوقاتًا يجب أن يلجأ فيها ذوو الأخلاق إلى القوة كي يحموا أنفسهم والعالم من أن يستعبدهم أولئك الذين يرون أن

---

1. ديورانت، **قصة الحضارة**، 28/2.
2. محمد، ص فاء، **أدب الحكمة في مصر القديمة**، القاهرة، (د.ت)، ص 27.
3. كمال، محرم، **الحكم والأمثال والنصائح عند المصريين القدماء**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط 2، 1998، ص 40.
4. السابق، ص 41.

القوة هي حجتهم الوحيدة والضمان الوحيد الذي يتفقون عليه، ولكنه كان يعتبر أن القوة هي الملجأ الأخير والأمر الذي يجب أن يكون تابعًا دائمًا، لا من الناحية الفكرية فحسب بل كحقيقة ثابتة لسلطة العدالة[1].

ونجد بعض النصوص في تراث بني إسرائيل يتم بصنوف من الشدة، ففي كتاب النصوص الكاملة لمخطوطات البحر الميت ورد في مخطوط الهيكل: «وإذا ما كان لرجل ولد عاص ومتمرد يرفض الإصغاء لأبيه وأمه ولا يصغي لهما عندما يطاردانه؛ على أبيه وأمه القيام باعتقاله وحمله إلى أمام شيوخ مدينته إلى بوابة مكانه، وسوف يقولان لشيوخ بلدته: ولدنا هذا عاص ومتمرد ولا يستمع إلينا وهو سكير، وسيقوم جميع شيوخ مدينته برجمه بالحجارة وسوف يموت، وسوف تخلص نفسه من الشر، وسيسمع جميع بني إسرائيل بهذا، وسيصابون بالرعب»[2].

وعمومًا فالحدود والعقوبات والتعزيرات لا تنفك عن دين، فمثلًا عقوبة الزنا لدى أهل الكتاب:

الموت لكلا الطرفين، إذا زنى رجل مع امرأة، فإذا زنى مع امرأة قريبه فإنه يقتل الزاني والزانية، ولم تنص الشريعة على طريقة تنفيذ الحكم بالموت في هذه العقوبة، ولكنها -كما يقول المعلمون اليهود- كانت تتم بالشنق، ولكن يبدو أنه في أيام وجود الرب يسوع بالجسد على الأرض؛ كانت طريقة تنفيذ عقوبة الموت هي الرجم[3].

1. كريل، هـ ج.، **الفكر الصيني من كنفوشيوس إلى ماوتسي تونج**، (ترجمة: عبد الحليم سليم)، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، القاهرة، 1971، ص 45.
2. فيرم، **النصوص الكاملة لمخطوطات البحر الميت**، ص 334.
3. حبيب، ص موئيل وآخرون، **دار المعارف الكتابية**، دار الثقافة، (د.ت)، 285/4.

إن «الحدود يراد بها حماية المقومات الضرورية لحياة الإنسان، الإنسان الذي صوره الله بيديه وكرمه وفضله على كثير ممن خلق تفضيلًا، وحياة هذا الإنسان قوامها في النظر الإسلامي ما يعرف بالضرورات الخمس، أو مقومات الوجود للفرد المسلم وهي الدين، النفس، العقل، العرض، المال، وقد التقت كلمة الأديان السماوية على تقديس هذه الحرمات»[1].

كما أن القوانين الحديثة يكون الغرض منها أن تؤدي وظيفتين: «وظيفة خلقية ووظيفة اجتماعية، فالوظيفة الخلقية هي أن توقع على المجرم لتهذيبه وتأديبه وإصلاحه فلا يعود إلى الإجرام، والوظيفة الاجتماعية هي حماية المجتمع من شرور المجرم وآثامه، إما بمعالجته أو استئصاله طبقًا لكل حالة»[2].

والحدود داخلة في الرحمة من جهة ما يترتب عليها من المصالح، ويقول العز ابن عبد السلام في قواعد الأحكام لأن:

المصالح ضربان: أحدهما حقيقي وهو الأفراح واللذات، والثاني مجازي وهو أسبابها، وربما كانت أسباب المصالح مفاسد فيؤمر بها أو تباح لا لكونها مفاسد بل لكونها مؤدية إلى مصالح، وذلك كقطع الأيدي المتآكلة حفظًا للأرواح، وكالمخاطرة بالأرواح في الجهاد، وكذلك العقوبات الشرعية كلها ليست مطلوبة لكونها مفاسد بل لكونها المقصودة من شرعها كقطع السارق وقطع الطريق وقتل الجناة ورجم الزناة وجلدهم وتغريبهم: وكذلك التعزيرات،

1. الذهبي، محمد حسين، أثر **إقامة الحدود في استقرار المجتمع**، مكتبة وهبة، ط 2، 1986، ص 26.
2. بهنسى، أحمد فتحي، **الحدود في الإسلام**، مؤسسة المطبوعات الحديثة، 2003، ص 11.

كل هذه مفاسد أوجبها الشرع لتحصيل ما رتب عليها من المصالح الحقيقة، وتسميتها بالمصالح من مجاز تسمية السبب باسم المسبب[1].

ويقول الزجاج في معاني القرآن:

ومعنى (حدود الله) ما حده الله جل وعز مما لا تجوز مجاوزته إلى غيره، وأصل الحد في اللغة المنع، يقال حددت الدار. وحددت حدود الدار، أي بنيت الأمكنة التي تمنع غيرها أن يدخل فيها. وحددت الرجل أقمت عليه الحد، والحد هو الذي به منع الناس من أن يدخلوا فيما يجلب لهم الأذى والعقوبة، ويقال أحدت المرأة على زوجها وحدت فهي حاد ومحد، إذا امتنعت عن الزينة، وأحددت إليه النظر إذا منعت نظري من غيره وصرفته كله إليه، وأحددت السكين إحدادًا. وإنما قيل للحديد حديد لأنه أمنع ما يمتنع به، والعرب تقول للحاجب والبواب وصاحب السجن: الحداد، وإنما قيل له حداد لأنه يمنع من يدخل ومن يخرج[2].

ومصطلح الحدود في القرآن على معان عدة بحسب السياق، وإن كان الأصل اللغوي فيه أنه يفيد المنع، ولذلك قال ابن القيم: «فإن الحد في لسان الشارع أعم منه في اصطلاح الفقهاء؛ فإنهم يريدون بالحدود عقوبات الجنايات المقدرة بالشرع خاصة، والحد في لسان الشارع أعم من ذلك؛ فإنه يراد به هذه العقوبة تارة ويراد به نفس الجناية تارة»[3].

---

1. العزبن عبد السلام، **قواعد الأحكام**، 14/1.
2. الزجاج، **معاني القرآن**، تحقيق عبد الجليل عبده شلبي، 1988م، 308/1.
3. ابن القيم، **إعلام الموقعين**، 242/3.

ففي قوله تعالى: ﴿وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمۡ عَٰكِفُونَ فِي ٱلۡمَسَٰجِدِۗ تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقۡرَبُوهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ﴾ [البقرة: 187] فمعنى الحدود هنا «المحارم التي ميزها من الحلال المطلق فحددها بنعوتها وصفاتها وعرفها عباده»[1]. ومعناها الطاعة في قوله تعالى: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖۗ وَلَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَأۡخُذُواْ مِمَّآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ شَيۡـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۖ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَا فِيمَا ٱفۡتَدَتۡ بِهِۦۗ تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعۡتَدُوهَاۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة: 229] ففي تفسير ابن أبي حاتم «لا يطيعا الله»[2].

ومعنى: ﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوۡجًا غَيۡرَهُۥۗ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۗ وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: 230] أي «ما فرض الله على كل واحد منهما»[3]. وكذلك في قوله جل وعلا: ﴿فَإِن كَانُوٓاْ أَكۡثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمۡ شُرَكَآءُ فِي ٱلثُّلُثِۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصَىٰ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍ غَيۡرَ مُضَآرّٖۚ وَصِيَّةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٞ ١٢ تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ﴾ [النساء: 12، 13].

وأما قوله تعالى: ﴿ٱلۡأَعۡرَابُ أَشَدُّ كُفۡرٗا وَنِفَاقٗا وَأَجۡدَرُ أَلَّا يَعۡلَمُواْ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾ [التوبة: 97] فقال ابن

---

1. الطبري، **جامع البيان**، 274/3.
2. ابن أبي حاتم، **تفسير القرآن العظيم**، 421/2.
3. ابن الجوزي، **زاد المسير**، 204/1.

عطية: «الحدود هنا: السنن والأحكام ومعالم الشريعة»[1]. وعلل أبو بكر الجرجاني ذلك:

لبعدهم عن حضرة رسول الله، وكونهم بمعزل عن الجمع والجماعات ومجالس العلم والوعظ واشتغالهم عن القراءة والتفقه في دين الله بمصالح معاشهم، وقد جعل الله النهب والفتك والنخوة والعزة في أهل البوادي حيث كانوا، فهم بمنزلة السباع، وجعل الرفق والسخرة والانقياد والذلة في الحواضر حيث كانوا، فهم بمنزلة البهائم، وجعل الحكم والعلم والسلطنة وتصريف الأمور في البدويين الذين نزلوا المدن والأمصار وتركوا التبدي فهم بمنزلة الناس من سائر الحيوان، هذا هو الغالب[2].

وقد وافقه غير واحد كابن جزي في التسهيل[3]. وفي قول الله تعالى

﴿ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۖ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ۚ ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [المجادلة: 4] ﴿وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ۚ لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾ [الطلاق: 1]

تدل آية سورة المجادلة بطريقة مفهوم المخالفة أن من امتثل أمر الله له الرحمة والأجر العظيم، لأن المتعدي له العذاب الأليم، كما أن سورة الطلاق

1. ابن عطية، أبو محمد عبد الحق بن غالب، **المحرر الوجيز**، دار الكتب العلمية، بيروت، 1422هـ، 73/3.
2. الجرجاني، عبد القاهر، **درج الدُّرر في تَفسِيرِ الآيِ والسُّوَر**، مجلة الحكمة، بريطانيا، 2008، 915/2.
3. ابن جزي، **التسهيل**، 1416هـ، 346/1.

نصت على أن المتعدي لحدود الله ظالم لنفسه حيث يعرضها للنقم، فلازم ذلك أن الملتزم بما حده الله رحم نفسه وأصاب ألطاف الله على نفسه، ونحو ذلك ذكره الماتريدي إذ يقول:

وقوله - عزوجل -: (ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه). أي: ضر نفسه، ويجوز أن يكون المعنى منه، أي: إن جاوز هذا الحد الذي جعله لله تعالى، فقد وضع نفسه مكانًا لم يضعه فيه ربه، والظلم في الحقيقة وضع الشيء في غير موضعه. والتأويل الآخر: أن من جاوز موانع الله ونواهيه، فقد ظلم نفسه؛ دل هذا على أن منافع هذه النواهي ومضارها لا ترجع إلى الله، بل ترجع نفس الممتحنين»[1].

وقوى هذا الاتجاه ابن عاشور فقال:

ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه إظهار في مقام الإضمار لاختلاف هذين المركبين بالعموم والخصوص، وجيء بهذا الإطناب لتهويل أمر هذا التعدي. وأخبرعن متعديها بأنه ظلم نفسه للتخويف تحذيرًا من تعدي هذه الحدود فإن ظلم النفس هو الجريرة عليها بما يعود بالإضرار وذلك منه ظلم لها في الدنيا بتعريض النفس لعواقب سيئةٍ تنجر من مخالفة أحكام الدين لأن أحكامه صلاح للناس فمن فرط فيها فاتته المصالح المنطوية هي عليها[2].

ولطالما ظن بعض الناس في الحدود يسير إقامتها، وهذا خلاف الشريعة، فقد حصن الدين دماء الناس، وربط إقامة الحد بشروط في غاية من التحري والشدة، حتى استفاض عند الفقهاء مفهوم (ادرؤوا الحدود)[3]، وصح عن عمر

---

1. الماتريدي، **تأويلات أهل السنة**، 52/10.
2. ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، 28/ 305.
3. الحاكم، **المستدرك على الصحيحين**، رقم الحديث 8375، 96/8.

أنه قال: «لأن أعطل الحدود بالشبهات أحب إلي من أن أقيمها بالشبهات»[1]. وقال ابن مسعودٍ: «ادرؤوا الحدود والقتل عن عباد الله ما استطعتم»[2]. وروى أبو نعيم في حلية الأولياء وطبقات الأصفياء أن عمر بن عبد العزيز قال: «ادرؤوا الحدود ما استطعتم في كل شبهةٍ، فإن الوالي إن أخطأ في العفو خير من أن يتعدى في الظلم والعقوبة»[3]. وفي مصنف عبد الرزاق الصنعاني عن إبراهيم، قال: كان يقال: «ادرؤوا الحدود عن المسلمين ما استطعتم، فإذا وجدتم للمسلم مخرجًا، ادرؤوا عنه، فإنه أن يخطأ حاكم من حكام المسلمين، في العفو خير من أن يخطأ في العقوبة»[4]، وقد روي هذا المعنى مرفوعًا عند الترمذي عن الزهري، عن عروة، عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «ادرؤوا الحدود عن المسلمين ما استطعتم، فإن كان له مخرج فخلوا سبيله، فإن الإمام أن يخطئ في العفو خير من أن يخطئ في العقوبة»[5].

بل شدد الشرع كذلك في موضوع الشهود الذين قد يكونون سببًا لانتهاك حرمة دم الإنسان، فقال ابن بطال: «الحدود لا تقام إلا بالإفصاح دون الكنايات، ألا ترى لو أن الشهود شهدوا على رجل بالزنا، ولم يقولوا رأيناه أولج فيها كان حكمهم حكم من قذف لا حكم من شهد، رفقًا من الله بعباده وسترًا عليهم ليتوبوا»[6].

---

1. ابن أبي شيبة، **مصنف ابن أبي شيبة** مكتبة الرشد، الرياض، 1409هـ، 511/5.
2. الصنعاني، عبد الرزاق بن همام، **المصنف**، ط 2، 1403هـ، 402/7.
3. الأصفهاني، أبو نعيم، حلية الأولياء **وطبقات الأصفياء**، 1409هـ، 311/5.
4. الصنعاني، **المصنف**، 166/10.
5. الترمذي، محمد بن عيسى، **سنن الترمذي وهو الجامع الكبير**، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ط 2، 1395هـ - 1975م، 5 مج، أبواب الحدود، باب ما جاء في درء الحدود، رقم الحديث 1424، 33/4.
6. ابن بطال، **شرح صحيح البخاري**، 445/8.

ونرى مذاهب الأمصار والتطبيقات الفقهية لدى القضاة والفقهاء في قمة التعظيم لإيذاء جسم الإنسان حتى لو كان بشبهة الحد، فهذا المذهب الحنفي يقرر أن «الحاصل أن القاضي مندوب إلى الاحتيال لدرء الحد كما قال - ﷺ - «ادرؤوا الحدود بالشبهات» ولقن المقر الرجوع بقوله أسرق ما إخاله سرق وقال عمر - رضي الله عنه -: اطردوا المعترفين يعني الذين يقرون على أنفسهم بالسبب الموجب للحد»[1].

وعلل الكاساني في بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع قضية الدرء بقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: 143] «أي عدلًا، وصف الله سبحانه وتعالى مؤمني هذه الأمة بالوساطة، وهي العدالة، وقال سيدنا عمر - رضي الله تعالى عنه - عدول بعضهم على بعضٍ، فصارت العدالة أصلًا في المؤمنين، وزوالها بعارضٍ؛ لأن العدالة الحقيقية مما لا يمكن الوصول إليها فتعلق الحكم بالظاهر، وقد ظهرت عدالتهم قبل السؤال عن حالهم فيجب الاكتفاء به، إلا أن يطعن الخصم؛ لأنه إذا طعن الخصم وهو صادق في الطعن فيقع التعارض بين الظاهرين، فلا بد من الترجيح بالسؤال، والسؤال في الحدود والقصاص طريق لدرئها، والحدود يحتال فيها للدرء»[2].

ويجدر بالمقام الاعتراف ببعض الثغرات لدى طائفة من الفقهاء الذين حادوا عن جادة الصواب فحكموا الغيرة المزعومة على الحرمات، مع أنهم يؤمنون بأن دماء الناس محرمة، وهذا من المعلوم من الدين بالضرورة، حتى إن ابن حزم نص على هذا المزلق حيث يقول:

1. السرخسي، شمس الدين، **المبسوط**، دار المعرفة، بيروت، 1993، 38/9.
2. الكاساني، **بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع**، دار الكتب العلمية، بيروت، 1986، 270/6.

فالمالكيون يحدون في الزنى بالرجم والجلد بالحبل فقط - وهي منكرة - وقد تستكره وتوطأ بنكاحٍ صحيحٍ لم يشتهر، أو وهي في غير عقلها، ويقتلون بدعوى المريض: أن فلانًا قتله، وفلان منكر ولا بينة عليه. ويحدون في الخمر بالرائحة، وقد تكون رائحة تفاحٍ، أو كمثرى شتوي. ويقطعون في السرقة من يقول: صاحب المنزل بعثني في هذا الشيء - وصاحب المنزل مقر له بذلك. ويحدون في القذف بالتعريض - وهذا كله هو إقامة - الحدود بالشبهات. وأما الحنفيون فإنهم يقطعون من دخل مع آخر في منزل إنسانٍ للسرقة فلم يتول أخذ شيءٍ ولا إخراجه، وإنما سرق الذي دخل فيه فقط، فيقطعونهما جميعًا - في كثيرٍ لهم من مثل هذا قد تقصيناه في غير هذا المكان[1].

وكل ذلك مخالف لما قضى به الثابت القطعي من القرآن الكريم والسنة المستفيضة المشهورة، لأن الإسلام يدعو إلى إيجاد الحياة السعيدة، والمجتمع المدني، والانضباط العام لمفاهيم السلم واحترام حقوق الآخرين ضمن منظومة متكاملة من القوانين الربانية والوضعية التجريبية، وأنه أضاف أيضًا ابن حزم:

لا يحل الامتحان في شيءٍ من الأشياء بضربٍ، ولا بسجنٍ، ولا بتهديدٍ، لأنه لم يوجب ذلك قرآن، ولا سنة ثابتة، ولا إجماع، ولا يحل أخذ شيءٍ من الدين، إلا من هذه الثلاثة النصوص بل قد منع الله تعالى من ذلك على لسان رسوله - ﷺ - بقوله «إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم وأبشاركم عليكم حرام» فحرم الله تعالى البشر، والعرض، فلا يحل ضرب مسلمٍ، ولا سبه إلا بحق أوجبه القرآن، أو السنة الثابتة[2].

---

1. ابن حزم، **المحلى**، دار الفكر، بيروت، (د.ت)، 104/7.
2. ابن حزم، **المحلى**، 39/12.

الفصل الرابع

شبهات وردود

المبحث الأول

مزالق الفهم لنظرية الرحمة وعلاقتها بالوسطية

المبحث الثاني

أسباب القنوط من رحمة الله في الفكر المتشدد

المبحث الثالث

نظرة الرسالة القرآنية إلى ميزان أعمال القلب وما يترتب عليها من السلوك

الفصل الرابع

شبهات وردود

لا بد من التصريح بادئ الأمر بأن منهج محمد عليه الصلاة والسلام هو الرحمةُ بالخلق كلهم إنسِهم وجنِّهم، وبكل حيوان ونبات، تقول لورافيشيا فاغليري: «وكان محمد المتمسك دائمًا بهذه المبادئ الإلهية شديد التسامح، وبخاصة نحو أتباع الأديان الموحدة»[1]. وإذا عرف التاريخ الإسلامي بعض الصور الشاذة من الغلو النابع من قضية مغالبة الدين؛ فمن اللازم البحث في أساس الشبهة الداخلة على هؤلاء المتشددين الواقعين في كبيرة من الكبائر وهي القنوط من رحمة الله تعالى.

ومن المهم معرفة أن تقنيط الغير من رحمة الله ليس وليد العهد الإسلامي إذ التشدد مرتبط بتاريخية التدين في الأمم الماضية كما يروى عن زيد بن أسلم:

أن رجلًا كان في الأمم الماضية يجتهد في العبادة ويشدد على نفسه، ويقنط الناس من رحمة الله ثم مات، فقال: «أي رب ما لي عندك؟ قال: النار، قال: أي رب، فأين عبادتي واجتهادي؟ قال: فيقول: إنك كنت تقنط الناس من رحمتي في الدنيا، فأنا أقنطك اليوم من رحمتي»[2].

1. فاغليري، **لورافيشيا، دفاع عن الإسلام**، (ترجمة: منير البعلبكي)، دار العلم للملايين، ط 5، 1981، ص 33.
2. الصنعاني، **تفسير عبد الرزاق**، 202/2.

ذلك أن المتشدد المقنط من رحمة الله يصدر في الغالب عن جهل بما لدى الله من الخزائن، مع ما تمليه عليه نفسه من دعاوى الاغترار بمنزلته أو مقامات عباداته التي لم تفد إبليس وقد عدا زمانًا من ضمن درجات الملائكة. فجعله اغتراره يصاب بالاستكبار والعصيان وحسد الآخرين ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ فَفَسَقَ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِي وَهُمۡ لَكُمۡ عَدُوُّۢۚ بِئۡسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلٗا﴾ [الكهف: 50] ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: 34] ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأَقۡعُدَنَّ لَهُمۡ صِرَٰطَكَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ١٦ ثُمَّ لَأٓتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ﴾ [الأعراف: 16، 17].

المبحث الأول: مزالق الفهم لنظرية الرحمة وعلاقتها بالوسطية

لقد بوب الإمام ابن حبان في صحيحه قائلًا:

ذكر الإخبار عما يجب على المرء المسلم من ترك القنوط من رحمة الله جل وعلا مع ترك الاتكال على سعة رحمته وإن كثرت أعماله: أخبرنا أبو خليفة قال حدثنا القعنبي قال حدثنا عبد العزيز بن محمد عن العلاء عن أبيه عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال «لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طمع في الجنة أحدٌ ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قنط من الجنة أحدٌ»[1].

إن تحليل هذا النص يسفر عن تلك الموازنة الفكرية والوسطية الإيمانية المرتبطة بما نعتقده في ذات الله تعالى، ذلك أن المزج بين الخوف والرجاء كتلة واحدة يقهر بها الإنسان ثوران الغرور حتى كأن إلهه محقق الأمنيات، ويكبح بها الرهبانية السوداء التي تقتل الاستمتاع بما هيأه الله من بهاء الدنيا ولذاتها، وبهذه الصيرورة يصل المرء إلى استيعاب مصطلحات شرعية لطالما ادعاها كثيرون، وتبجح بإدراكها جماعات من سعت في الأرض فسادًا وأهلكت الحرث والنسل.

ولو تدبر كل منا في مقتضى حديث أن الرحمة مائة جزء؛ لعرفنا أن ذلك الجزء الوحيد من رحمة الله قد تراحمت بها الكائنات كلها، منذ النشأة الأولى،

1. ابن حبان، **صحيح ابن حبان**، رقم الحديث 345، 56/2.

فإذا كان ذلك الجزء الذي يمثل 100/1 قد تحقق به التراحم؛ فماذا سيقال لو صار 100% ؟ ولذا جاء في الحديث نفسه تعليل تأخير 99% ليوم القيامة لرحمة العباد كما في حديث أبى هريرة، عن النبي ﷺ قال: «إن لله مائة رحمة، أنزل منها رحمة واحدة بين الجن والإنس والبهائم والهوام، فبها يتعاطفون، وبها يتراحمون، وبها تعطف الوحش على ولدها، وأخر الله تسعًا وتسعين رحمة، يرحم بها عباده يوم القيامة»[1].

ولذا فإنه من أجل فهم نظرية الرحمة يلزم اتباع شبكة من نصوص الوحي المتداخلة بحث يناط بمجملها تحديد أن الرحمة الإلهية لا تقاس بعقول البشرية البتة، ولا تحيطها القوانين العقلية، ولكنها –وإن استشعر آثارها الإنسان- إلا أنه لا يدرك منها سوى عشر المعشار من الجزء المفكوك من مائة جزء مما هي عليه الرحمة المخلوقة. ومع استحضار أن ما تنعمت به الكائنات من رحمة الله هو مخلوق، فكيف يقال في رحمة الله التي هي صفة من صفاته؟!، سبحانك ربنا ما قدرناك حق قدرك.

والمدركون لمنهج القرآن، لاسيما من جيل الصحابة نجدهم يستوعبون أن هذا الجزء من الموضوع يعتبر أمرًا خطيرًا تستثقله العقول، وعادة ما تطرحه الأفكار في ظلمات الميتافيزيقيا الغائرة في اللاوعي. ومن الصدف العجيبة أن هؤلاء الصحابة هم كبار القراء الذين اشتهروا بمعرفتهم التامة للوحي الرباني، ويغلب عليهم طابع الاستقراء التام حينما يناقشون أمور الغيب التي ظهرت خلافاتها بادئ الأمر في تساؤلات القدرية؛ بدليل ما يرويه ابن الديلمي، في صحيح ابن ماجه قال:

---

1. مسلم، **صحيح مسلم**، كتاب التوبة، رقم الحديث: 2752، 4/ 2108.

وقع في نفسي شيءٌ من هذا القدر، خشيت أن يفسد علي ديني وأمري، فأتيت أبي بن كعب، فقلت: أبا المنذر، إنه قد وقع في نفسي شيءٌ من هذا القدر، فخشيت على ديني وأمري، فحدثني من ذلك بشيء، لعل الله أن ينفعني به، فقال: «لو أن الله عذب أهل سماواته وأهل أرضه، لعذبهم وهو غير ظالم لهم، ولو رحمهم لكانت رحمته خيرًا لهم من أعمالهم، ولو كان لك مثل جبل أحد ذهبًا، أو مثل جبل أحد تنفقه في سبيل الله، ما قبل منك حتى تؤمن بالقدر، فتعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وأن ما أخطأك لم يكن ليصيبك، وأنك إن مت على غير هذا دخلت النار» ولا عليك أن تأتي أخي عبد الله بن مسعود، فتسأله، فأتيت عبد الله، فسألته، فذكر مثل ما قال أبي وقال لي: ولا عليك أن تأتي حذيفة، فأتيت حذيفة، فسألته، فقال مثل ما قالا، وقال: ائت زيد بن ثابت، فاسأله، فأتيت زيد بن ثابت، فسألته، فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لو أن الله عذب أهل سماواته وأهل أرضه، لعذبهم وهو غير ظالم لهم، ولو رحمهم لكانت رحمته خيرًا لهم من أعمالهم، ولو كان لك مثل أحد ذهبًا، أو مثل جبل أحد ذهبًا تنفقه في سبيل الله، ما قبله منك حتى تؤمن بالقدر كله، فتعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك، وأنك إن مت على غير هذا دخلت النار[1].

إن عبارة «لو أن الله عذب أهل سماواته وأهل أرضه، لعذبهم وهو غير ظالم لهم»، لا يمكن تصورها إلا بعد تصور ما لدى الله من الجبروت والقاهرية، وإذا كان هذا مستحيلًا؛ فيستحيل كذلك تصور ما لدى الله من

1. ابن ماجه، بو عبد الله محمد يزيد، **سنن ابن ماجه**، تحقيق عصام موسى هادي، دار الصديق للنشر، السعودية، 1435 هـ - 2014 م، باب في القدر، رقم الحديث 77، 29/1.

الرحمة والحنان، إذ صفات الله لا تقاس بالعقول، ولا نحيط به سبحانه علمًا، فرحمته غير متناهية، وبسطه لآثارها غير محدود، وكل ذرة في ملكوته هي مفتقرة لرحمة الله، ولولاها لفني كل مخلوق.

ويقول ابن عاشور :

وإذا كان إجراء الأوصاف السابقة مؤذنًا بأن جميع تصرفات الله تعالى فينا رحمةٌ فقد كفى ذلك في الحث على الامتثال والانتهاء إذ المرء لا يخالف ما هو رحمةٌ به فلا جرم أن ينساق إلى الشريعة باختياره. والمخاطبون مراتبٌ: منهم من لا يهتدي لفهم ذلك إلا بعد تعقيب تلك الأوصاف بهذا الوصف، ومنهم من يهتدي لفهم ذلك ولكنه يظن أن في فعل الملائم له رحمة به أيضًا فربما آثر الرحمة الملائمة على الرحمة المنافرة وإن كانت مفيدة له، وربما تُأَوِّل الرحمة بأنها رحمةٌ للعموم وأنه إنما يناله منها حظ ضعيفٌ فآثر رحمة حظه الخاص به على رحمة حظه التابع للعامة. وربما تأول أن الرحمة في تكاليف الله تعالى أمرٌ أغلبي لا مطردٌ وأن وصفه تعالى بالرحمن بالنسبة لغير التشريع من تكوين ورزق وإحياء، وربما ظن أن الرحمة في المآل فآثر عاجل ما يلائمه. وربما علم جميع ما تشتمل عليه التكاليف من المصالح باطراد ولكنه ملكته شهوته وغلبت عليه شقوته. فكل هؤلاء مظنةٌ للإعراض عن التكاليف الشرعية، ولأمثالهم جاء تعقيب الصفات الماضية بهذه الصفة تذكيرًا لهم بما سيحصل من الجزاء يوم الحساب لئلا يفسد المقصود من التشريع حين تتلقفه أفهام كل متأول مضيع[1].

1. ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، 174/1.

وقد يكون هذا التأول من بعض العلماء أيضًا؛ فيخطئون طريق الرحمات ويقنطون الناس من نفحات الرحمن سبحانه وتعالى، مثلما جاء في كتاب طرح التثريب في شرح التقريب لزين الدين العراقي حيث قال:

فأما لو عمل هذه الأعمال، وهو يعتقد، أو يظن أن الله لا يقبلها، وأنها لا تنفعه فذلك هو القنوط من رحمة الله واليأس من روح الله، وهو من أعظم الكبائر، ومن مات على ذلك وصل إلى ما ظن منه كما قد جاء في بعض ألفاظ هذا الحديث «أنا عند ظن عبدي بي فليظن عبدي بي ما شاء». فأما ظن الرحمة والمغفرة مع الإصرار على المعصية فذلك محض الجهل والغرة، وهو يجره إلى مذهب المرجئة، وقد قال - عليه الصلاة والسلام - «الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله»[1].

والشبهة هنا هي الاستدلال بالحديث الضعيف، ومحاولة نقض مذهب سبق الرحمة بزعم أن رجاء رحمة الله مع الوقوع المتكرر في المعصية يستوجب إقحام المرء في مذهب المرجئة، وهذا محض تحكم، علمًا بأن توظيف عبارات اللزوم في إدخال أي شخص في مذهب ما وهو براء منه هو كذلك تحمل لا يرتقي إلى منزلة العقل التي تعمل بالبراهين الواضحة.

ومعلوم في الصناعة الحديثية، لاسيما في علم العلل أن حديث (الكيس من دان نفسه) قد ضعفه جماعة من الحفاظ كابن عدي[2]، والذهبي الذي

1. العراقي، أبو الفضل زين الدين عبد الرحيم، **طرح التثريب**، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (د.ت)، 234/8.
2. ابن عدي، أبي أحمد عبد الله الجرجاني، **الكامل في ضعفاء الرجال**، دار الكتب العلمية، بيروت، 1997، 212/2.

قال معلقًا على مستدرك الحاكم: «لا والله يعني ليس على شرط البخاري كما قال الحاكم أبو بكر واه»[1]

ومن الشبه الذي يظنها كثير من المثقفين في الشريعة أنها معلومة ثابتة هي قضية نسخ آيات الرحمة والمهادنة والموادعة بآية السيف، ومع الأسف نرى كثيرًا من المفاهيم المغلوطة ناتجةٌ عن التصورات العوراء للمصطلحات العلمية، مثلما وقع في فهم مصطلح (النسخ) عند جمهور المؤلفين فيه؛ سواء الكتب المفردة[2] أو كان ذلك ضمن التفسير، مع أن بعض كبار الفقهاء والأصوليين نبهوا على أن الأصل في النسخ هو مجرد تقييد، أو تخصيص، أو مطلق بيان، فهذا الشاطبي في موافقاته يقول:«يظهر من كلام المتقدمين أن النسخ عندهم في الإطلاق أعم منه في كلام الأصوليين: فقد يطلقون على تقييد المطلق نسخًا، وعلى تخصيص العموم بدليل متصل أو منفصل نسخًا، وعلى بيان المبهم والمجمل نسخًا، كما يطلقون على رفع الحكم الشرعي بدليل شرعي متأخر نسخًا، لأن جميع ذلك مشترك في معنى واحد»[3].

لكن لما اقتصر الأصوليون في الدرس الفقهي على مسألة إزالة الحكم؛ اشتهر عنهم القول بأن النسخ رفع حكم بآخر متراخ عنه، مما جعل هذه العبارة تسري في كتب التفسير حتى ادعي النسخ في مئات من الآيات القرآنية، رغم أن

---

1. الحاكم، أبو عبد الله محمد بن عبد الله، **المستدرك على الصحيحين**، دار الكتب العلمية، بيروت، 1990، 125/1.
2. خزائن التراث ملأى بالمصنفات التي تعد بالمئات في قضايا **الناسخ والمنسوخ**، ولعل أشهرها ما صنفه قتادة السدوسي والقاسم بن سلام والبنداري والنحاس وهبة الله الضرير ومكي القيسي وابن حزم وابن العربي وابن الجوزي.
3. الشاطبي، **الموافقات**، 344/3.

القرآن الكريم هو كتاب محكمٌ بالنص الصريح، كقوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾. ولذلك ينبغي أن يفهم مصطلح النسخ بحقيقته القرآنية لا بنتيجة بعض التصورات الفقهية المتعلقة ببعض الأحكام، إذ ميز القرآن ثلاثة مفاهيم في هذا الصدد.

1. النسخ ﴿مَا نَنسَخۡ مِنۡ ءَايَةٍ أَوۡ نُنسِهَا نَأۡتِ بِخَيۡرٖ مِّنۡهَآ أَوۡ مِثۡلِهَآ﴾[1]. وهو مجرد تقييد.

2. النساء (التأخير لسبب)، في قراءة ﴿أَوۡ نُنسِهَا نَأۡتِ بِخَيۡرٖ مِّنۡهَآ﴾. وهو إرجاء مربوطٌ بمناطه.

3. الإنساء (من النسيان) (المحو من ذاكرة الرسول ﷺ) ﴿سَنُقۡرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ٦ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ﴾. وهو رفع النص كاملًا لعلة: كأن لم يكن من قبل، كما رفعت سورتا (الحفد) و(الخلع) المذكورتان في مصحف أبي بن كعب. بل روي عن عائشة أن سورة الأحزاب كانت تعدل سورة البقرة ثم وقع النقصان فيها. وصح عن أبي بن كعب كما في صحيح ابن حبان أنه قال «كانت سورة الأحزاب توازي سورة البقرة»[2]. وفي رواية النسائي «كانت لتعدل سورة البقرة وأطول»[3]. وفي رواية الطيالسي: «إن كانت

---

1. هذا من باب التنزل مع الخصم في كون تلك الآية تدل على النسخ الشرعي الذي هو رفع الحكم، بسبب أن ثمة أقوالا أخرى في تفسيرها؛ من أشهرها أن سبب نزولها متعلق بنسخ الشرائع السابقة كنسخ القبلة، وغيرها مما في كتب أهل الكتاب.

2. ابن حبان، **صحيحابن حبان** رقم الحديث 4428، 10 /273.

3. النسائي، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب، **السنن الكبرى**، تحقيق حسن عبد المنعم شلبي، 2001م، رقم الحديث 7112، 408/6.

لتضاهي سورة البقرة»[1]، وعند عبد الرزاق في مصنفه «لقد كنا نقرأها مع رسول الله ﷺ نحو سورة البقرة أو هي أكثر»[2].

إن من الآفات التي شهرت مقولة (منسوخة بآية السيف) أسبقية تفسير مقاتل بن سليمان (ت150هـ) وهو غير محمود عند العلماء والمحدثين بسبب التهمة بالكذب وغير ذلك، وتفسيره قد أثر كثيرًا في التفاسير اللاحقة. وأول من قعد لجملة منسوخ بآية القتال -مع الأسف- بعض التابعين كقتادة السدوسي (ت118هـ) بعبارة «كل شيء في القرآن ﴿فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَٱنتَظِرۡ﴾ منسوخ، نسخته براءة والقتال»[3]، وكذا الضحاك بن مزاحم، كما جاء في تفسير ابن كثير في سياق حديثه عن الآية الخامسة من سورة التوبة أنها «هي آية السيف التي قال فيها الضحاك بن مزاحم: إنها نسخت كل عهد بين النبي ﷺ وبين أحد من المشركين، وكل عهد وكل مدة... وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في هذه الآية، قال: أمره الله تعالى أن يضع السيف فيمن عاهد إن لم يدخلوا في الإسلام، ونقض ما كان سمى لهم من العقد والميثاق، وأذهب الشرط الأول»[4].

أضف إليه تأثير ما ذكره سيبويه في الكتاب لما قلد شيخه أبا الخطاب الأخفش في باب إضمار الفعل المتروك إظهاره، أي في مسألة دلالة (سلامًا)

1. الطيالسي، **مسند أبي داود الطيالسي**، تحقيق محمد بن عبد المحسن التركي، دار هجر، 1999م، رقم الحديث، 542، 436/1.
2. ذهب بعض الكتاب إلى عدم صحة القول بنسخ التلاوة وألف في ذلك عبد الله الغماري رسالته (ذوق الحلاوة بامتناع نسخ التلاوة) وهو مذهب ضعيف، وكل ما بنى عليه الغماري رسالته مبني على عدم تصوره لحقيقة الإنساء، بله إغفاله للآثار المسندة الصحيحة المثبتة لوقوع ذلك.
3. ابن الجوزي، **نواسخ القرآن**، شركة أبناء شريف الأنصاري، بيروت،2001، ص 182.
4. ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، 112/4.

على البراءة في قول الله تعالى ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا﴾، فقال: «وزعم أبو الخطاب أن مثله قولك للرجل: سلامًا، تريد تسلمًا منك، كما قلت: براءة منك، تريد: لا ألتبس بشيء من أمرك. وزعم أن أبا ربيعة كان يقول: إذا لقيت فلانًا فقل له: سلامًا. فزعم أنه سأله ففسره له بمعنى براءة منك. وزعم أن هذه الآية: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا﴾ بمنزلة ذلك، لأن الآية فيما زعم مكيةٌ، ولم يؤمر المسلمون يومئذ أن يسلموا على المشركين، ولكنه على قولك: براءة منكم وتسلمًا، لا خير بيننا وبينكم، ولا شر. وزعم أن قول الشاعر، وهو أمية بن أبى الصلت:

سلامك ربنا في كل فجر بريئًا ما تغنثك الذموم

على قوله: براءتك ربنا من كل سوء»[1].

ولما جاء الشراح لكتاب سيبويه كالسيرافي أقحموا مصطلح (المتاركة) فقال: «وقوله (لا تكونن من فلان إلا سلامًا بسلام). معنى (لا تكونن من فلان) أي لا تخالطنه، وقوله: (سلامًا بسلام) أي: متاركة. من قوله عز وجل:

﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا﴾ أي براءة ومتاركة فكأنه قال:

لا تخالطنه إلا متاركة. وليست المتاركة من المخالطة في شيء فصار المعنى:

لا تخالطه ولكن: تاركه»[2].

---

1. سيبويه، عمرو بن عثمان، **الكتاب**، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط 3، 1988، 325/1.
2. السيرافي، أبو سعيد الحسن بن عبد الله بن المرزبان، **شرح كتاب سيبويه**، دار الكتب العلمية، بيروت، 2008، 72/3.

وهذه المتاركة تسللت إلى عدد من كتب شروح الحديث فنرى في المعلم للمازري قوله:

قد تعلق بعض الناس في إباحة لفظ السلام بقوله سبحانه وتعالى ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكَۖ سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ رَبِّيٓۖ﴾، وبقوله عزوجل ﴿وَقُلۡ سَلَٰمٞۚ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾، والجواب عن هذا أنه لم يقصد بهذا التحية، وإنما قصد المباعدة والمتاركة. ولهذا قال بعض الناس في قوله جلت قدرته ﴿وَقُلۡ سَلَٰمٞۚ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾إنها منسوخة بآية السيف لما كان القصد بها المتاركة[1].

إن ذلك الرأي من الأخفش الأكبر وسيبويه والسيرافي، ومن قلدهم من المفسرين يخالف قاعدة مهمة يجب الإشارة إليها؛ وهي أن الأخلاق لا تنسخ، والأخبار لا تنسخ، إذ لو كان ذلك قابلًا للنسخ لما عرف الصدق من الكذب، وهذا شأن خطير في باب العقيدة، إذ من المعلوم أن الله منزه قوله عن الهزل، وأخباره كلها ثابتة راسخة محكمة، وهي تصديقات ضرورية الوجود في ألباب المسلمين كافة، دعت إليها المعلومات المكتسبة جيلًا عن جيل. على أن السخاوي ممن عقب على أتباع الأخفش فقال: «وهذا التأويل يحتاج فيه إلى إثبات أن الجاهلين هم المشركون، وأيضًا فإن الله عزوجل وصف المؤمنين وأثنى عليهم بصفات، منها: الحلم عند جهل الجاهل، والمراد بالجاهلين السفهاء، وهذه صفة محمودة باقية إلى يوم القيامة، وما زال الإغضاء عن السفهاء، والترفع عن مقابلة ما قالوه بمثله من أخلاق الفضلاء، وبذلك يقضي الورع والشرع

1. المازري، **المعلم**، الدار التونسية للنشر، تونس، ط 2، 1988، 3/151.

والأدب والمروءة، ثم وأي حاجة إلى القول بأن ذلك منسوخ؟!»[1].

ولما تركت قضية (آية السيف) عند بعض المتقدمين ولم تحرر؛ تغول الأمر فزاد عن الحد، واستشرى الإحداث في الأقوال، ومن ذلك ما ذكره ابن أبي حاتم في تفسيره، فقال حدثنا أبي، حدثنا إسحاق بن موسى الأنصاري قال: قال سفيان بن عيينة قال علي بن أبي طالب: بعث النبي ﷺ بأربعة أسياف: سيف في المشركين من العرب قال الله: ﴿فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ﴾». [التوبة:5]

وهذا الأثر تأثر به عدد من المفسرين كابن كثير، والقاسمي من المتأخرين. بل اجتهد ابن كثير في إكمال الأسياف الثلاثة وتلقفها من أتى بعده. جاء في تفسيره:

وأظن أن السيف الثاني هو قتال أهل الكتاب في قوله: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ﴾ والسيف الثالث: قتال المنافقين في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ والرابع: قتال الباغين في قوله: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتۡ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا بِٱلۡعَدۡلِ وَأَقۡسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ﴾[2].

---

1. السخاوي، **جمال القراء**، دار المأمون للتراث، دمشق، 1997، 441/1.
2. ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، 113/4.

وأرى أنه ما بني على باطل فهو باطل، لأن الأثر الذي بني عليه القول بالأسياف الأربعة يروى بإسناد معضل بين سفيان وعلي، والإعضال علة قادحة، وموجبة لرد أي أثر حتى لو كان مرفوعًا، وعلى فرضية الصحة فمتنه منكر، لمخالفته الآيات والأحاديث الدالة على أن النبي ﷺ بعث رحمة ولم يبعث قتالًا، ومن المهم هنا التصريح بأن الفكر المتشدد يحب مثل هذه الآثار التي تهيج العاطفة لدى الشباب الأغمار الذين تنطلي عليهم أساطير الخوارج، وسموم المفسدين في الأرض، والله لا يحب الفساد، وقد صح عن النبي ﷺ كما هو عند البيهقي في الشعب مرفوعًا: «إنما بعثت رحمة ولم أبعث عذابًا»[1]، وعند مسلم: «إنما بعثت رحمة ولم أبعث لعانًا»[2].

وأي عذاب أكبر لو اعتقدنا أن محمدًا بعث بالسيف؟!، وهذا الحديث كان سياقه مجرد الدعاء، فقد جاء عند البخاري في تاريخه وأدبه المفرد والبزار والبيهقي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قيل يا رسول الله ألا تدعو على المشركين؟ قال: إنما بعثت رحمة ولم أبعث عذابًا، ولهذا أتبعه البيهقي الحديث الآخر (إنما أنا رحمة مهداة) مع قول ابن عباس في قوله عز وجل: ﴿وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ﴾ [الضحى: 5] قال: «رضاه أن تدخل أمته كلهم الجنة»[3]. بل إن كثيرًا من حملة الأقلام السامة أتباع الخوارج يستدلون بحديث باطل لا أصل له ويروجونه فيما بينهم حتى انتشر، وهو (أنا الضحوك القتال) ومن دون شك يعد ذلك من الدخيل المدسوس في السيرة النبوية لتشويه صورة صاحبها عليه الصلاة والسلام.

---

1. البيهقي، **شعب الإيمان**، تحقيق عبد العلي عبد الحميد حامد، مكتبة الرشد للنشر والتوزيع، الرياض، 1423 هـ - 2003 م، رقم الحديث 1338، 528/2.
2. مسلم، **صحيح مسلم**، رقم الحديث: 2599، 2006/4.
3. البيهقي، **شعب الإيمان**، رقم الحديث: 1374، 44/3.

زد على هذا ما رواه أحمد في المسند وابن أبي شيبة في المصنف عن ابن عمر مرفوعا «بعثت بين يدي الساعة بالسيف...»[1] فإن إسناده ضعيف، إذ فيه علتان قادحتان في السند، والثالثة في المتن: الأولى عبد الرحمن بن ثابت بن ثوبان، وهو ضعيف، بل قال فيه الإمام أحمد: أحاديثه مناكير، والثانية علة أبي منيب الجرشي لم يسمع من ابن عمر، والثالثة أن في متنه نكارة. وقد ضعفه جماعة من المحدثين كالمنذري والسخاوي والزيلعي والهيثمي وشعيب الأرنؤوط، وضعف هذا الحديث هو سبب تعلقيه لدى البخاري، وهو منهج يعرفه المشتغلون بالصنعة الحديثية وبعلم العلل. فإن قيل إن له طرقًا أخرى، فالجواب أنها ضعيفة أعلها ابن أبي حاتم في علله إذ يقول: «قال أبي قال دحيم: هذا الحديث ليس بشيء...»[2] وكذلك أعلها الدارقطني في العلل. ومع ذلك حظي هذا الحديث عند بعض الحنابلة كابن رجب برسالة[3] خاصة شارحًا إياه، وذكر ضمنها كلامًا مغلوطًا ونقولًا باطلة حيث قال:

يعني أن الله بعثه داعيًا إلى توحيده بالسيف بعد دعائه بالحجة، فمن لم يستجب إلى التوحيد بالقرآن والحجة والبيان دعي بالسيف... وفي الكتب السالفة وصف النبي ﷺ بأنه يبعث بقضيب الأدب، وهو السيف. ووصى بعض أحبار اليهود عند موته باتباعه وقال: إنه يسفك الدماء، ويسبي الذراري والنساء، فلا يمنعهم ذلك منه. وروي أن المسيح عليه السلام قال لبني إسرائيل في وصف النبي ﷺ: إنه يسل السيف فيدخلون فيه دينه طوعًا وكرهًا. وإنما

---

1. ابن حنبل، **مسند أحمد ابن حنبل**، رقم الحديث 5667، 478/9.
2. ابن أبي حاتم، **العلل**، الرياض، مطابع الحميضي، 2006، 388/3.
3. سماها "الحكم الجديرة بالإذاعة من قول النبي ﷺ بعثت بالسيف بين يدي الساعة".

أمر النبي ﷺ بالسيف بعد الهجرة لما صار له دار وأتباع وقوة ومنعةٌ، وقد كان يتهدد أعداءه بالسيف قبل الهجرة، وكان ﷺ يطوف بالبيت وأشراف قريش قد اجتمعوا بالحجر وقالوا: ما رأينا مثل ما صبرنا عليه من هذا الرجل، قد سفه أحلامنا، وشتم آباءنا، وعاب ديننا، وفرق جماعتنا، وسب آلهتنا. لقد صبرنا منه على أمر عظيم. فلما مر بهم النبي ﷺ غمزوه ببعض القول، فعرف ذلك في وجهه ﷺ، وفعلوا ذلك به ثلاث مرات، فوقف وقال: أتسمعون يا معشر قريش؟ أما والذي نفس محمد بيده، لقد جئتكم بالذبح. فأخذت القوم كلمته، حتى ما فيهم رجل إلا وكأنما على رأسه طير واقع، وحتى أن أشدهم عليه قبل ذلك ليلقاه بأحسن ما يجد من القول، حتى أنه ليقول: انصرف يا أبا القاسم راشدًا، فوالله ما كنت مجهولًا[1].

وليس ببعيد عنهم شراح الحديث المحشين مصنفاتهم بالمفاهيم المغلوطة ما نراه في كتب الفقه لدى المذاهب كلها، خاصة حينما يستدلون بقوله تعالى: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ﴾ [التوبة:29] متغافلين عن تحرير تطبيق النبي ﷺ لهذه الآية، حتى ادعى الشوكاني أن ذلك معلوم من الدين بالضرورة حيث قال في السيل الجرار:

أما غزو الكفار ومناجزة أهل الكفر وحملهم على الإسلام أو تسليم الجزية أو القتل فهو معلوم من الضرورة الدينية، ولأجله بعث الله رسله وأنزل كتبه،

1. ابن رجب، **الحكم الجديرة بالإذاعة**، دار المأمون، دمشق، 1990، ص 6.

ومازال رسول الله ﷺ منذ بعثه الله سبحانه إلى أن قبضه إليه جاعلًا لهذا الأمر من أعظم مقاصده ومن أهم شؤونه، وأدلة الكتاب والسنة في هذا لا يتسع لها المقام ولا لبعضها، وما ورد في موادعتهم أو في تركهم إذا تركوا المقاتلة فذلك منسوخ باتفاق المسلمين بما ورد من إيجاب المقاتلة لهم على كل حال مع ظهور القدرة عليهم والتمكن من حربهم وقصدهم إلى ديارهم[1].

ومن منظور آخر نجد عددًا كبيرًا من المفسرين لم يحرروا قضية النسخ، وإنما كانوا مضطربين، وتجد عباراتهم هكذا (منسوخة بآية السيف، وقال الباقون: هي محكمة)، وهذا ما يجعل ثلة من العلماء يستعظمون دعاوى نسخ الدفع بالإحسان، فقد ورد في النكت للكرجي:

وذكر عن بعض الماضين أن الدفع بالإحسان منسوخ، فإن كان كما قال، فهو منسوخ في الكفار بآية السيف، وليس بمنسوخ في المؤمنين، إذ المنسوخ ينسخ بضده عند الجميع، فهل يجوز لأحد أن يقول: نسخ الله الدفع بالذي هو أحسن، بالدفع الذي هو أقبح، إذ كان النسخ يزيل المنسوخ ويجيء بغيره، هذا والله عظيم سماعه، فكيف انتحاله، والقول به؟![2].

فإذا كان العلماء جميعًا يعرفون أن الأخبار القرآنية لا تنسخ وهم مجمعون على هذه القاعدة، فلماذا نرى بعض الآيات الخبرية قد جرت إلى هوة النسخ؟!

1. الشوكاني، محمد بن علي بن محمد، **السير الجرار**، دار الكتب العلمية، بيروت، 1405هـ، ص945.
2. الكرجي، محمد بن علي، **النكت الدالة على البيان في أنواع العلوم والأحكام**، دار القيم - دار ابن عفان، القاهرة، 2003، 78/4.

كقوله تعالى ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾[1]؟!، وزد على هذه الآية الخبرية عشرات من الآيات الخبرية الأخرى كقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗاۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٖ﴾. بل تجرأ بعضهم كهبة الله الضريروابن حزم وابن الفرس والجرجاني في درج الدرر على سورة الكافرون فحكم على خاتمتها بأنها منسوخة مستخدمًا عبارة «وقد أجمع أهل الإسلام أن قوله تعالى ﴿لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ﴾ منسوخ بآية السيف». إذًا كيف نصنع بإجماع الأمة على أن الأخبار لا تنسخ؟!، ثم إن من المعلوم أن جماعة من العلماء لا يقولون بوجود النسخ البتّة لا في قرآن ولا في سنة، ولا شك أن هؤلاء من ضمن الأمة التي زُعم أنها قالت ما ادُّعي في خاتمة سورة الكافرون.

قال الشوكاني في خاتمة سورة الكافرون: «وهذه الآية منسوخة بآية السيف، وقيل: ليست بمنسوخة لأنها أخبار، والأخبار لا يدخلها النسخ»![2] فما الذي حمل على القول بنسخ بعض الآيات الخبرية كقوله تعالى ﴿لَّسۡتَ عَلَيۡهِم بِمُصَيۡطِرٍ﴾ [الغاشية:22]، ومثل هذا يقال للقنوجي صاحب فتح البيان، رغم

---

1. يقول نسخها بآية السف -مع الأسف- عدد من المفسرين كالثعلبي وهبة الله الضرير والبغوي والسمعاني وابن الجوزي ومرعي الكرمي والقنوجي. وهنا لابد أن أنبه على فهم مغلوط لدى الحاكم الجشمي في تفسيره، ومع أنه رجح عدم النسخ فيها إلا أنه ذكر كلامًا لا يتناسق وروح الشريعة، حيث قال: «ومتى قيل: إذا كان لا إكراه في الدين فلم أوجب القتل؟ قلنا: هو مخير بين الإسلام وقبول الجزية أو القتال، والقتال يجوز أن يكون عقوبة ولطفًا وليس بإكراه على الدين». اهـ أقول: هذا كلام في غاية من البطلان، لأنك أيها الجشمي سويت بين السيف واللطف، وهو تمحل سخيف، لأنه لا فرق بينك وبين من يتبنى نسخ الآية، فكلاكما يوجب القتل، ومعلوم أن النبي ﷺ هو المطبق الحقيقي للقرآن، ولم يصح عنه أنه أجبر الناس على الدين، وكفى دليلًا قوله تعالى في سياق لا يحتاج إلى تكلف في الفهم: {ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعًا أفأنت تكره الناس حتىٰ يكونوا مؤمنين (99) وما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله}.
2. الشوكاني، محمد بن علي بن محمد، **فتح القدير**، 1414هـ، 621/5.

أن الشوكاني والقنوجي ينتسبان إلى المدرسة الحديثية التي لا تقبل مثل هذا الخبط المأزوم المذموم، وإن كان كلاهما لم يحررا تفسيريهما لاسيما القنوجي.

بيد أن الأمرينبئ أنه لا علاقة له بأصل المدرسة، وأن علة ذلك تستند إلى التقليد، بدليل المغالاة في ادعاء النسخ لدى ابن حزم في كتابه، رغم قوله في كتابه الإحكام:

ولا يحل أن يقال فيما صح وورد الأمر به هذا منسوخ إلا بيقين ولا يحل أن يترك أمر قد تيقن وروده خوفا أن يكون منسوخًا ولا أن يقول قائل لعله منسوخ، وكيف ونحن على يقين مقطوع به من أن المخالف لمعهود الأصل هو الناسخ بلا شك ولا مرية عند الله تعالى برهان ذلك ما قد ذكرناه آنفًا من ضمان الله تعالى حفظ الشريعة والذكر المنزل»[1].

وقال في موضع آخر:

لا يحل لمسلم يؤمن بالله واليوم الآخر أن يقول في شيء من القرآن والسنة هذا منسوخ إلا بيقين لأن الله عزوجل يقول ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ جَآءُوكَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡتَغۡفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ وقال تعالى: ﴿قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةً يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٍ يَعۡلَمُونَ﴾ فكل ما أنزل الله تعالى في القرآن أو على لسان نبيه ففرض اتباعه، فمن قال في شيء من ذلك إنه منسوخ فقد أوجب

1. ابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد، **الإحكام في أصول الأحكام**، دار الآفاق الجديدة، بيروت، (د.ت)، 31/2.

ألا يطاع ذلك الأمر وأسقط لزوم اتباعه، وهذه معصية لله تعالى مجردة، وخلاف مكشوف؛ إلا أن يقوم برهان على صحة قوله، وإلا فهو مفتر مبطل. ومن استجاز خلاف ما قلنا فقوله يؤول إلى إبطال الشريعة كلها لأنه لا فرق بين دعواه النسخ في آية ما أو حديث ما وبين دعوى غيره، فعلى هذا لا يصح شيء من القرآن والسنة وهذا خروج عن الإسلام وكل ما ثبت بيقين فلا يبطل بالظنون، ولا يجوز أن تسقط طاعة أمر أمرنا به الله تعالى ورسوله إلا بيقين نسخ لا شك فيه[1].

وكل هذا الشطط ناتج كما قدمنا سابقًا عن عدم تحرير معنى النسخ الوارد في سورة البقرة، واعتقادهم أن القول بالنسخ ضروري في الشريعة رغم أنه لم يرد مصطلح النسخ عن النبي ﷺ قطعًا لا في حديث صحيح، ولا في حديث حسن ولا في حديث ضعيف. مع أن الأمر يستدعي وجود شيء من البيان لأمر حتمي الإيضاح كجدلية النسخ.

وأغرب من هذا القول بنسخ شيء من الأخلاق مثلما روي عن قتادة حين حكم بالنسخ بآية السيف على قوله تعالى ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسۡنًا﴾، وكذا على آية ﴿لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ﴾ كما في الطبري وغيره، مع أنهما خبران من مكارم الأخلاق التي بعث من أجلها الرسول ﷺ. بل نجد السمعاني والجرجاني وابن الفرس وغيرهم ممن زعم نسخ قوله تعالى في سورة الفرقان ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا﴾، مع أنها خبرٌ وخلقٌ محض!. بل يتضاخم الموضوع إذا عرفنا أن بعض المفسرين

1. ابن حزم، **الإحكام**، 84/4.

كالسمعاني والواحدي ممن يوظف عبارة (قال المفسرون: والصفح منسوخ بآية السيف)[1]، أو كقوله في آية ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا﴾ قال: «وأكثر المفسرين أن هذا منسوخ بآية السيف»، ولا تجتمع أمة محمد ﷺ على مثل هذا الشطط المريب في فهم كلام الله الودود المجيب.

وأغرب من هذا وذاك إقحام بعض الآيات الخبرية الحاكية لقصة ما في معرة النسخ كصنيع السمعاني بالآية 46 و47 من سورة العنكبوت، وكذا في قوله تعالى ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾! أضف إلى ذلك ما هو مبثوث في عدد من التفاسير، وكتب الفقه من التفريق بين العربي وغيره في قبول السلم، مثلما نرى في حاشية الشهاب الخفاجي على تفسير البيضاوي حيث يقول: «لأن مشركي العرب ليس لهم إلا الإسلام أو السيف بخلاف غيرهم»[2]. أليس هذا هو عين مخالفة قول الله تعالى ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾[3]. وأفظع من هذا ما يلزم من هذه الدعوى خاصة ما نقرأه في نواسخ القرآن لابن الجوزي مثل قوله «﴿وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ﴾... وذهب بعضهم إلى أن الإشارة إلى أحياء من كفار العرب كان بينهم وبين رسول الله ﷺ موادعة، فكان إن احتاج إليهم عاونوه، وإن احتاجوا عاونهم، فنسخ ذلك بآية السيف»[4]. وحاشا نبينا أن يقع في مثل هذا الغدر وهو الذي علمنا الوفاء بالعهود.

1. الواحدي، **البسيط**، 645/12.
2. الخفاجي، شهاب الدين، **حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي**، دار صادر، بيروت، (د.ت)، 287/4.
3. وهذه الآية كذلك قد زعم كثير من المفسرين أنها منسوخة إعمالًا منهم بدعوى آية السيف، ولعلهم قلدوا أرباب كتب النسخ المفردة ككتاب الناسخ والمنسوخ لهبة الله الضرير وغيره. وقد رد ابن الجوزي دعوى كونها منسوخة فقال في كتابه نواسخ القرآن: «والصحيح أنها محكمة، وبيان ذلك أن الإيمان لا يصح مع الإكراه، لأنه من أعمال القلب، وإنما يتصور الإكراه على النطق لا على العقل».
4. ابن الجوزي، **نواسخ القرآن**، ص 153.

ومن المؤسف أن نجد بعض المنتسبين إلى المدرسة العقلية كصاحب تفسير المنار قد قلد غيره في هذه المسألة، ومعلوم أن لازم مذهبهم هو القول بعدم النسخ الذي ذهب إليه بعض أئمتهم من المتقدمين والمتأخرين.

ثم إن السكوت عن مثل هذا الحيف الواقع على الآيات نتج عنه محاولة التقعيد لهذه الضفاطة العجيبة، فنجد في عشرات كتب التفسير وعلوم القرآن مثل عبارة ابن عطية في المحرر الوجيز ﴿ذَرۡهُمۡ يَأۡكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ﴾ [الحجر: 3] الآية وعيد وتهديد، وما فيه من المهادنة منسوخ بآية السيف، وقوله في موضع آخر «وجميع الآيات تتضمن المهادنة والموادعة، وهذا كله منسوخ بآية السيف»[1]. علمًا بأن السخاوي خطأ هذه العبارة في كتابه جمال القراء لما تحدث عن النسخ، ويذكر تحت آيات التهديد جملة:

قالوا: نسخ بآية السيف، وهذا تهديد ووعيد، ومثل هذا لا نسخ فيه». بل قال: «ولا يحل أن يقال بالظن: هذا ناسخٌ لكذا، ولا هذا منسوخٌ بكذا، ولو كان هذا الناسخ والمنسوخ مقطوعًا به لم يقع فيه اختلاف، كيف وهذا يقول في الآية: منسوخة، ويقول الآخر: بل هي محكمة»[2].

وقد يصرح بقوله:

قالوا: «نسخ بآية السيف، وهذا خطأ»، وقال: «وآية السيف لا تنسخ الموعظة والتهديد». حتى أغلظ عليهم السخاوي القول لما قال: «سورة مريم عليها السلام ليس فيها من المنسوخ شيء، وقال قوم: قوله عزوجل: ﴿وَأَنذِرۡهُمۡ

1. ابن عطية، **المحرر الوجيز**، 304/4.
2. السخاوي، **جمال القراء**، 705/2.

﴿يَوۡمَ ٱلۡحَسۡرَةِ﴾ نسخ بآية السيف وهذا من أعجب الجهل؛ أترى أنه لما نزلت آية السيف بطل إنذاره، وتذكيره بيوم القيامة»[1].

على أن تفسير آيات الأحكام قد اقتحمه هذا الدخيل، فابن الفرس - وهو من المكثرين من هذه الدعوى - قلد غيره في مواضع عدة، مثلًا في قوله: «﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ في هذه الآية مهادنة للكفار وهي منسوخة بآية السيف»[2].

وإذا كنا نحن معاشر المسلمين نفخر بأخلاق ديننا وسماحته ودعوته للحلم والصفح؛ فليس من العدل في شيء ترك هذه العشرات من التفاسير دون تعقيب ورد وتصحيح، فلو نظرنا مثلًا إلى موضوع الأسير في الإسلام وحقوقه، وأن الله أثنى على أهل الجنة أنهم ﴿وَيُطۡعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسۡكِينٗا وَيَتِيمٗا وَأَسِيرًا﴾ سورة [الإنسان:8]، فكيف نتعامى عن وجود بعض المفسرين الذين حكموا على هذه الآية بالنسخ، نحو ما نجد عند ابن عطية وغيره. ولذلك يتنبه أحيانًا بعض المكثرين في دعاوى النسخ فيعودون إلى الجادة كابن الجوزي في المصفى إذ يقول: «﴿وَلَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ﴾ قال بعضهم: هذا يقتضي نوع مساهلة الكفار ثم نسخ بآية السيف، وهو بعيد لأن من شرطها التنافي، ولا تنافي وأيضًا فإنه خبر»[3].

وإذا كان الناس قاطبة مجمعين على أن الرسل هم المبلغون عن الله، وأن الرسول ليس بمسيطر على الناس، ولا بكاره أحدًا على الإيمان، فالسؤال المطروح، ما الداعي في زعم أن كل ما ورد فيه ﴿ٱلۡبَلَٰغُ﴾ أو قوله ﴿إِنۡ أَنتَ

1. السخاوي، **جمال القراء**، 1/ 45.
2. ابن الفرس الأندلسي، أبو محمد عبد المنعم بن عبد الرحيم، **أحكام القرآن**، 2006، 3/ 319.
3. ابن الجوزي، **المصفى بأكف أهل الرسوخ من علم الناس والمنسوخ**، 1998، ص 16.

﴿إِلَّا نَذِيرٌ﴾ منسوخ[1]، مثلما ذكر جمع من المفسرين كابن الجوزي وابن جزي والبيضاوي والثعالبي، بل تعدى الأمر مسألة البلاغ، إلى مسألة الحكم على ﴿وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ أنها منسوخة، فقد قال القرطبي في تفسيره: «﴿وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ أي إلى التوحيد، وهذا يتضمن المهادنة والموادعة، وهذا كله منسوخ بآية السيف»[2]. وهذا كلام خطير العاقبة لو ترك هكذا دون بيان وتعقيب، فيا ليت طلبة العلم يعون، وللنظر يمعنون، حتى لا يقعوا في مثل الاضطراب الذي حصل لابن عرفة حين قال:

﴿مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ﴾ هي اجتناب فلا يتصور أنها موادعة منسوخة بآية السيف، بل هي حال عمن شهد شهادة، قال ابن عرفة: فيه نظر؛ لأن الجهاد واجب على الرسول، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ فإن قلنا: إن الجهاد من التبليغ فلا تكون منسوخة، وإن قلنا: إنه ليس من التبليغ فالآية منسوخة، والأصل عدم النسخ![3].

علما بأن ابن عرفة نفسه هو من رد على ابن عطية في دعوى نسخ آية مستدلًا بقاعدة عدم نسخ الأخبار، فقال: «وقال ابن عطية عن قتادة: إنها منسوخة بآية السيف، وعن مجاهد: إنها تهديد ووعيد، ولا نسخ فيها لتضمنها الخبر وهو التهديد»[4].

---

1. وقد رد السخاوي هذه الدعوى فقال: «وليس كما قالوا، وذلك محكمٌ لفظا ومعنى».
2. القرطبي، **جامع الأحكام**، 322/13.
3. ابن عرفة، أبو عبد الله محمد بن محمد، **تفسير ابن عرفة**، دار الكتب العلمية، بيروت، 2008، 127/2.
4. السابق، 166/2.

ويستوجب الإنصاف أن نقر بوجود مفسرين لم يكونوا مكثرين من القول بالنسخ، لا سيما بآية السيف، ولعل الرازي أبرز من يمثل هذا الاتجاه، لاسيما إذا عرفنا أنه تأثر بمذهب أبي مسلم الأصفهاني القائل بعدم القول بالنسخ رأسًا، ولذلك كان الرازي يجادل بالتأصيل في قضية النسخ أثناء رده على بعض المفسرين، كقوله في الآية 41 من سورة يونس:

وقال مقاتل والكلبي: هذه الآية منسوخة بآية السيف، وهذا بعيد؛ لأن شرط الناسخ أن يكون رافعًا لحكم المنسوخ، ومدلول هذه الآية اختصاص كل واحد بأفعاله وبثمرات أفعاله من الثواب والعقاب، وذلك لا يقتضي حرمة القتال، فآية القتال ما رفعت شيئًا من مدلولات هذه الآية، فكان القول بالنسخ باطلًا»[1].

ويقول في الرد عليهم في زعمهم نسخ آية الصفح في سورة الحجر: وقيل: هو منسوخ بآية السيف، وهو بعيد، لأن المقصود من ذلك أن يظهر الخلق الحسن والعفو والصفح، فكيف يصير منسوخًا!».

والرازي –رحمه الله- هو صاحب مقولة: «وأكثر المفسرين مشغوفون بتكثير القول بالنسخ». ولذلك حاول بعض المفسرين ممن استفاد من مفاتيح الغيب للرازي التقليل من دعوى النسخ في كتاب الله الحكيم؛ نذكر من هؤلاء: الخازن صاحب اللباب، وأبا حيان الأندلسي في البحر، وابن كثير في تفسير القرآن العظيم، وابن عادل في اللباب، وأبا العباس البسيلي في تقييده، والقمي في الغرائب، والشربيني في السراج، وأبا السعود في الإرشاد، والخلوتي في الروح، والآلوسي روح المعاني والديرزوري في بيان المعاني.

1. الرازي، **مفاتيح الغيب**، 64/13.

والأمر في الحقيقة يحتاج إلى إعمال النظر، إذ الأصل في المنزل من الله الحكيم الإعمال لا الإهمال، ومآل القول بالنسخ هو عين الإبطال، وحري بكل منتسب إلى حوزة العلم أن لا يقول على الله ما لا يعلم، وأن ينأى عن تقليد هذه السلسلة من النقول الملاحظة على غالب التفاسير، إذ ما يمكن تنزيله أو قوله على توالي النقل والتقليد في قضايا النسخ يقال في قضايا أخرى في التفسير، كإيراد الإسرائيليات، أو حديث الغرانيق، أو أقاصيص مكذوبة، أو فهم مغلوط متوارث؛ ذلك أن شأن التفسير خطير، وترك الأباطيل تزاحم الحقائق ليس بالمنهج الرباني ولا العقلي، فالمنهجان معا يلتزمان بطرح ما ليس له أصل ثابت في البنية والتطبيق، وهذا الذي جعل بعض المفسرين يطرحون من حيث العموم مسألة نسخ آيات التهديد بآية السيف، ولعل من أشهرهم لدى المتأخرين صاحب أضواء البيان حيث قال: «وبما ذكرنا تعلم أن التحقيق في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٖ﴾ [الأنعام: 107] وما جرى مجراه من الآيات ليس منسوخًا بآية السيف»[1]، وينضاف إليه بعض المفسرين من المدرسة العقلية.

وثمة اتجاه أشبه ما يكون بالمزج بين القول بالإحكام في آيات المسالمة والموادعة وبين الإقرار بفرضية النسخ، وهو منهج الطوفي في تفسيره الإشارات الإلهية، مع أنه يمتح ممن المدرسة الحنبلية، حيث نراه يستعمل عبارة «محكم وعيدي أو منسوخ بآية السيف»[2]. ولذلك يتوجب إعمال ما أشار إليه السخاوي في الطود الراسخ المنطوي ضمن كتابه جمال القراء حيث قال:

1. الشنقيطي، **أضواء البيان**، 44/7.
2. الطوفي، **الإشارات الإلهية**، دار الكتب العلمية، بيروت، 2005، ص 365.

«فإن قيل: فما تصنع فيما يروى عن السلف - رضي الله عنهم -كابن عباس وغيره؟ فقد أطلقوا على ذلك النسخ. قلت: لم يريدوا بالنسخ ما حددناه به إنما كانوا يسمون ما تغير الأحوال ناسخًا»[1].

ويجدر ذكر قضية الانقطاع أو الضعف الذي تنسب به الأقوال إلى ابن عباس أو غيره من الصحابة، لأن علماء الحديث قد استطردوا في التصنيف في أسماء الرواة وطبقاتهم وأحوالهم جرحًا وتعديلًا، غير أن رجال التفسير لم يحظوا بمثل ذلك التمحيص إعمالًا لمنهج التيسير في النقد في الأحاديث والأخبار التي لا تتعلق بالأحكام تماشيًا مع المأثور عن كبار المحدثين المتقدمين كابن مهدي، وأحمد، أو المتأخرين كالدارقطني والحاكم في التساهل في أخبار التفسير والسير والمغازي. ومع وفرة الكتب التي تسند التفسير إلى ابن عباس وابن مسعود وأبي وأبي موسى وعلي -رضي الله عنهم- فإن السؤال الذي ما يزال تكتنفه غوامض هو ما منهجية دراسة أسانيد التفسير؟ لا سيما أن توهين الرواة من حيث الجملة ينبني عليه رد التأويل، أو الترجيح. والوضع العلمي بحاجة إلى رفع الإشكالات الكثيرة المتعلقة بهذا الموضوع من حيثية استعصاء التصحيح أو التعليل في أسانيد التفسير إذا لم تكن ثمة ضوابط يتحاكم إليها، مع إبراز أحوال الرواة المستكثرين من التفسير عند أئمة التأويل المرفوع والموقوف والمقطوع كالتيمي، يحيى بن سلام، وعبد الرزاق، والطبري، وابن أبي حاتم، وابن المنذر، وابن زمنين، وأبي إسحاق الثعلبي، وغيرهم. وليس ببعيد عقلًا ولا صناعة علمية لو زعمنا أن جزءًا كبيرًا من مشكلة دعاوى النسخ

1. السخاوي، **جمال القراء**، 2/ 706.

سيعالج بعد دراستنا لأسانيد التفسير التي نقلت بها جمهرة من الروايات عن الصحابة والتابعين والمشحونة بهلامية النسخ.

إن هذا الواقع على آية السيف في القرآن يحتاج إلى إزالة شاملة عن طريق نشر الوعي بقواعد التفسير الصحيحة، إذ مشكلة مفهوم آية السيف لا ينحصر في الآية الخامسة من سورة التوبة فحسب، بحيث وقع الخلاف في تحديدها، حتى شمل مصطلح (آية السيف) كل آية فيها القتال في سورة التوبة، وجدير بنا معاشر الكتاب إعلام حملة العلم بالتحقيق الاصطلاحي في مفهوم كل من (النسخ) و(النساء) و(الإنساء) التي صدرنا بها، وهذا ليس بدعًا من القول بل نجد إشارات متناثرة لدى زمرة من المحققين السابقين، نحو ما ذكره الزركشي في البرهان إذ يقول:

وبهذا التحقيق تبين ضعف ما لهج به كثير من المفسرين في الآيات الآمرة بالتخفيف أنها منسوخة بآية السيف وليست كذلك، بل هي من المنسأ، بمعنى أن كل أمر ورد يجب امتثاله في وقت ما لعلة توجب ذلك الحكم ثم ينتقل بانتقال تلك العلة إلى حكم آخر، وليس بنسخ؛ إنما النسخ الإزالة حتى لا يجوز امتثاله أبدًا، وإلى هذا أشار الشافعي في الرسالة إلى النهي عن ادخار لحوم الأضاحي من أجل الدافة، ثم ورد الإذن فيه فلم يجعله منسوخًا، بل من باب زوال الحكم لزوال علته، حتى لو فاجأ أهل ناحية جماعةٌ مضرورون تعلق بأهلها النهي، ومن هذا قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡ﴾ [المائدة: 105] كان ذلك في ابتداء الأمر، فلما قوي الحال وجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر[1].

1. الزركشي، **البرهان**، 42/2.

كما أن ذلك الحيف قد امتد أيضًا عند شرذمة من المفسرين حتى سقطوا في القول بنسخ آيات سورة محمد، فضربوا القرآن بعضه ببعض رغم كون الموضوع واحدًا، بل طغى بعضهم حتى حكم على آية السيف نفسها بالنسخ، زاعمًا أن ناسخها هو الآية الرابعة من سورة محمد، وقد خطأهم الإمام الطبري فقال:

والصواب من القول في ذلك عندي قول من قال: ليس ذلك بمنسوخ، وقد دللنا على أن معنى النسخ هو نفي حكم قد كان ثبت بحكم آخر غيره، ولم تصح حجةٌ بوجوب حكم الله في المشركين بالقتل بكل حال، ثم نسخه بترك قتلهم على أخذ الفداء ولا على وجه المن عليهم. فإذا كان ذلك كذلك فكان الفداء والمن والقتل لم يزل من حكم رسول الله ﷺ فيهم من أول حرب حاربهم، وذلك من يوم بدر، كان معلومًا أن معنى الآية: فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم، وخذوهم للقتل أو المن أو الفداء واحصروهم، وإذا كان ذلك معناه صح ما قلنا في ذلك دون غيره[1].

ولا يخفى أن التفسير من حيث الجملة يخضع للمؤثرات الدنيوية السائدة؛ سواء على الاتجاه العقدي أو الفقهي أو السلوكي أو الأمني، أو غير ذلك؛ على أن تلك الاتجاهات تجعل من المختلف فيه أولى الأرضيات المناسبة لإنبات زرع جديد يتناسب مع الرؤى والاتجاهات الحديثة، حتى يتناغم الطرح التفسيري مع الطرح المناسب لسياقات واقعية يعتريها الكر والفر في ميادين المصالح والمفاسد؛ بحسب ما يتجدد من النوازل التي غالبًا ما تكون مدروسة وفق أهداف قريبة أو بعيدة. ولا بد من التأكيد على أن سيرة الرسول ﷺ هي

1. الطبري، **جامع البيان**، 349/11.

الدليل الصادق في تفسير آيات القتال، حيث بينت أن الأصل هو السلم، وأن الحرب لطارئ دفاعي قد اتفقت كل الأمم على اعتباره أمرًا واجبًا، إذ لم يشرع الجهاد إلا للدفاع عن حوزة المسلمين ضد من يناوئهم العداء والحرب، ولذلك كانت غزوات النبي ﷺ كلها لهذا الغرض، وقد كان آخرها غزوة تبوك التي وقعت بسبب تأهب الروم ومعهم جملة من قبائل العرب الشمالية لغزو المسلمين واستباحة بيضتهم، فكان تجييش النبي ﷺ وتحريضه لتحصين وطنه، ومع ذلك لم يحصل تقاتل لوقوع سنة التدافع وإنذار الروم أن قوة المسلمين لا تبارى. إذ كل مسلم موقنٌ بأن النبي ﷺ كان خلقه القرآن، فلذلك أقول له: أوليس القول بنسخ آيات المسالمة والصفح والعفو والموادعة اتهامًا لهذا النبي الكريم أنه رجلٌ دموي؟! أوليس هو الذي علمنا الحنان وحفظ المواثيق والعهود، وعلمنا بمنهجه التطبيقي لوثيقة المدينة الأنموذج للمدينة الحضارية التي استلهم منها فلاسفة الغرب مدينة الأحلام والشورى والسلم والعدل؟

جدير بنا أن نستمسك بملحظ منطقي في غاية من الإلزام، وهو أن القرآن كل لا يتجزأ، وأن ثبوته بقراءاته بلغ لدى المسلمين العلم اليقيني الذي لا تعتوره ذرة من شك، وما دام الشأن بهذه الدرجة الراسخة من ثبوت النص؛ فإن الدعاوى الزاعمة نسخًا ما هي في الحقيقة محاولاتٌ لزلزلة هذا اليقين المتجذر في قلوب المسلمين، لأنه لا فرق من حيث الجوهر بين من يزعم بأن آية ما ليست من المصحف في شيء وبين من يزعم نسخها، ذلك أن الأصل في القرآن إنما هو العمل، وإبطال معانيه كإبطال ألفاظه، والساعي فيه بالقول بالنسخ أشد فتكًا من الدعاة الدهريين الذين يرمون القرآن بأنه أساطير

الأولين. ولا نزاع في كون دعاوى النسخ مبنية على الظنون، والظن لا يغني من الحق شيئًا، وهو من فروع القول على الله بغير علم، وجميع ذلك من الباطل الذي صرفه الله عن كتابه فقال: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ ۝٤١ لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ﴾. وبمثل هذا التبجيل للنص نسلم من كثير من الأغاليط التي تكدس بها بعض كتب التفسير وعلوم القرآن كقول الزركشي: «قال ابن العربي: ومن أغرب آية في النسخ قوله تعالى: ﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ أولها وآخرها منسوخان ووسطها محكمٌ». وهذا من شؤون العبث والاختلاف والاضطراب التي برأ الله كتابه منها فقال: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَۚ وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا﴾.

ومهما جال فكرنا قصد التفتيش عن بلسم نقطع به دابر الجهل، والتقليد، والدخيل المدسوس، وهشاشة الفكر؛ فلن نجد النجاعة والصفاء إلا في قول النبي ﷺ فيما أخرجه مسلمٌ وغيره من حديث جابر رضي الله عنه: «تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به: كتاب الله»، فما من انحراف عن العدالة في هذه الدنيا إلا وفي كتاب الله تقويمه وإصلاحه، وما من باحث عن الحق والفلاح إلا وفي القرآن إنجاحه، فقد قضى الله إنزاله بالحق المبين، وجاءت رسالته للعالمين، مناديا ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [يونس:57] ذلك أن السكوت عن الحيف الذي طال آية السيف وآيات المسالمة معًا جعل من لوثة تشريع القتل وإباحة الدماء المعصومة تنتقل إلى جملة من الأحكام لدى المسلمين، ذلك أن الفقه الإسلامي خيضت خلاله أحكام المرتد، وأحكام تارك الصلاة، وأحكام

مانعي الزكاة، وزد عليها السارق الذي عاود السرقة، والمدمن لشرب الخمر، والباغي في الطرقات، والفاعل والمفعول به، والنفاق والزندقة، والحكم بغير ما أنزل الله، وسب الدين، وموالاة المناوئين، والاستهزاء بالشرائع، والكهان والسحرة والمنجمين، والخوض في الكلام والإلهيات، وتبني عقيدة ما جهمية كانت أو اعتزالية... وغير ذلك. كل تلك القضايا تفرض على أهل العلم والبيان أن يضعوها على طاولات الحوار قصد إيضاح الأسباب التي أفرزت لنا وجود أحكام إقصائية وداعية إلى استئصال الآخر. ولا تسع هذه الوريقات لإيراد مئات من النماذج التي تنضح بإرادة العدوان مع أن نبينا صح عنه -وهو في حجة الوداع- مخاطبًا المسلمين وغيرهم إعلانًا منه بأسمى أصول الإسلام العملية: «إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم وأبشاركم عليكم حرام، كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا»[1] وفي السياق ذاته قال لهم: لا ترجعوا بعدي ضلالًا يضرب بعضكم رقاب بعض.

كيف لنا معاشر الباحثين والطلاب والعلماء أن نتبجح بتراثنا الفياض بالمرحمة، ونحن نرى هذه القوادح المدسوسة تكدر بهاءه وتغير صفاءه، ولا تنهض هممنا إلا بعد قراءتنا هنا وهناك لبعض المستشرقين أو الحداثيين الناشرين أشكالًا من الشبه راكبين إياها في مقولتهم الشهيرة أن الإسلام انتشر بالسيف. حينئذ تشرئب الأعناق لتتكلف بعض الردود المبنية على وصف عام أو استقراء ناقص لحوادث الفتوحات الإسلامية التي كانت طوعًا وسلمًا ورغبة، وأنى لدين أن ينتشر وهو يكره الناس على اعتناقه، وكأنه غير

1. البخاري، **صحيح البخاري**، كتاب الفتن، باب قول النبي ﷺ «لا ترجعوا بعدي كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض»، رقم الحديث 7078، 50/9.

واثق بأنواره وموافقته للفطر الإنسانية والحضارية؟! ولا يخفى أن فئامًا من المستشرقين اعترفوا بعكس دعوى الآخرين، حيث كتاب قصة الحضارة للفيلسوف ديورانت (William James Durant).

لقد كان أهل الذمة المسيحيون والزرادشتيون واليهود والصابئون يستمتعون في عهد الخلافة الأموية بدرجة من التسامح لا نجد لها نظيرًا في البلاد المسيحية في هذه الأيام. فلقد كانوا أحرارًا في ممارسة شعائر دينهم، واحتفظوا بكنائسهم ومعابدهم، ولم يفرض عليهم أكثر من ارتداء ذي لون خاص، وأداء فرضة على كل شخص، ولم تكن هذه الضريبة تفرض إلا على غير المسلمين القادرين على حمل السلاح، ويعفى منها الرهبان والنساء والذكور الذين هم دون سن البلوغ والشيوخ والأرقاء والعجرة والعمى الشديد والفقر [1].

نعم، لا مناص من غربلة تاريخية لتراثنا من أجل تمييز المدسوسات بقصد سليم أو لئيم، إذ الدخيل قد يكون بأيدي الأعداء، ولطالما وقع بأيدي علماء المسلمين أنفسهم، أعني بذلك غير المحررين لمآلات ما يكتبون، ولا يتحققون من صحة ما ينتجون، وهم ثلة منهم التكرار وحشو الدفاتر بالقيل والقال. وأما الشبه المثارة على سماحة الإسلام فهي شبه متكررة، وقد ذكرها غير واحد منذ القرون الأولى لانتشار الإسلام.

تقول المستشرقة الإيطالية لورا فيتشا فاليري (Laura VecciaVaglieri) في كتابها (دفاع عن الإسلام):

1. ديورانت، **قصة الحضارة**، 131/13.

إن الآية القرآنية التي تشير إلى عالمية الإسلام بوصفه الدين الذي أنزله الله على نبيه ﴿رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ هي نداء مباشر للعالم كله، وهذا دليل ساطع على أن الرسول في يقين كلي أن رسالته مقدرٌ لها أن تعدو حدود الأمة العربية... لقد تجلى أمام عيون العالم المندهش دين جديد، بسيط، سهل؛ يخاطب القلب والعقل جميعًا، وأقيم شكل جديد من أشكال الحكومة كان أسمى إلى حد بعيد - في خصائصه ومبادئه الأخلاقية- من تلك المعروفة في ذلك العصر، وبدأ الذهب الذي كان مخبوءًا في صناديق السراة ينتقل إلى أيدي الفقراء؛ مستهلًا نظامًا من التداول السليم كرة أخرى... وأزعج هذا التحول العميق طائفة من الناس... إنهم لم يستطيعوا أن يدركوا أن القوة الإلهية وحدها كان في ميسورها أن تقدم الحافز الأول لمثل هذه الحركة الواسعة... لقد راح أولئك الناس يشيعون أن جوهر الإسلام كان العدوان العنيف. لقد زعموا أنه كان دينًا فرض بالسيف، ولقد اتهموه باللا تسامح... كانت الحرب ضد الأعداء الخارجين ضرورة من ضرورات العصر... لقد كانت الحرب دائمًا وسيلة لحامية الدين الجديد وتعظيمه؛ لا غاية في ذات نفسها، كانت دفاعًا ضروريًا لا عدوانًا جائرًا وقد عبر القرآن عن هذه الفكرة بأجلى بيان: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾... وكان محمد المتمسك دائمًا بهذه المبادئ الإلهية شديد التسامح وبخاصة نحو أتباع الأديان الموحدة[1].

---

1. فاغليري، **دفاع عن الإسلام**، دار العلم للملايين، بيروت، ط 5، 1981، ص32 و33.

المبحث الثاني: أسباب القنوط من رحمة الله في الفكر المتشدد

يجدر بالمقام استهلاله بالتذكير بالصراع الأبدي بين إبليس وبني آدم، ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [فاطر: 6] إذ كان إبليس أول من بدأ العناد والتطاول على أوامر الله تعالى، وكل صفة في الفكر المتشدد راجعة إلى معنى من معاني الإباء الشيطاني الذي تحركه حرارة الضمير، وكبرياء الغرور، وغليان الحسد، ولا يخفى أن مآل الخوارج بعد المرور من مغبات التشدد، ومطبات التشدق، والرشق باللسان والسنان هو الانخراط في منهج إبليس الذي يحمل لواءه الدجال، بحجة ما روى الأوزاعي، عن نافع، عن ابن عمر، أن رسول الله ﷺ قال: «ينشأ نشءٌ يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم، كلما خرج قرنٌ قطع» قال ابن عمر: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كلما خرج قرنٌ قطع، أكثر من عشرين مرة، حتى يخرج في عراضهم الدجال»[1].

والشريعة والحمد لله سهلةٌ سمحةٌ على الصغير والكبير، والذكر والأنثى، والحر والعبد، كل يسر الله عليه أمر عبادته، ولم يكلفه من العمل فوق طاقته. وقد ورد في الحديث «يسروا ولا تعسروا» وقد ورد أيضًا عنه - عليه الصلاة والسلام - أنه قال «إن الدين يسرٌ ولن يشاد الدين أحدٌ إلا غلبه فسددوا وقاربوا وأبشروا» الحديث أخرجه البخاري. وروى البخاري ومسلمٌ عن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - قال «قدم على رسول الله - ﷺ - بسبي فإذا امرأةٌ

1. ابن ماجه، **سنن ابن ماجه**، باب في ذكر الخوارج، رقم الحديث 174، 61/1.

من السبي تحلب ثديها تسعى إذ وجدت صبيًا في السبي فأخذته فألصقته ببطنها وأرضعته فقال لنا النبي - ﷺ - أترون هذه طارحة ولدها في النار قلنا لا وهي تقدر على أن لا تطرحه فقال الله أرحم بعباده من هذه بولدها»[1].

إن مبدأ التشدد وحقيقته تنطلق من اختيار عبادات شاقة لم يأمر بها الشارع كدوام الصيام والقيام، التبتل وترك التزوج، وأن يلتزم السنن والآداب كالتزام الواجبات وهو حديث نهي النبي ﷺ عبد الله بن عمرو وعثمان ابن مظعون عما قصدًا من العبادات الشاقة وهو قوله ﷺ «لن يشاد الدين أحد إلا غلبه فإذا صار هذا المتعمق أو المتشدد معلم قوم ورئيسهم ظنوا أن هذا أمر الشرع ورضاه، وهذا داء رهبان اليهود والنصارى»[2].

ولطالما كانت مسألة الخوف والرجاء محنة لكثير من المتشبثين بالتعمق في الامتثال للدين، ويقول ابن الوزير في العواصم والقواصم:

وقد اختلف أهل الإسلام في تغليب الخوف أو الرجاء، مع اتفاقهم على حسنهما، وهذا أمرٌ قريبٌ، وقد صح اختلاف الملائكة في حكم الذي رجع إلى الله تعالى بعد قتل مئة نفس، حتى أمر الله ملكًا بالحكم بينهم، فكان الفلج لملائكة الرحمة وكيف لا يكون لهم وإنما رحمتهم جزءٌ يسيرٌ من رحمة الله العظمى الغالبة السابقة التي كتبها على نفسه، ووسعت كل شيء على حد سعة علمه الذي لا يتصور بشيء أوسع منه. وفي حديث خصومة الملائكة عليهم السلام في هذه المسألة الكبرى مأخذٌ حسنٌ في حمل الفريقين على السلامة، وترجيح جانب الرحمة، ورجاء نجاة الجميع برحمة الله، فإن الوعيدية إنما شددوا

---

1. العبدري، ابن الحاج، **المدخل**، دار التراث، بيروت، (د.ت)، 285/4.
2. الدهلوي، **حجة الله البالغة**، 211/1.

على العصاة غضبًا لله تعالى عزوجل، وخوفًا من مفاسد الأمان، كما فعلت ملائكة العذاب. وأهل الرجاء إنما قصدوا عدم القنوط من رحمة الله لسعتها، وتمدحه بذلك، وعظيم غناه، وخوفًا من مفاسد القنوط، وتكذيب البشرى، لا ترك الخوف والترخيص في المعاصي، فلما لم يعنف أحدًا من الطائفتين المختلفتين في ذلك من الملائكة، رجونا مثل ذلك في حقنا إن شاء الله تعالى[1].

ونجد في تاريخ الفرق أن الخوارج «والمعتزلة يقنطون من رحمة ربهم؛ لقولهم في أصحاب الكبائر ما يقولون»[2]. وقد حكى تعالى عن إبراهيم عليه السلام أنه قال: ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾[الحجر:56] وهذا الكلام حق، لأن القنوط من رحمة الله تعالى لا يحصل إلا عند الجهل بأمور: أحدها: أن يجهل كونه تعالى قادرًا عليه، وثانيها: أن يجهل كونه تعالى عالمًا باحتياج ذلك العبد إليه، وثالثها: أن يجهل كونه تعالى منزهًا عن البخل والحاجة والجهل فكل هذه الأمور سببٌ للضلال، فلهذا المعنى قال: ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون[3].

وبعد تتبع جمع من المناهج المتشددة أسفر البحث عن أسباب القنوط من رحمة الله في الفكر المتشدد في النقاط الآتية:

1. النظر المعوج إلى الآيات القرآنية، واضطراب الفهم في المتشابهات، وقد وصفهم ابن عباس كما يروي ربعي، عن ابن طاوس، عن أبيه، عن ابن عباس، «أنه ذكر ما يلقى الخوارج عند القرآن فقال: يؤمنون عند محكمه

---

1. ابن الوزير، **العواصم والقواصم**، 375/9.
2. الماتريدي، **تأويلات أهل السنة**، 449/6.
3. الرازي، **مفاتيح الغيب**، 151/19.

ويهلكون عند متشابهه»[1]. وقال أبو غالب، كنت عند أبي أسامة، فقال له رجلٌ: أرأيت قول الله: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ﴾ [آل عمران: 7] من هؤلاء؟ قال: «هم الخوارج، ثم قال: عليك بالسواد الأعظم، قلت: قد تعلم ما فيهم؟ فقال: عليهم ما حملوا وعليكم ما حملتم وأطيعوا تهتدوا»[2]، «وكان ابن عمر، يراهم شرار خلق الله، وقال: إنهم انطلقوا إلى آيات نزلت في الكفار، فجعلوها على المؤمنين»[3].

2. تصور رب العزة جل وعلا أنه يرحم نوعًا من المسلمين فقط، وهذا تضييق لمفهوم (رب العالمين).

3. التألي على الله مثلما روى «عكرمة بن عمار قال:

أخبرنا ضمضم بن جوس قال: دخلت مسجد المدينة، فناداني شيخٌ، وقال: يا ابن أمي، تعاله، وما أعرفه، قال: لا تقولن لرجل: والله لا يغفر الله لك أبدًا، ولا يدخلك الجنة أبدًا، قلت: ومن أنت؟ يرحمك الله؟ قال: أبو هريرة، قلت: فإن هذه الكلمة يقولها أحدنا لبعض أهله إذا غضب، أو لزوجته، أو لخادمه؟ قال: فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن رجلين كانا في بني إسرائيل متحابين، أحدهما مجتهدٌ في العبادة، والآخر كأنه يقول: مذنبٌ، فجعل يقول: أقصر، أقصر عما أنت فيه، فيقول: خلني وربي، حتى وجده يومًا على ذنب استعظمه، فقال: أقصر، فقال: خلني وربي، أبعثت علي رقيبًا؟ قال: والله

---

1. ابن أبي شيبة، **مصنف ابن أبي شيبة**، رقم الأثر37902، 556/7.
2. المروزي، محمد بن نصر، **السنة**، تحقيق سالم أحمد، مؤسسة الكتب الثقافية بيروت، 1408هـ، رقم الأثر 55، ص 22.
3. البخاري، **صحيح البخاري**، كتاب استتابة المرتدين والمعاندين وقتالهم، باب قتل الخوارج والملحدين بعد إقامة الحجة عليهم، رقم الحديث 6934، 46/9.

لا يغفر الله لك أبدًا، ولا يدخلك الجنة أبدًا، قال: فبعث الله ملكًا فقبض أرواحهما، فاجتمعا عنده، فقال للمذنب: ادخل الجنة برحمتي، وقال للآخر: أتستطيع أن تحظر على عبدي رحمتي؟ قال: لا يا رب، قال: اذهبوا به إلى النار، قال أبو هريرة: والذي نفسي بيده، لتكلم بكلمة أوبقت دنياه وآخرته»[1].

4. وقد ترجم ابن حبان فقال: ذكر الخبر الدال على أن قول المرء: لا يغفر الله لك مما قد يخاف عليه العقوبة، أخبرنا أبو يعلى، حدثنا صالح بن حاتم بن وردان، حدثنا المعتمر بن سليمان، قال: سمعت أبي يحدث عن أبي عمران الجوني عن جندب بن عبد الله البجلي قال: قال رسول الله ﷺ: «قال رجلٌ: والله لا يغفر الله لفلان، فقال الله تبارك وتعالى: قد غفرت لفلان وأحبطت عملك»[2].

5. حصر كثير من المتشددين سيرة النبي ﷺ في الغزوات والأنفال؛ وهذا هضم عظيم لحقه عليه الصلاة والسلام؛ ذلك الحق الذي يصوره القرآن والأخبار والآثار المستفيضة الدالة على إتمامه لكمالات الأخلاق، وقد عرف العالم كله كما يقول مكسيم رودنسن (Maxime Rodinson) أن محمدًا ﷺ «الحاكم المتسامح والحكيم والمشرع»[3]. ونقل العفاني قول ماكس فان برشم (Max van Berchem) في كتابه وامحمداه:

إن محمدًا نبي العرب من أكبر مريدي الخير للإنسانية، إن ظهور محمد للعالم أجمع إنما هو أثر عقل عال وإن افتخرت آسيا بأبنائها، فيحق لها أن تفتخر بهذا الرجل العظيم، إن من الظلم الفادح أن نغمط حق محمد الذي

1. ابن المبارك، **الزهد**،رقم الحديث 900، ص 314.
2. ابن حبان، **صحيح ابن حبان**، رقم الحديث 5711، 19/13.
3. خليل، عماد الدين **قالوا عن الإسلام**، 1992م، ص 122.

جاء من بلاد العرب، وإليهم وهم على ما علمناه من الحقد البغيض قبل بعثته، ثم كيف تبدلت أحوالهم الأخلاقية والاجتماعية والدينية بعد إعلانه النبوة، وبالجملة مهما ازداد المرء اطلاعًا على سيرته ودعوته إلى كل من يرفع من مستوى الإنسان، إنه لا يجوز أن ينسب إلى محمد ما ينقصه، ويدرك أسباب إعجاب الملايين بهذا الرجل، ويعلم سبب محبتهم إياه وتعظيمهم له[1].

6. الاغترار بالأعمال الظاهرة وجعلها شرطًا موجبًا لدخول الجنة.

7. الوقوع في فخ مجموعة من الأحاديث المدسوسة.

8. الاستدلال بوقائع حصلت في سياق زمن ما ثم إسقاطها على الواقع وقياس مثيلاتها عليها لدى أتباع المتشددين؛ فيستمر التقنيط من رحمة الله بتلك الوقائع التي لا علاقة لها بالمحكوم عليه بالتفسيق أو التكفير أو الضلال ونحو ذلك من الأسماء والأحكام.

9. الحكم بآيات عامة دون مخصصاتها.

10. الحكم على الناس بلازم تصرفهم مع أن لازم الشيء ليس بلازم، وإساءة الظن بهم، وقد نبه الإمام المحاسبي على هذا السبب قائلًا:

وأسأت الظن بغيرك فانزلتهم في درجة المسيئين إغفالًا منك لشأنك وتفرغت للنظر في عيوب غيرك، فلما كان ذلك منك كذلك عوقبت بأن غارت عيون الرأفة والرحمة من قلبك وانفجرت إليه أنهار الغلظة والقسوة فأحببت أن تنظر الى الناس بالإزراء عليهم والاحتقار لهم وقلة الرحمة وأردت أن ينظروا إليك بالتعظيم والمهابة والرحمة فمن وافقك منهم على ذلك نال منك قربًا ومحبة ونلت أنت من الله تعالى بعدًا وسخطًا ومن خالفك فيه ازداد

1. العفاني، سيد بن حسين، **وامحمداه إن شانئك هو الأبتر**، دار العفاني، القاهرة، 2006، 379/4.

منك بعدًا وبغضًا وازددت أنت من الله بعدًا وسخطًا، وأطلت في ذلك كله أملك فطاب لك المسير في طريق التسويف ومدارج الحيرات فاشتدت رغبة نفسك واستمكن الحرص من قلبك فعظمت لذلك في الدنيا رغبتك وشحت فجمحت الى شهواتها واحتوشت قلبك لذاتها فحال ذلك بينك وبين أن تجد حلاوة سلوك طريق الآخرة[1].

11. الاقتناع بنتيجة التقاذف بين المذاهب العقدية والفكرية فيسفر ذلك عن الإيمان الجازم بأن فلانًا في النار وآخر ملعون؛ مما يذكي فتنة القول بعدم التراحم، أو عدم استحقاق ذلك المتهم رحمة الله.

12. التعطش لتضخيم مجموعة من المصطلحات التي ولدها تاريخ الصراع بين الجماعات، مثل مصطلح: (الإرجاء) (التمييع) (الزندقة) (الواقفة) (الفلسفة) (علم الكلام) (الميتافيزيقيا)، (الوحي المنسوخ)، (الطائفة المنصورة) وممن كان شديدًا مع هذه المصطلحات صاحب كتاب ظاهرة الإرجاء في مواضع عدة منه، فنجده يقول سفر الحوالي مثلًا:

فهذا الموقف يرسم منهج التعامل مع الوحي المنسوخ، فكيف بالفكر البشري المحض الذي سماه الله تعالى (هوى وظنًا وخرصًا وإفكًا)، وهي كلها أسماء يدخل في مسماها دخولًا أوليًا ما يسمى الفلسفة الميتافيزيقية وما تفرع عنها. وحسبك أن الله تعالى قال: ﴿مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ خَلۡقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَا خَلۡقَ أَنفُسِهِمۡ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلۡمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾[الكهف: 51]. فهذه الآية نسفت كل النظريات والفلسفات المخالفة للوحي - الكوني منها والإنساني - ووسمت أصحابها باسم (المضلين)، وما كانوا دائمًا إلا كذلك! وعلى هذا المنهج سار عمر

1. المحاسبي، **آداب النفوس**، دار الجيل، بيروت، (د.ت)، ص 88.

بن الخطاب - نفسه - فإنه لما فتحت أرض فارس ووجدوا فيها كتبًا كثيرة، كتب سعد بن أبي وقاص إلى عمر بن الخطاب ليستأذن في شأنها وتنقيلها للمسلمين، فكتب إليه عمر أن اطرحوها في الماء، فإن يكن ما فيها هدى فقد هدانا الله بأهدى منه، وإن يكن ضلالًا فقد كفانا الله! فطرحوها في الماء أو في النار». وعليه كذلك كان موقف أئمة الإسلام وعلماء الملة، كالأئمة الأربعة ووكيع وابن المبارك والسفيانين والفضيل، وغيرهم ممن سبقهم أو لحقهم. وعلى هذا ثبتت الطائفة المنصورة «أهل السنة والجماعة» في كل العصور، فقد تعرضت كتب الفلسفة والمنطق للحرق والمصادرة في عصور متعاقبة، ولاحقها علماء الإسلام بالفتاوى المدمرة، حتى إن كتب الفقه سطرت أن الوقف إذا وقف على طلبة العلم لا يدخل فيه أصحاب الكلام[1].

ويقول في كتاب أعمال القلوب: «الطائفة المنصورة تدعو وتأمر وتنهى وتجاهد، فمن خذلهم فليس منهم، ومن قاتلهم فهذا عدوهم، ومن المستحيل أن يكون منهم»[2].

13. محاولة تقمص شخصية تاريخية مضت لدى فئة من الشباب.

14. عدم فهم أحاديث أشراط الساعة والملاحم والفتن: مثلما حصل في حادثة جهيمان، ووثق ذلك عدد ممن رأى أولئك المتشددين، وأن رسالة جهيمان ارتبطت بعدم فهم أحاديث الفتن وأشراط الساعة، نحو تناوله لموضوع «الملك الجبري، والخلافة على منهاج النبوة، كتمهيد لمشروع مستقبلي تناوله بحتمية نصية لا شك فيها وهو بيعة المهدي المنتظر»[3].

---

1. الحوالي، سفر، **ظاهرة الإرجاء في الفكر الإسلامي**، دار الكلمة، 1999، ص 289.
2. الحوالي، سفر، **أعمال القلوب**، 2013، ص 371
3. الحازمي، ناصر، **أيام مع جهيمان**، بيروت، ط 2، 2011م، ص 111.

واستغلال مسألة الحكم الجبري مايزال مستمرًا في كتابات عدد من المتشددين مثل ما ورد في كتاب المسلمون والحضارة الغربية: «والملك الجبري - بأي اسم تسمى- واقع، ويجب على الأمة الاجتهاد في الحد من جبروت أهله بالمناصحة والاحتساب، ورفض طاعتهم في المعصية، واعتزالهم، وبأي وسيلة ممكنة»[1].

15. الانشغال بذم الدنيا بدل السعي في العمل وعمارة الأرض؛ مما يسفر عن كره للحياة والنظرة السوداوية للناس قاطبة.

16. عدم فهم فقه إنكار المنكر والارتماء على الحسبة دون اكتساب خبرتها، مما ينتج تكرار التصادم مع المجتمع فيتحول منكر المنكر إلى مسبب لوجود المنكر والعناد والصراع وفقدان الرحمة.

17. النظر إلى مجموعة من القضايا الخلافية أنه يجب الإنكار فيها؛ مع أن فاعلها يفعلها من باب الإباحة أو الندب أو حتى تقربًا إلى الله تعالى، فلا محيص من تقرير أن يكون المنكر في مذهب فاعله، وقد ذكر الفقهاء مجموعة من الشروط. ويقول ابن عائم النفراوي في فواكه الدواني:

أحدها: أن يكون عالمًا بالمعروف والمنكر، فمن لا معرفة له بالمعروف ولا المنكر لا يأمر ولا ينهى. وثانيها: أن يأمن أن يؤدي إنكاره إلى منكر أكبر منه، وإلا لم يجز له أمرٌ ولا نهيٌ. وثالثها: أن يعلم أو يغلب على ظنه الإفادة، وإلا لم يجب عليه أمرٌ ولا نهيٌ، فالأولان للجواز والثالث للوجوب. ورابعها:

1. الحوالي، سفر، **المسلمون والحضارة الغربية**، الطبعة الوحيدة في الإنترنت، متاح على الرابط، https://www.jihadica.com /wp-content/uploads/201901//al-muslimun-wal-hadara-al-gharbiyya.pdf ص939.

أن يكون المنكر ظاهرًا بحيث لا يتوقف على تجسس، ولا استراق سمع، ولا بحث بوجه كتفتيش دار أو ثوبه لحرمة السعي في ذلك. وخامسها: أن يكون المنكر مجمعًا على تحريمه أو يكون مدرك عدم التحريم فيه ضعيفًا كالنبيذ، فإن الحنفي يقول بحله فمن فعل المختلف في تحريمه فإن كان مذهبه التحريم أنكر عليه إلا أن يدعي تقليد من يقول بعدم الحرمة فلا ينكر عليه[1].

وقد نص الجويني على أنه لا ينكر في مسائل الخلاف فقال:

ليس للمجتهد أن يعترض بالردع والزجر على مجتهد آخر في موضع الخلاف، إذ كل مجتهد في الفروع مصيب عندنا. ومن قال إن المصيب واحد؛ فهو غير متعين عنده، فيمتنع زجر أحد المجتهدين الآخر على المذهبين[2].

18. تنزيل أحاديث الوعيد على الناس ونسيان أن وقوعها تحت المشيئة؛ إذ الله يغفر ويصفح ولا مكره له على تنفيذ وعيده؛ خلافًا لأحاديث الوعد فإن الله كريم وأخباره واقعة صادقة.

19. التعصب لمذهب معين ورؤية الناس وفق معيار ذلك المذهب.

20. الانخراط في منظمات تتكسب بالفتن والحروب، وتستغل فراغ الشباب لملء قلوبهم بكراهية العالم، وأن الجنة هي مقصد الله من الخلق، وأن

1. النفراوي، ابن غانم، **الفواكه الدواني على رسالة ابن أبي زيد القيرواني**، دار الفكر، (د.ط)، 1995، 299/2.

2. الجويني، **كتاب الإرشاد**، تحقيق محمد يوسف موسى وعلي عبد المنعم عبد الحميد، مكتبة الخانجي، مصر، 1950، ص 369.

الوصول إليها وإلى الحور العين لا يكون إلا في الحروب، وسفك الدماء والاستشهاد.

21. خضوع بعض الناس للتصورات السوداوية التي تشبعوا بها من لدن رؤساء جماعاتهم، فلو أخذنا مثلًا ما تصوره جماعة الإخوان لأتباعها عن أوضاع العالم وتحاول تعبئة الشباب به لوجدنا ذلك محصورًا في بوتقة اليأس والحزن لأن الأصل عندهم في نشأة الجماعة في مصر. ويقول ريتشارد ميتشل في كتابه أيديولوجية جماعة الإخوان:

أن صورة مصر لدى الإخوان صورة تبعث على الحزن. فاللامبالاة الدينية والاستعمار عملًا معًا على ترك مصر في حالة نفسية منهارة أوقعتها فريسة لليأس القاتل والكسل المميت والجبن المزري والخنوع الشديد والبخل والأنانية[1].

22. عدم فهم علة وجود الشر، وقد قربها إلى الأذهان بعض علماء النفس من المسلمين إذ يقول المحاسبي:

واعلم أن الشر شهوة والخير كراهية والشهوة سابقة على الكراهية وغالبة عليها حتى يجيء العلم والصدق فيزيلان الشهوة ويجعلان الكراهة مكانها فمن لم يفقه ولم يفهم هذا حين يسمعه لم يحسن مراجعة سريرته ولا يجيء على إصلاحها حتى يتعلمه ممن يحسنه ويحسن وصفه[2].

---

1. ميتشل، ريتشارد، **أيديولوجية جماعة الإخوان المسلمين** (ترجمة: عبد السلام رضوان ومنى أنيس)، مكتبة مدبولي، القاهرة، (د.ت)، ص 132.
2. المحاسبي، **آداب النفوس**، ص 126.

23. وجود مجموعة من المراجع المتعلقة بالفتاوى الخاصة والتي يصيرها كثير من الطلبة مرجعية للعمل بما فيها من الأحكام والفتاوى، رغم أن الفتوى يحكمها سياقها الخاص.

24. الإصرار على أنه لا سبيل للسعادة إلا من طريق السياسة، وهذا خطأ عظيم وقع فيه كثير من الكتاب والدعاة المتأثرين بالمنهج المتشدد، مثل صاحب كتاب الحرية أو الطوفان الذي قال:

إن ما تعيشه الأمة اليوم من انحطاط وتخلف هو نتيجة طبيعية للانحراف الذي طرأ على الخطاب السياسي الشرعي؛ الذي جرد الأمة باسم الدين والسنة من حقها في اختيار السلطة ومحاسبتها ومقاومة طغيانها وانحرافها، وإصلاحها عند فسادها، حتى شاع الظلم والاستبداد، وظهر الفساد، فكانت النتيجة الهلاك[1].

25. التأثر ببعض الأفكار الفلسفية الكارهة للحياة والمتشائمة من البشر والمؤمنة بالعمل للشر، والداعية للإلحاد، ويقول زيجريد في كتابه الله ليس كذلك:

إن تلك الأحكام المستقرة المستهلكة لا زالت تتغذ ى على عدد لا حصر له من المغالطات وليدة سوء الفهم، ومن الصورة الدينية الظالمة للخصم، ومن المعلومات الخاطئة المنحازة، ومن الإساءة المشوهة عمدًا وقصدًا في المعرفة نقصًا مبينًا[2].

---

1. المطيري، حاكم عبيسان، **الحرية أو الطوفان**، 2003، ص 319.
2. كونكه، زيجريد، **الله ليس كذلك** (ترجمة: غريب محمد غريب)، 1996، ص 26.

26. التلبيس على الشباب لإفقادهم الرحمة عن طريق استرجاع الخلافة المزعومة بواسطة الانخراط في جماعات إرهابية تخدم أجندات معينة ولها إيديولوجيات خطيرة، مثل كثيرمن الشباب الذين ارتموا في شباك داعش «فالتنظيم يخاطب الشباب السني حول العالم ممن يبدون اهتمامًا بوضعهم وبهوياتهم... ويقدون لهم استعادة الخلافة الضائعة، التي لا تزال تمسك بأخيلة إسلاميين يرون فيها أداة الخلاص مما هم فيه»[1].

27. تصنيف كتب مليئة بالتخويف والترهيب وذكر العقوبات؛ فتنتشر بين الناس حتى أضحت صورة المسلم عند فئام من الناس هو ذلك الشخص الحزين الكئيب البعيد كل البعد عن السعادة والرحمة. ويقول عماد الدين خليل:

وغدا الإنسان الديني يعيش أزمة عنيفة، فهو لم يستطع أن يتوحد مع ذاته، ففعالياته الروحية غير منسجمة ولا منسقة مع ممارساته الدنيوية، كما أنه لم يستطع أن يتوحد مع مصيره، إذ كان يشده مصيران: مصير الدنيا ومصير الآخرة. إنسان موزع بكل معنى الكلمة. وقد أصبح عليه أن يختار أحد المصيرين لأنه فهم أن التناقض بينهما عميق، بعيد الأغوار، لا مجال معه للتوافق والانسجام. وإذا رأى في الدنيا عرضًا زائلًا، وفي الآخرة حياة خالدة، فقد ضحى بمصيره الأول في سبيل المصير الآخر، وركز فعاليته ونشاطه جميعًا ليشد ذاته بهذا المصير. وهذا هو الذي يفسر لنا انتشار (الرهبانية) كنظام للحياة بعد فترة قصيرة من ظهور المسيحية، وكانت نتيجة ذلك كله أن غدا

1. جرجس، فواز، **داعش إلى أين؟** (ترجمة: محمد شيا)، 2016، ص 54.

الإنسان الديني إنسانًا سلبيًّا، وأصبح الدين نفسه قيمة سالبة، وتبلورت القطيعة المرة بين الالتزام الديني والعطاء الحضاري.[1]

28. عدم فهم مقصود الدين من قضية الولاء والبراء، وتحويل ذلك إلى وسيلة لضخ الكراهية والنقمة والمقت إلى صدور الناس، بدل السعي لبث اللطف والرحمة والبر كما أمر الله تعالى ﴿وَأَقْسِطُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات: 9] ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة: 8] ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة: 83].

29. قد يكون فقدان الرحمة ناجمًا عن مرض نفسي للمتشدد إما بسبب محيطه الذي يعاني من الفقر غالبًا، أو من أزمات نفسية، حتى إن مجموعة من علماء الغرب فهموا ذلك ويقول ريتشارد هرير دكمجيان في كتابه الأصولية في العالم العربي:

من المستحيل أن نفهم فهمًا صحيحًا الظاهرة الإسلامية دون أن نحدد تركيب شخصية الفرد الأصولي، كما تشكلها بيئة الأزمة، وعلى أساس من النظرية النفسية والاجتماعية، وبمساعدة الملاحظة التجريبية؛ يمكن أن نكون صورة عن تركيب شخصية (المؤمن الحق) وتفيدنا كثيرًا في هذا السياق الصيغ التي قدمها (إريكسون) و(لاسويل) و(إنكلز) و(دور كايم) و(أدورنو) و(هوفر) و(ريسمان)، على الرغم من أنها ليست متلائمة تمامًا لتفسير الملامح الخاصة للأصولي المتطرف (المتعصب)...[2]

---

1. خليل، عماد الدين، **تهافت العلمانية**، 2008، ص 83.

2. دكمجيان، ريتشارد هرير، **الأصولية في العالم العربي** (ترجمة: عبد الوارث سعيد)، 1989، ص 62.

وأضاف ريتشارد بأنها تضمن هذه الملامح:

- العزلة...
- الاكتمال قبل الأوان- التعصب...
- الدونية - الاستعلاء...
- الحركية - العدوانية...
- الفاشية...
- عدم التسامح... مما يعكس اعتقادهم أن الله لا يغفر الذنوب.
- الارتيابية - الإسقاط...
- نظرة تآمرية...
- المثالية - الإحساس بالواجب...
- القسوة - الجرأة[1].

30. حب العنف وعدم الرحمة بعد الفشل في تحقيق الذات، ويقول كولن ولسون:

وهو تحقيق أن يكون محبوبًا، وموضع إعجاب الآخرين، وإشباع الاحتياج إلى تحقيق الذات، وتقدير المحيطين به. ومن الواضح أنه إذا تحققت كل الاحتياجات السابقة وأشبعت، فإن تحقيق الذات كاحتياج يتطور بلا عائق (بالرغم من أن أغلب البشر لا يصلون إلى ذلك المستوى من الاحتياجات، فقد توصل (ماسلوا) إلى أن أكثر الناس لا يتجاوزون المستوى الرابع[2].

1. دكمجيان، **الأصولية في العالم العربي**، ص 62.
2. ولسون، كولن، **التاريخ الإجرامي للجنس البشري سيكولوجية العنف** (ترجمة: رفعت السيد علي)، حور الثقافة، القاهرة، 2001م، ص 21.

31. ولا يخفى أن من ضمن المتشددين جماعات كثيرة راديكالية، بل كثير من عبدة الشياطين يتبنون العنف ويكرهون الرحمة، ولذلك دعا الله في القرآن إلى السلم الاجتماعي باعتبار أن الشيطان ضد وجود التعايش والسلم العالمي فقال جل شأنه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدْخُلُواْ فِي ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [البقرة: 208]، ويقول زكريا عبد الرزاق:

فالشيطان يسعى إلى إبطال هذه الكلمة الشرعية في حياة البشر ليوصلهم بذلك إلى التصادم بين فطرتهم التي جاءت الشرائع السماوية لتعين على بقائها سليمة فيهم، وبين سلوكهم الذي يسعى الشيطان إلى إفساده عليهم كي يضلوا عن طريق الجنة. ومعلوم أن التصادم ينشأ عنه خراب ودمار سواء في عالم الماديات أو في عالم المعنويات، فإذا تصادمت الفطرة في نفس الإنسان مع سلوكه نتج عنه الاضطراب النفسي والشقاء المعنوي، بينما الانسجام بين الفطرة البشرية والسلوك الإنساني يؤدي إلى الأمن والسلامة كما قال تعالى: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ۝١٢٣ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾ [طه: 123، 124][1].

32. الانصياع للتوجيه الإعلامي والوقوع في فخ الأفلام والمنتوجات المفبركة التي تكره الناس في الحياة وتقنطهم من الرحمة وتزرع في الشباب فقدان الأمل وانتهاء الخير، وهذا السبب قد امتلأت به كثير من القنوات الفضائية، والبرامج التلفزيونية، بل إن اليوتيوب يكتظ بالنظرة التآمرية على الأمة ويدعو من خلاله عدد من محبي الشهرة إلى إنتاج ما يدعو الشباب إلى مقت الدنيا، وذم الدهر، واقتراب حلول الدمار الشامل.

1. عبد الرزاق، زكريا، **الدين الإلهي ضرورة الالتزام به وخطورة الانحراف عنه علم الأديان المقارن**، دار لبنان للطباعة والنشر، لبنان،، بيروت، 2012، ص 179.

وهذا لعمري خلاف ما يدعو إليه كتاب الله تعالى، حتى وجدنا القرآن قد عالج هذه النظرة فقال: ﴿وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدۡرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ٩٧ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ٩٨ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ﴾ [الحجر: 97 - 99] ﴿وَهُمۡ يَنۡهَوۡنَ عَنۡهُ وَيَنۡـَٔوۡنَ عَنۡهُۖ وَإِن يُهۡلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ﴾ [الأنعام: 26]، وأما ما ينشر ويذاع فقال تعالى﴿وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ﴾ [آل عمران: 104]، وليس من الخير تقنيط الناس بمنتوجات إعلامية تتسبب في كره العمل والسعي لعمارة الأرض، ﴿وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ﴾ [الأعراف: 188] ﴿وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [الحج: 77].

وقد نبه الله جل شأنه أن الإنسان ميال إلى الخير وأن الشر يجعله قنوطًا ولذلك وجب نشر الخير والكف عن بث ما يقنط الناس ﴿ لَّا يَسۡـَٔمُ ٱلۡإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلۡخَيۡرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٞ قَنُوطٞ﴾ [فصلت: 49] ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسٗا﴾ [الإسراء: 83] ﴿إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعٗا﴾ [المعارج: 20] وجعل من الصفات المذمومة إذاعة الخوف ﴿وَإِذَا جَآءَهُمۡ أَمۡرٞ مِّنَ ٱلۡأَمۡنِ أَوِ ٱلۡخَوۡفِ أَذَاعُواْ بِهِۦۖ وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡۗ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ لَٱتَّبَعۡتُمُ ٱلشَّيۡطَٰنَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ [النساء: 83].

33. وأحيانًا يكون العنف وعدم الرحمة قضية عرفية ناشئة من تجذر مفهوم الثأر في المجتمع. وفي نظر بعض علماء النفس، مثل رينيه جيرار يقول:

تبقى الطرق العلاجية في المجتمعات البدائية من التخلف بحيث لا تعدو في نظرنا أن تكون محاولات عشوائية للاهتداء إلى نظام قضائي، نظرًا إلى فائدتها البراغماتية الواضحة والتي لا يتركز فيها الاهتمام على الجاني بقدر ما ينصب على الضحايا التي لم يثأر لها. هذه الأخيرة هي مصدر الخطر المباشر،

ومن الضروري إرضاؤها على نحو معتدل كل الاعتدال يهدئ رغبتها في الثأر من غير أن يؤججها في أماكن أخرى. وأما المطلوب في هذه الحالة إصدار تشريعات بشأن الخير والشر، ولا فرض احترام عدالة مجردة، بل حماية أمن الجماعة بقطع دابر الثأر، وأفضل سبيل إلى ذلك هو المصالحة المبنية على التحالف. وأما إذا استحال التوفيق بين الخصوم؛ فلا مندوحة من تنظيم اشتباك مسلح على نحو لا يسمح للعنف بالامتداد إلى الأمكنة المجاورة، اشتباك واحد لا غير، يدور في حلبة مقفلة طبقًا للأصول[1].

غير أن المنهج القرآني هو دفع الشر بالخير ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: 34، 35].

34. الاقتناع ببعض النظريات الفلسفية المتشائمة التي جددت فلسفة التألم، كقول نيتشه: «إن الدين وأهمية الحياة الدينية يضيفان بريقًا نيّرًا على أولئك البشر المعذبين أبدًا ويمكنانهم من تحمل منظرهم الخاص، وتأثيرهما أشبه بالتأثير الذي لفلسفة أبيقورية عادة على متألمين من رتبة أعلى. إنه ينعش ويصقل ويستغل الآلام، إن صح التعبير، بل يقدسها ويبررها آخر الأمر أيضًا. وربما لا يوجد في المسيحية والبوذية أمر أكثر مهابة من فنهما في تعليم حتى أوضع إنسان كيف يضع نفسه، بفضل التبتل، ضمن نظام للأشياء ظاهري وسامق، وكيف يتعلق تاليًا بالرضا عن النظام الفعلي الذي يعيش فيه حياة قاسية جدًا»[2].

---

1. جيرار، رينيه، **العنف والمقدس** (ترجمة: سميرة ريشا)، 2009، ص 49.
2. فريدريك، نيتشه، **ما وراء الخير والشر** (ترجمة:جيزيلا فالور)، دار الفارابي،بيروت، 2003، ص 96.

المبحث الثالث: نظرة الرسالة القرآنية إلى ميزان أعمال القلب وما يترتب عليها من السلوك

ثمة جمهرة من المصنفات عنيت بأعمال القلوب تنيف على المئين بين مطبوع ومخطوط؛ إذ القلب هو المحرك للأطراف أن تنصاع، والباعث على الإخلاص، وهو بؤرة الفيوض الإيمانية، والبشائر الروحانية، وما من ثمرة من ثمار الرحمات المبثوثة بين الخلق إلا ومنبتها تلك المضغة التي إذا صلحت صلح الجسد كله.

وتلك المضغة لا بد لها من صلاح مسبق، ويا حبذا أن ينتشر في الناس أنه لا سبيل إلى صلاح القلب إلا بماء الرحمة، وطينة الرأفة، وشجر الود، وقد أكد المحاسبي على ذلك إذ قال: «وصلاح القلب الرأفة والرقة وفساد القلب القسوة والغلظة»[1]. «وسلطان المعرفة والعقل والعلم والفهم والحفظ والذهن في الصدر، وجعل المعرفة في القلب، والفهم في الفؤاد، والعقل في الدماغ والحفظ قرينه»[2].

ثم إن الحياة البشرية لا تستقيم ما لم يرتبط البشر بخالقهم ارتباط الطاعة والخضوع والتلقي منه، وتطبيق شرعه في حياتهم، فمن أجل ذلك أرسل الله الرسل، وأنزل معهم الكتب، لتكون منهاجًا للبشرية يملي أحكامه عليهم من خلالها، ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ

1. المحاسبي **آداب النفوس**، ص 153.
2. الترمذي، الحكيم، **رياضة النفس**، دار الكتب العلمية، بيروت، 2005، ص 33.

لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَأَنزَلۡنَا ٱلۡحَدِيدَ فِيهِ بَأۡسٞ شَدِيدٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ﴾ [الحديد: 25] «**ولكي تؤتي** العبادة ثمرتها في النفوس كما أرادها الله تعالى فتطهرها وتسمو بها، وتصلها بربها، وتجعل صاحبها يعيش حلاوة الإيمان ويحس بها تملأ نفسه وقلبه؛ ينبغي ألا يفهمها الإنسان أو يمارسها على أنها شعائر جافة جامدة كأنها نظريات هندسية أو كيميائية، وإنما ينبغي أن يفهمها أو يمارسها شفافة مشرقة -كما هي في حقيقتها- تلقي ظلالها الرائعة في النفس فتنقلها من أوحال الأرض إلى أنوار السماء موصولة بكتاب الله وسنة رسوله، وسير الصالحين من عباد الله، وأن تعرف وتحس أسرارها، وتظهر آثارها في سعادة الإنسان في دنياه وأخراه. ولكي تؤتي العبادات ثمرتها في النفوس أيضًا ينبغي أن يفهم العابد أنها ليست أشكالًا وطقوسًا ورسومًا خالية من الروح، بل هي في حقيقتها روح تنبض بالحياة وتفيض على صاحبها بألوان التأثير التي تجعل العبد موصولًا بالله على الدوام ينعم بحبه ويأنس بقربه، ويفرح لمناجاته؛ يحس به قريبًا، ويأنس به حبيبًا، ومثل هذا التفاعل مع العبادات له أكبر الأثر في إصلاح نفسه وسلوكه وحبه لإخوانه، وذوبانه في مجتمعه، وبذلك تنشئ العبادة في المجتمع وحدة التماسك بين أفراده[1].

وهذا التماسك والتراحم والتحاب هو مقصود القرآن، وثمرة كافة التشريعات، بل يجب أن تبنى عليه الفتوى التي لطالما كانت سببًا لاستصدار ما ينكد على الناس معايشهم، ويقول الغزالي في ذلك:

---

1. الصميدعي، محمود، **منهج القرآن في تحصين الأمة من الفرقة والاختلاف**، مركز البحوث والدراسات الإسلامية، ديوان الوقف السني، جمهورية العراق، 2007م، ص 241.

إذ في الرفق والنظر بعين الرحمة إلى الخلق نوع من التواضع، وفي العنف والإعراض نوع من الزجر، والمستفتى فيه القلب فما يراه أميل إلى هواه ومقتضى طبعه فالأولى ضده إذ قد يكون استخفافه وعنفه عن كبر وعجب والتذاذ بإظهار العلو والإذلال بالصلاح، وقد يكون رفقه عن مداهنة واستمالة قلب للوصول به إلى غرض أو الخوف من تأثير وحشته ونفرته في جاه أو مال بظن قريب أو بعيد وكل ذلك مردد على إشارات الشيطان وبعيد عن أعمال أهل الآخرة. وكل راغب في أعمال الدين مجتهد مع نفسه في التفتيش عن هذه الدقائق ومراقبة هذه الأحوال والقلب هو المفتى فيه وقد يصيب الحق في اجتهاده وقد يخطئ وقد يقدم على اتباع هواه وهو عالم به وقد يقدم وهو بحكم الغرور ظان أنه عامل لله وسالك طريق الآخرة[1].

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»[2]. وهذا حديثٌ عظيمٌ يترتب عليه ألا يقطع بعيب أحد لما يرى عليه من صور أعمال الطاعة أو المخالفة، فلعل من يحافظ على الأعمال الظاهرة يعلم الله من قلبه وصفًا مذمومًا لا تصح معه تلك الأعمال. ولعل من رأينا عليه تفريطًا أو معصية يعلم الله من قلبه وصفًا محمودًا يغفر له بسببه. فالأعمال أماراتٌ ظنيةٌ لا أدلة قطعية. ويترتب عليها عدم الغلو في تعظيم من رأينا عليه أفعالًا صالحة، وعدم

1. الغزالي، **إحياء علوم الدين**، 170/2.
2. مسلم، **صحيح مسلم**، كتاب البر والصلة والآداب، رقم الحديث 2564، 1987/4.

الاحتقار لمسلم رأينا عليه أفعالًا سيئة. بل تحتقر وتذم تلك الحالة السيئة، لا تلك الذات المسيئة. فتدبر هذا، فإنه نظرٌ دقيقٌ»[1].

وقد ربط النبي ﷺ بين مفهوم الرحمة وسلوكيات البشر، فقد جاء عند ابن حبان عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة، قالت: جاء أعرابي إلى النبي ﷺ، فقال: أتقبلون الصبيان؟ فما نقبلهم، فقال رسول الله ﷺ:«وما أملك لك أن نزع الله الرحمة من قلبك»[2]، وعند أحمد أن عروة بن الزبير، قال: إن رسول الله ﷺ قبَّل حسينًا وضمه إليه وجعل يشمه وعنده رجلٌ من الأنصار، فقال الأنصاري: إن لي ابنًا قد بلغ ما قبلته قط، فقال رسول الله ﷺ: «أرأيت إن كان الله نزع الرحمة من قلبك، فما ذنبي؟»[3]. وعن أبي عثمان، أن عيينة بن حصن قال لعمر ورآه يقبل بعض ولده، فقال: أتقبل وأنت أمير المؤمنين؟ لو كنت أمير المؤمنين ما قبلت لي ولدًا، فقال عمر: «الله الله؟» حتى استحلفه ثلاثًا، فقال عمر: «فما أصنع إن كان الله نزع الرحمة من قلبك، إن الله إنما يرحم من عباده الرحماء»[4].

ثم إن نزع الرحمة من القلب هو الزيغ الذي ذكره الله تعالى في قوله: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: 8] ومن اللافت للنظر توظيف النبي صلى الله عليه ولسلم الإشارة إلى تقلب القلب في حلفه، فقد روى البخاري وغيره عن ابن عمر قال: «أكثر ما

---

1. القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، 327/16.
2. ابن حبان، **صحيح ابن حبان**،رقم الحديث 5595، 407/12.
3. أحمد، **فضائل الصحابة**، تحقيق وصي الله محمد عباس، 1983م، رقم الحديث 1356، 2 /769.
4. معمر، **جامع معمر بن راشد**، المجلس العلمي، الهند، 1983م، رقم الحديث 20590، 299/11.

كان النبي ﷺ يحلف: «لا ومقلب القلوب»[1]. «هذه يمين إذا لهج بها الإنسان كانت مذكرة له بما يخافه من تقليب قلبه إلى الكفر، وإلى المعصية عن الطاعة، فإنه قد تتقلب القلوب فكأنه تارة مع الملائكة وتارة مع الشياطين، وينبغي أن لا ييأس الإنسان من تقليب قلبه إلى الحق بعد أن أغرق في الباطل، ولا يأمن من انقلاب قلبه عن الحق إلى إيثار الضلال؛ وإن استمرت منه الاستقامة»[2]. «وكان فعل الله ذلك عدلًا فيمن أضله وخذله؛ لأنه لم يمنعهم حقًا وجب عليه فتزول صفة العدل، وإنما منعهم ما كان له أن يتفضل به عليهم، لا ما وجب لهم وأضلهم: لأنهم ملك من ملكه خلقهم على إرادته، لا على إرادتهم، فكان ما خلق فيهم من قوة الهداية والتوفيق على وجه الفضل»[3].

ولا شك أن الرسالة القرآنية في متعلقات القلب من الأعمال قد عنيت بالقلب الرحيم في مواضع عدة، وحذرت من القلب الجبار المتكبر، حيث وصف الصالحين بامتلاكهم للقلب السليم والمنيب ﴿وَلَا تُخۡزِنِي يَوۡمَ يُبۡعَثُونَ ٨٧ يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ ٨٨ إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ﴾ [الشعراء: 87 - 89]

﴿مَّنۡ خَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِ وَجَآءَ بِقَلۡبٖ مُّنِيبٍ ٣٣ ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٖۖ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡخُلُودِ ٣٤ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيۡنَا مَزِيدٞ﴾ [ق: 33 - 35] وأصحاب القلوب الرحيمة هم الذين تتزكى أعمالهم وتتنزل السكينة عليهم، ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِيمَٰنٗا مَّعَ

---

1. البخاري، **صحيح البخاري**، كتاب التوحيد، باب مقلب القلوب، رقم الحديث 7391، 118/9.
2. ابن هبيرة، **الإفصاح**، 212/4.
3. ابن بطال، **شرح صحيح البخاري**، 324/10.

إِيمَٰنِهِمۡۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الفتح: 4] ﴿وَجَعَلۡنَا فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأۡفَةٗ وَرَحۡمَةٗۚ﴾ [الحديد: 27] ﴿لَّقَدۡ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ يُبَايِعُونَكَ تَحۡتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيۡهِمۡ وَأَثَٰبَهُمۡ فَتۡحٗا قَرِيبٗا﴾ [الفتح: 18].

إن للإنسان بدنًا وقلبًا، وأعني بالقلب حقيقة روحه التي هي محل معرفة الله، دون اللحم والدم الذي يتشارك فيه الميت والبهيمة، وأن البدن له صحة بها سعادته ومرض فيه هلاكه، وأن القلب كذلك له صحة وسلامة، ولا ينجو إلا من أتى الله بقلب سليم، وله مرض فيه هلاكه الأبدي الأخروي، كما قال تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ﴾[البقرة:10] «وأن الجهل بالله سم مهلك، وأن معصية الله بمتابعة الهوى، داؤه الممرض، وأن معرفة الله تعالى ترياقه المحيي، وطاعته بمخالفة الهوى دواؤه الشافي، وأنه لا سبيل إلى معالجة البدن إلا بذلك. وكما أن أدوية البدن تؤثر في كسب الصحة بخاصية فيها، لا يدركها العقلاء ببضاعة العقل، بل يجب فيها تقليد الأطباء الذين أخذوها من الأنبياء، الذين اطلعوا بخاصية النبوة على خواص الأشياء، فكذلك أدوية العبادات بحدودها ومقاديرها المحدودة المقدرة من جهة الأنبياء، لا يدرك وجه تأثيرها ببضاعة عقل العقلاء، بل يجب فيها تقليد الأنبياء الذين أدركوا تلك الخواص بنور النبوة، لا ببضاعة العقل»[1].

وأما من يملك القلب الغليظ فقد جاء وصفهم بنحو قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡۖ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ

1. الغزالي، **المنقذ من الضلال**، المكتبة العصرية، بيروت، 2019م، ص 79.

ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [غافر: 35] ﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾ [الحج: 53] ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الزمر: 22] ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [الحديد: 16].

ولا بد من مرور القلب من مرحلة الصبر والمجاهدة والبلوى، وهي فترة الامتحان الذي يتربى فيه القلب لتطهيره من الرين أو تكلس المخالفات.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰۚ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [الحجرات: 3] **إذ القلوب الممتحنة هي المستشعرة للعبادة والشاكرة للنعم مصداقًا لدعاء إبراهيم عليه السلام:** ﴿رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ [إبراهيم: 37].

ومعلوم تفاوت المؤمنين في مدى تمكن الإيمان في قلوبهم باعتبار القلب ميزانًا لصحة الأعمال ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّاۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ

عِندَ رَبِّهِمۡ وَمَغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ﴾ [الأنفال: 2 - 4] ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٖ جَعَلۡنَا مَنسَكٗا لِّيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِۗ فَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَلَهُۥٓ أَسۡلِمُواْۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُخۡبِتِينَ ٣٤ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمۡ وَٱلۡمُقِيمِي ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ﴾ [الحج: 34، 35] ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ﴾ [الرعد: 28] ﴿ذَٰلِكَۖ وَمَن يُعَظِّمۡ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقۡوَى ٱلۡقُلُوبِ﴾ [الحج: 32].

ولما كان العنف أو العدوان خلاف الرحمة؛ فقد ارتبط بما في القلب من حرارة العزم على الاعتداء مما يؤدي نحو سخط الله وأنه تعالى يطبع على قلوب المعتدين ﴿كَذَٰلِكَ نَطۡبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾ [يونس: 74] **ولعل خلو القلب من أنوار العلم يعرضه لتشربه أوضار العدوان، ولذلك أتت الحلول لعلاج ما في الصدور في مواضع عدة مثل:** ﴿بَلۡ هُوَ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: 49]، ﴿وَلِيَبۡتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمۡ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمۡۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [آل عمران: 154]، ﴿وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِي وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذۡ قُلۡتُمۡ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [المائدة: 7]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [يونس: 57]، ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتۡ قُلُوبُكُمۡۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٞ﴾ [البقرة: 225] ﴿وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا﴾ [آل عمران: 103] ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٦٢ وَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡۚ لَوۡ أَنفَقۡتَ

مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: 62، 63]، ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦۗ﴾ [آل عمران: 126]، ﴿إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا﴾ [الأنفال: 70]، ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الأحزاب: 5]، ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ٧ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةًۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الحجرات: 7، 8] ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمْۖ وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات: 14].

وقد عنيت رسالة القرآن بأهمية تطهير القلب، إذ نبه القرآن أن الفتن ترتبط بالقوم الذين تعكرت قلوبهم ولا سبيل لتطهيرها ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔاۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْۚ﴾ [المائدة: 41]، وفلسفة ذلك يبينها المحاسبي بقوله:

التطهير هو الانتقال عن الشر إلى الأساس الذي يبنى عليه الخير وقد يمكن أن يسقط البناء ويبقى الأساس ولا يمكن أن يسقط الأساس ويبقى البناء، ومن لم يتطهر قبل العمل فإن الشر يمنع العبد من منفعة الخير فترك الشر أولى بالعبد ثم يطلب الخير بعد، والنفس تجزع من التطهير وتفر إلى أعمال الطاعات لثقل التطهير عليها وخفة العمل بالطاعات بلا طهارة، فإذا

كانت الطهارات متقدمة أمام العمل بالطاعات بعد خفته عليها لمكان الطهارة فالحاجة إلى معرفة الأسباب التي يطلب منها الخير وتوصل إلى الله شديدة[1].

وبعد تتبع آيات القرآن الكريم في موضوع القلب وتعلقه بميزان العمل والسلوك يظهر أن الرسالة القرآنية أكدت على هذا الموضوع من خلال أن الرسالة القرآنية أثبتت وجود أمراض القلوب، تلك الأمراض السلوكية المرتبطة بعلم النفس، ويقول الرازي في مفاتيح الغيب:

أن أكثر الخلق وقعوا في أمراض القلوب وهي حب الدنيا والحرص والحسد والتفاخر والتكاثر وهذه الدنيا مثل دار المرضى إذا كانت مملوءة من المرضى والأنبياء كالأطباء الحاذقين والمريض ربما قد قوي مرضه فلا يعود إلى الصحة إلا بمعالجات قوية وربما كان المريض جاهلًا فلا ينقاد للطبيب ويخالفه في أكثر الأمر، إلا أن الطبيب إذا كان مشفقًا حاذقًا فإنه يسعى في إزالة ذلك المرض بكل طريق يقدر عليه فإن لم يقدر على إزالته فإنه يسعى في تقليله وتخفيفه[2].

ويقول النيسابوري في غرائب القرآن:

إنه تعالى يعالج بدواء القرآن أمراض القلوب في كل وقت بنوع آخر على حسب ما يعلمه من المصالح فلذلك قال: والله أعلم بما ينزل وبشرى للمسلمين الذين استسلموا للطبيب ومعالجته حتى صارت قلوبهم سليمة. إنما يعلمه بشرٌ ففيه إنكار أن طب القلوب وعلاجها من شأن البشر بنظر العقل لأنه مبني على معرفة الأمراض وكميتها وكيفيتها، ومعرفة الأدوية وخواصها وكيفية

1. المحاسبي، **آداب النفوس**، ص 62.
2. الرازي، **مفاتيح الغيب**، 386/21.

استعمالها، ومعرفة الأمزجة واختلاف أحوالها، وأن القلوب بيد الله يقلبها هو كيف يشاء فيضيق عن معالجتها نطاق عقول البشر ولهذا قال إبراهيم ﷺ: ﴿وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ﴾ اللهم إلا إذا علم بتعليم الله كقوله: وعلمك ما لم تكن تعلم[1].

ويقول القاسمي في محاسن التأويل:

فالقرآن هو الشفاء التام من جميع الأدواء القلبية والبدنية. وأدواء الدنيا والآخرة. وما كل أحد يؤهل ولا يوفق للاستشفاء به. وإذا أحسن العليل التداوي به، ووضعه على دائه بصدق وإيمان وقبول تام، واعتقاد جازم، واستيفاء شروطه- لم يقاومه الداء أبدًا. وكيف تقاوم الأدواء كلام رب الأرض والسماء، الذي لو أنزل على الجبال لصدعها، أو على الأرض لقطعها. فما من مرض من أمراض القلوب والأبدان إلا وفي القرآن سبيل للدلالة على دوائه وسببه والحمية منه، لمن رزقه الله فهما في كتابه. فمن لم يشفه القرآن فلا شفاه الله. ومن لم يكفه فلا كفاه الله[2].

وحاولت الرسالة القرآنية معالجة ظاهرة النفاق الاجتماعي، إذ بوجود خصالهم يتقلب المجتمع في مغبة الضغائن والكراهية والخداع المذكور في قوله تعالى: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخۡدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ ۞ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ [البقرة: 9، 10]، وأثناء الدفاع عن المقدسات كالوطن تجدهم جبناء مثبطين ﴿فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمۡ

1. النيسابوري، **غرائب القرآن ورغائب الفرقان**، دار الكتب العلمية، بيروت، 1416هـ، 318/4.
2. القاسمي، **محاسن التأويل**، 498/6.

يَقُولُونَ نَخۡشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٞۚ﴾ [المائدة: 52]، ﴿أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخۡرِجَ ٱللَّهُ أَضۡغَٰنَهُمۡ ٢٩﴾ [محمد: 29]، وينشرون براثن التفرقة بين أفراد الأمة، ويتهمون الآخرين قادحين في نياتهم ﴿إِذۡ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمۡۗ﴾ [الأنفال: 49]، بل يقدحون في الديانات كلها والأخبار الصحيحة في الكتب المقدسة ﴿وَإِذۡ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورٗا﴾ [الأحزاب: 12]، ﴿وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلٗاۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ﴾ [المدثر: 31].

وقد ربط القرآن كل عمل بالقلب صحة وفسادًا، وأشار الغزالي إلى ذلك في ميزان العمل:

فإن الغضب معناه غليان دم القلب، فإن كان على من فوقك في القدرة على الانتقام، تولد منه انقباض الدم من ظاهر الجلد إلى القلب، وكان حزنًا، ولأجله يصفر الوجه. وإن كان على من دونك تولد منه ثوران دم القلب، لا انقباضه، فيكون منه الغضب الحقيقي وطلب الانتقام. وإن كان على نظيرك في القدرة على الانتقام، تولد منه تردد الدم بين انقباض وانبساط، ويختلف به لون الوجه فيحمر ويصفر ويضطرب. وبالجملة قوة الغضب محلها القلب، ومعناه حركة الدم وغليانه[1].

والشرعيات تجري مجرى الأغذية الحافظة للصحة، وكما أن الجسم متى كان مريضًا لم ينتفع بالأغذية، ولم يستفد بها، بل يتضرر بها، كذلك من كان

1. الغزالي، ميزان **العمل**، دار المعارف، مصر، 1964، ص 322.

مريض النفس كما قال تعالى: ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾، لم ينتفع بسماع القرآن الذي هو موضوع الشرعيات، بل صار ذلك ضارًّا له مضرة الغذاء للمريض، ولهذا قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [التوبة: 124-125].

وأيضًا فالقلب بمنزلة مزرعة للمعتقدات، والاعتقاد فيه بمنزلة البذر إن خيرًا وإن شرًّا، وكلام الله تعالى بمنزلة الماء الذي يسقيه، ولذلك سماه ماء على ما تقدم ذكره، فكما أن الماء إذا سقى الأرض يختلف نباته بحسب اختلاف بذوره، كذلك القرآن إذا ورد على الاعتقادات الراسخة في القلوب، تختلف تأثيراته، وإلى ذلك أشار بقوله تعالى: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ﴾[الرعد:4]، وقال تعالى: ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ [الأعراف: 58]. وأيضًا فالجهل بالمعقولات جار مجرى ستر مرخي على البصر، وغشاء على القلب، ووقر في الأذن، والقرآن لا تدرك حقائقه إلا لمن كشف غطاؤه، ورفع غشاؤه، وأزيل وقره، ولهذا قال تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾[الإسراء: 45][1].

كما أن عملية التطهير ممكنة برسالة القرآن، وذلك بإزالة الأنجاس. وأكد على ذلك الراغب الأصفهاني في تفصيل النشأتين:

1. الراغب الأصفهاني، أبي القاسم الحسين بن محمد، **الذريعة إلى مكارم الشريعة**، 2007، ص 158.

واجتلاب الطهارة المذكورة في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: 33]، واكتساب الصحة، وإماطة المرض المذكور في قوله تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة: 10] يكون بإصلاح القوى الثلاث التي هي دواعي الإنسان في متصرفاته، وهي قوة الشهوة، وقوة الحمية وقوة الفكر، فبإصلاح قوة الشهوة تحصل العفة؛ فيتحرز بها من الشره وإماتة الشهوة، ويتحرى المصلحة في المأكول والمشروب والملبوس والمنكوح وطلب الراحة وغير ذلك من اللذات الحسية. وبإصلاح قوة الحمية تحصل الشجاعة؛ فيتحرز من الجبن والتهور والحسد، ويتحري الاقتصاد في الخوف والغضب والأنفة وغير ذلك. وبإصلاح قوة الفكر تحصل الحكمة حتى يحترز من البله والجربزة ويتحرى الاقتصاد في تدبير الأمور الدنيوية[1].

وقد ابتدأ الله البقرة بالإشارة إلى علل القلوب وختم السورة ذاتها بقوله﴿مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ﴾[البقرة: 284]، ويقول محمد رشيد رضا:

معناه ما ثبت واستقر في أنفسكم كما تقدم، ويدخل فيه الكفر والأخلاق الراسخة والصفات الثابتة من الحب والبغض في الجور وكتمان الشهادة وقصد السوء أو سوء القصد وفساد النية وخبث السريرة، وهذه الأعمال والصفات هي الأصل في الشقاوة وعليها مدار الحساب والجزاء، ولولا أن للأعمال البدنية آثارًا في النفس تزكيها أو تدسيها، لما آخذ الله - تعالى - في الآخرة

1. الراغب الأصفهاني، **تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين**، دار مكتبة الحياة، بيروت، 1983، ص 95.

أحدًا عليها؛ لأنه - تعالى - لا يعاقب الناس حبًا في الانتقام ولا يظلم نفسًا شيئًا، ولكنه جعل سنته في الإنسان أن يرتقي أو يتسفل نفسًا وعقلًا بالعمل؛ فلهذا كان العمل مجزيًا عليه في الآخرة، فإن أثره في النفس هو متعلق الجزاء[1].

وقد ارتبط التفسير الموضوعي لبعض السور بمفهوم القلب، بل جاءت سورة يس ملقبة بـ(قلب القرآن)، فكانت هذه السورة جديرة بأن تسمى قلب القرآن لأن من تقاسيمها تتشعب شرايين القرآن كله، وإلى وتينها ينصب مجراها. قال الغزالي: «إن ذلك لأن الإيمان صحته باعتراف بالحشر، والحشر مقررٌ في هذه السورة بأبلغ وجه، كما سميت الفاتحة أم القرآن إذ كانت جامعة لأصول التدبر في أفانينه كما تكون أم الرأس ملاك التدبر في أمور الجسد»[2].

---

1. رضا، محمد رشيد، **تفسير المنار**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1990، 116/3.
2. ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، 344/22.

الخاتمة

الخاتمة

ينتابني شعور روحاني بديع، وأنا على أهبة توديع هذه المرحلة الدراسية المتينة ضمن جامعتنا العتيدة -جامعة محمد بن زايد للعلوم الإنسانية- وكأن هذا الشعور أصبح عضوًا لا يتجزأ من البحث العلمي الذي واكبته في هذه الجامعة المباركة، فكيف لي وعيناي تفيضان دمعًا كلما ذكرتُ منطلقاتي حين نما في ضميري الهاجس المتوقد لطلب العلم وفق منظومة محكمة من المعايير المولدة للبحث العلمي والمطابقة لمتطلبات دولتنا المحروسة الإمارات العربية المتحدة.

وها أنا ذا في خضم هذا البحث الذي جعلني أطوف بمئات من المصنفات الفلسفية والتاريخية والحديثية والتفسيرية، بل اطلعت على عشرات من كتب الديانات الأخرى، وأدركت أن العلم لا يحيط به بشر ألبتة إذ هذا من خصائص الله جل شأنه. كما أدركت بسبب هذا البحث خطورة هذا الموضوع وأهميته في جميع الأصعدة المرتبطة بالإنسان، بحيث يلامس أصوله الوجودية، ويدعو إلى البرهنة العقلية أثناء تحليل نظرية الرحمة من حيث كونها نظرية كي يصبح البحث موضوعيًا بعيدًا عن أي تأثير أيديولوجي.

وقد نجم عن هذه الدراسة مجموعة من الأفكار والنتائج التي يراها الباحث ذات أهمية كبرى ليكون نشرها في الأوساط العلمية قصد الانتفاع بها أكاديميًا، وفي الوقت ذاته لتحصيل مرجعية علمية للناس حتى تتلاقح المعارف الداعية إلى السلم الإلهي الذي أمرنا الله به في كتابه فقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَـا

ﵟٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞﵞ [البقرة: 208] ولذلك فإن الغضب والقسوة ومخالة الرحمة إنما هو سبيل الشيطان؛ عدو الإنسان الأول ﵟإِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَﵞ [المائدة: 91].

وأهم ما نستخلصه من النتائج والتوصيات ما يأتي:

1. البشر مجبولون على الرحمة في أصل بنيتهم، وعلم الجينوم مثبت لهذه الحقيقة.
2. دلت الأخبار الصحيحة أن شجنة الرحم المشتملة على أصول البشرية هي مبنية على الرحمة والوصال والتعاون والمحبة والتعارف.
3. يعتبر الجدل الفلسفي في موضوع جوهر الإنسان ومسألة التحسين والتقبيح وعلل وجود الشر من المسائل النسبية التي مؤداها في الأخير الاستسلام لنظرية الفطرة الواحدة وأن الثابت هو الخير، وأما الشر فمتعلق بمؤثرات وأسباب خارجة عن النظام المحكم الغالب، وأن نشوء الشرور كان جراء ضرب من الابتلاء المفضي إلى أقدار الله الرحمانية.
4. يجب استغلال وفرة النصوص الداعية إلى الرحمة لدى الطوائف كلها، إذ جميع البشر متفقون على اعتبار خصلة الرحمة أصلًا من الأصول التي تنطلق منها الدعوة إلى ما يعتقدون، سواء لدى البوذيين والهندوس والصابئة وأهل الكتاب والمسلمين.
5. تتجاذب موضوع الرحمة بنيوية الأصل الجيني للتراحم فبهذا الاعتبار تعتبر الأخلاق كلها فرعًا من فروع الرحمة، وفي الوقت ذاته تكتسب الرحمة

طابع النظرية الفرعية حينما نعتبر نظرية الأخلاق قضية إنسانية يتفرع عنها سلوكات دالة على التراحم القابل للتطوير والتحسن بحسب أمجاد الحضارات.

6. ينبغي توظيف المعجم اللغوي في اللغات السامية للاستدلال بوفرة الألفاظ الدالة على الرحمة والخير، إذ اللسانيات مآلها أن وضع أي لفظة لمعنى من المعاني أو إحساس من الأحاسيس له سببه وتاريخيته التي جعلت تلك اللفظة تكتسي ألوانًا من المعاني الرقيقة الفياضة بالمحبة والحنان.

7. ثمة نصوص رحمانية طالها ضرب من الإهمال يجدها الباحث في ثلة من الكتب المقدسة غير المشهورة، ككتاب دانيال، ومزامير داود، وما تم تحقيقه من مخطوطات البحر الميت وغير ذلك.

8. النظر البياني للقرآن الكريم ينطلق من كونه كتاب رحمة ﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ۝٥ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ [الدخان: 5، 6] ولذا فاستقراؤه كليّ لا يتبعض، وتفسيره من خلال نظائر الألفاظ، ولا يجوز بتر ما دلالته تنكيل أو تشديد من سياقه، إذ كل سياق يصب في محقن القرآن وهو قوله تعالى: ﴿فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ [الأنعام: 157].

9. قد كدر طائفة من المفسرين كتبهم بالمبالغة في ادعاء النسخ، وهو أمر لا يتناسب مع الكتاب الذي وصفه الله بأنه ﴿كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: 1]، لذا يحسن بحملة العلم لا سيما المتخصصون في القرآن الكريم أن ينزهوا القرآن عن الحيف الذي طال آيات القرآن، حتى أضحت في نظر بعضهم مجرد كلام يُقرأ،

مع أن الحق هو كون نظرية النسخ في القرآن إنما تنحصر في جانب تقييد المطلق أو تخصيص العام أو بيان المجمل، إذ هذا هو معنى النسخ لدى المتقدمين.

10. آيات الوعيد والموادعة ومسالمة المخالفين كلها محكمة، وادعاء النسخ فيها لا يقوم على حجة ناهضة، وكفى دليلًا أن النبي ﷺ هو نفسه استمر في الموادعة والمسالمة والتعايش، حاشا إذا اعتدي عليه فإنه يدافع ويقاتل طبقًا للأصل الإنساني في حفظ الضروريات ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾ [البقرة: 190].

11. أسماء الله كلها حسنى، وصفاته كلها فضلى ودالة على الجلال والجمال والكمال، ومن هو بهذا الوصف لا يليق توهم ما عنده من الصفات المقتضية للابتدلاء والتمحيص ونصرة المظلومين بأنه إله لا يرحم، تعالى عن ذلك علوًا كبيرًا، واللازم حينئذ فهم علم الأسماء والصفات بأنه جزء مما نستحضر به جلال الله وعظمته وأنه كما نبه على ذلك سيد المرسلين عليه الصلاة والسلام في الحديث الذي أخرجه البخاري عن عُمَر بْنِ الخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قَدِمَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ سَبْيٌ، فَإِذَا امْرَأَةٌ مِنَ السَّبْيِ قَدْ تَحْلُبُ ثَدْيَهَا تَسْقِي، إِذَا وَجَدَتْ صَبِيًّا فِي السَّبْيِ أَخَذَتْهُ، فَأَلْصَقَتْهُ بِبَطْنِهَا وَأَرْضَعَتْهُ، فَقَالَ لَنَا النَّبِيُّ ﷺ: «أَتُرَوْنَ هَذِهِ طَارِحَةً وَلَدَهَا فِي النَّارِ» قُلْنَا: لاَ، وَهِيَ تَقْدِرُ عَلَى أَنْ لاَ تَطْرَحَهُ، فَقَالَ: «لَلَّهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بِوَلَدِهَا»[1].

---

1. البخاري، **صحيح البخاري**، كتاب الأدب، باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته، رقم الحديث 5999، 8/8.

12. لا بد للدعاة وورثة الأنبياء من الاستمساك بمنهج المرسلين الرحماني في الدعوة إلى الله، إذ كلهم على أساس الرحمة بالناس والحنان بالخلق واللطف بالمخالفين ﴿فَذَكِّرۡ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٞ ۝٢١ لَّسۡتَ عَلَيۡهِم بِمُصَيۡطِرٍ﴾ [الغاشية: 21، 22].

13. كثيرًا ما نطالع جملة من البحوث المتعلقة بالإعجاز العلمي أو نشاهد بعض الإسقاطات الدلالية في علوم الفلك على ما ورد في القرآن الكريم، غير أن طرق موضوع الرحمة في تسيير الكون قل من اعتنى به، مع أن الحديث في عاية من الوضوح في كون الخلق محاطين برحمة الله في تسييرهم ولزوم سننه التي قدرها جل شأنه، فقال عليه الصلاة والسلام: «إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِائَةَ رَحْمَةٍ كُلُّ رَحْمَةٍ طِبَاقُهَا طِبَاقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، فَقَسَمَ رَحْمَةً بَيْنَ جَمِيعِ الْخَلَائِقِ وَأَخَّرَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ رَحْمَةً لِنَفْسِهِ، فَإِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ رَدَّ هَذِهِ الرَّحْمَةَ فَصَارَ مِائَةَ رَحْمَةٍ يَرْحَمُ بِهَا عِبَادَهُ»[1].

14. كل البينات والهدى التي تم تشريعها في القرآن الكريم مبنية على التخفيف والرحمة والنفع والانتفاع، لاسيما غايات القرآن التي غفل عنها بعض الناس مثل غاية الشكر، التذكر، الرحمة، التفكر. من أجل ذلك كان منهج القرآن هو التأكيد على مقاصد التشريعات لا مجرد الاكتفاء ببعض الشؤون التعبدية الظاهرة، فلو أخذنا الصلاة مثلًا نجد غايتها هي مقصد (الذكر) ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾ [طه: 14]، والذكر مآله الرحمة ﴿لَوۡلَا تَسۡتَغۡفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾ [النمل: 46]. ﴿أَوَعَجِبۡتُمۡ أَن جَآءَكُمۡ

1. الحاكم، **المستدرك**، كتب الإيمان، حديث رقم: 186، 1/123.

ذِكۡرٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنكُمۡ لِيُنذِرَكُمۡ وَلِتَتَّقُواْ وَلَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾ [الأعراف: 63].

15. بات مصلح الحدود في نظر الكثيرين متعلقًا ببعض الأحكام الزجرية كحد السارق والزاني ونحوهم، مع أن القرآن الكريم اعتبر كل حكم لله أو أمر منه حدًّا من الحدود حتى لو تعلق بالاعتكاف في المسجد كقوله ﴿وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمۡ عَٰكِفُونَ فِي ٱلۡمَسَٰجِدِۗ تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: 187]، وإذا كان الأمر كذلك فكل حدود الله باطنها رحمة وعدل، وقد أجمع الناس على أن كل مجتمع لابد له من قوانين زجرية حتى لا يطغى أحد على آخر، ولذا فإن القرآن نفسه بين أن كل حكم ظاهرة الزجر فإنه يعود على الإنسانية بالعدالة والرحمة والأمن والفوز المطلق بالتمكين في الأرض والنعيم يوم العرض، كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوۡلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ أَن يَقُولُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٥١ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخۡشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقۡهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ﴾ [النور: 51، 52] ﴿تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [النساء: 13].

16. لقد انطلت كثير من الشبه على فئام من المنتسبين إلى العلم والسنة والدعوة إلى الله حتى أصبحت خطاباتهم مشحونة بطابع الكراهية والقنوط من رحمة الله والنظر إلى كل من يخالفهم بأنه عدو، وهم بهذا مخالفون للقرآن الكريم الذي يدعو إلى السلم، والرحمة، والتعاون، والتعارف، وفي حقيقة ما يصنع هؤلاء أنهم وقعوا في خطوات الشيطان

الذي استعملهم ليبغضوا الناس في دينهم حتى صار لدى كثير من العامة قناعة بأن كل (ملتزم) أو (مطوع) يعيش في جو من الحزن والعسر.

17. تعددت الأسباب التي استقرأتها في موضوع القنوط من رحمة الله لدى مجموعة من المتشددين حتى بلغ ذلك نيفًا وثلاثين سببًا، وحري بهذه الأسباب أن تبين للناس جميعًا، لا سيما الشباب حتى لا يقعوا في هذا الأمر الخطير.

18. لما كان القلب على هيئة المولد للطاقة في جسم كل إنسان، وأنه محل الصلاح الحقيقي ومصب الروحانيات، ومنبع الرقة والرحمة؛ حرص آيات القرآن على بيان رسالة أعمال القلوب، وما يترتب عليها من السلوك الاجتماعي، حيث ربط بعض غايات القرآن بالقلب كقوله تعالى ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ﴾ [الرعد: 28]، وحظي التشريع بالنظر إلى القلب ﴿وَمَن يُعَظِّمۡ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقۡوَى ٱلۡقُلُوبِ﴾ [الحج: 32] وأطلق القرآن عنان التفكر في مجريات التاريخ شريطة حضور القلب ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ﴾ [ق: 37]. ولذا ينبغي التأكيد على كافة المشتغلين بالعلم والتعليم أن يحرصوا على رعاية التربية الروحية والنفسية للأجيال حتى لا يتمخض لنا التعليم عن ضروب من الخواء الروحي، أو النفاق الاجتماعي، أو الران القلب، أو مغبة الأقفال على القلوب، والتي تحول بيننا وبين الرحمة والتراحم.

المصادر والمراجع

أولا: الكتـب

1. أسد، محمد، **الطريق إلى مكة**، مكتبة الملك عبد العزيز، الرياض، 1424هـ.
2. الأصبحي، مالك بن أنس، **الموطأ**، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1985.
3. الأصبهاني، أبو نعيم، **حلية الأولياء وطبقات الأصفياء**، 1409هـ.
4. الراغب الأصفهاني، أبي القاسم الحسين بن محمد، **الذريعة إلى مكارم الشريعة**، 2007.
5. ــــــــــ، **تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين**، دار مكتبة الحياة، بيروت، 1983.
6. ــــــــــ، **المفردات في غريب القرآن**، الدار الشامية، 1412هـ.
7. الأزدي، معمر بن راشد، **جامع معمر بن راشد**، المجلس العلمي الهند، 1983م.
8. الأندلسي، ابو حيان محمد بن يوسف، **البحر المحيط**، دار الكتب العلمية، بيروت، 1413 هـ - 1993 م، 8 مج.
9. ابن باديس، **تفسير ابن باديس**، دار الكتب العلمية، بيروت، 1995.
10. البخاري، محمد بن إسماعيل، **صحيح البخاري**، تحقيق أحمد معبد عبد الكريم، دار التأصيل، **2012**م.
11. بريجسون، هنري، **منبعًا الأخلاق والدين**، (ترجمة: سامي الدروبي وعبد الله عبد الدائم)، الهيئة المصرية الدائمة للتأليف والنشر، القاهرة، 1971.

12. البسيلي، أبو العباس، **نكت وتنبيهات في تفسير القرآن المجيد**، تحقيق محمد الطبراني، مطبعة النجاح، المملكة المغربية، الدار البيضاء 2008، 3 مج.

13. البصري، أبو الحسين، **المعتمد في أصول الفقه**، تحقيق خليل الميس، دار الكتب العلمية، بيروت، 1403هـ.

14. ابن بطال، علي بن خلف، **شرح صحيح البخاري**، تحقيق أبو تميم ياسر بن إبراهيم، الرياض، مكتبة الرشد، ط 2، 2003، 10مج.

15. البغوي، أبو محمد الحسين بن مسعود، **شرح السنة**، ط 2، 1403 هـ - 1983م، 10 مج.

16. بهنسى، أحمد فتحي، **الحدود في الإسلام**، مؤسسة المطبوعات الحديثة، 2003.

17. البيهقي، أبي بكر أحمد بن الحسين، **الأسماء والصفات**، تحقيق اخراج وتعليق عبد الله بن محمد الحاشدي، مكتبة السوادي، السعودية، 1993، 2 مج.

18. ـــــــ، **شعب الإيمان**، تحقيق عبد العلي عبد الحميد حامد، مكتبة الرشد للنشر والتوزيع، الرياض- الدار السلفية بومباي الهند، 1423هـ - 2003 م، 14مج.

19. الترمذي، الحكيم، **رياضة النفس**، دار الكتب العلمية، بيروت، 2005.

20. الترمذي، محمد بن عيسى، **سنن الترمذي وهو الجامع الكبير**، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ط 2، 1395هـ - 1975م، 5 مج.

21. التميمي، أبو العرب، **المحن**، تحقيق عمر سليمان العقيلي، دار العلوم، الرياض، 1984.

22. التهانوي، محمد بن علي، **كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم**، تحقيق علي دحروج، بيروت، مكتبة لبنان ناشرون، 1996، 2 مج.

23. الثعلبي، أبو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم، **الكشف والبيان عن تفسير القرآن**، تحقيق الإمام أبي محمد بن عاشور، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1422هـ 2002م، 10مج.

24. الجرجاني، عبد القاهر، **درج الدُّرر في تَفسِيرِ الآيِ والسُّوَر**، مجلة الحكمة، بريطانيا، 2008.

25. الجرجاني، علي بن محمد بن علي، **التعريفات**، تحقيق جماعة من العلماء، دار الكتب العلمية، بيروت، 1983.

26. جرجس، فواز، **داعش إلى أين؟**، (ترجمة: محمد شيا)، 2016.

27. ابن جزي، محمد بن أحمد، **التسهيل لعلوم التنزيل**، 1416هـ.

28. ابن الجوزي، جمال الدين عبد الرحمن، **المصفى بأكف أهل الرسوخ من علم الناس والمنسوخ**، 1998، ص16.

29. ـــــ، **نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر**، تحقيق محمد عبد الكريم كاظم الراضي، 1984.

30. ـــــ، **زاد المسير في علم التفسير**، تحقيق عبد الرزاق المهدي، 1422هـ.

31. ابن الجوزي، **نواسخ القرآن**، شركة أبناء شريف الأنصاري، بيروت، 2001.

32. جوليان، فرانسوا، **جدل في الأخلاق**، دار الجنوب للنشر، تونس، 1995.

33. الجوهري، علي ابن الجعد، **مسند ابن الجعد**، تحقيق عامر أحمد حيدر، مؤسسة نادر- بيروت ط، 1990.

34. الجويني، **كتاب الإرشاد**، تحقيق محمد يوسف موسى وعلي عبد المنعم عبد الحميد، مكتبة الخانجي، مصر، 1950.

35. جيرار، رينيه، **العنف والمقدس**، (ترجمة: سميرة ريشا)، 2009.

36. ابن أبو حاتم، عبد الرحمن بن محمد، **العلل**، مطابع الحميضي، الرياض، 2006.

37. ـــــ، **تفسير القرآن العظيم**، تحقيق أسعد محمد الطيب، مكتبة نزار مصطفى الباز، مكة، ط 3، 1419هـ.

38. الحازمي، ناصر، **أيام مع جهيمان**، لبنان، ط 2، 2011.

39. الحاكم، أبو عبد الله محمد بن عبد الله، **المستدرك على الصحيحين**، دار الكتب العلمية، بيروت، 1990.

40. الحايك، منذر، **فيدا نصوص هندوسية مقدسة: دراسة مقارنة**، صفحات للدراسة والنشر، بيروت، 2018.

41. ـــــ، **أبستاق كتاب زرادشت المقدس: دراسة مقارنة**، صفحات للدراسة والنشر والتوزيع، دمشق، 2019.

42. ـــــ، **إنجيل بودا دراسة مقارنة**، صفحات للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط 2، 2020.

43. ابن حبان، **صحيح ابن حبان**، تحقيق محمد علي سونمز وخالص آي دمير، 2012، 8 مج.

44. حبيب، صموئيل وآخرون، **دار المعارف الكتابية**، دار الثقافة، (د.ت).

45. حجازي، محمد محمود، **الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم**، مطبعة المدني، القاهرة، 1970.

46. ابـن حجـر، أحـمـد بـن عـلـي، **فـتـح الـبـاري**، تـحـقـيق محـب الـديـن الخطيب،1390 هـ، 13 مج.

47. ابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد، **الإحكام في أصول الأحكام**، دار الآفاق الجديدة، بيروت، (د.ت).

48. ـــــــ، **المُحلَّى بالآثار**، تحقيق عبد الغفار سليمان البنداري، دار الكتب العلمية - بيروت، 1408هـ - 1988م، 12 مج.

49. ـــــــ، **الفصل في الملل والأهواء والنحل**، مكتبة الخانجي، القاهرة، (د.ت)

50. ابن حنبل، أحمد، **فضائل الصحابة، تحقيق وصي الله محمد عباس**، 1983م.

51. الحنفي، ابن أبي العز، **شرح العقيدة الطحاوية**، 2005.

52. الحوالي، سفر، **أعمال القلوب**، 2013.

53. ـــــــ، **المسلمون والحضارة الغربية، الطبعة الوحيدة في الإنتـــرنت**، (د.ت)، https://www.jihadica.com/wp-content/ al-muslimun-wal-hadara-al-gharbiyya.pdf/01/uploads/2019

54. ـــــــ، **ظاهرة الإرجاء في الفكر الإسلامي**، دار الكلمة، 1999.

55. خضر، عبد العليم، **أصل الأجناس البشرية بين العلم والقرآن الكريم**، تهامة، جدة، 1407هـ

56. الخطابي، بو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم، **شأن الدعاء**، دار الثقافة العربية، ط 2، 1412 هـ - 1992م.

57. الخفاجي، شهاب الدين، **حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي**، دار صادر، بيروت، (د.ت).

58. ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، **ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر**، تحقيق خليل شحادة، دار الفكر، بيروت، 1401 هـ - 1981 م، 8 مج.

59. ____، **مقدمة ابن خلدون**، تحقيق عبد الله محمد الدرويش، دار يعرب، دمشق، 1425هـ 2004م.

60. الخلف، موسى، **العصر الجينوم**، عالم المعرفة، الكويت، 2003.

61. خليل، عماد الدين، **قالوا عن الإسلام**، 1992.

62. ____، **تهافت العلمانية**، بيروت، 2008.

63. الدامابادا، **كتاب بوذا المقدس** (ترجمة: سعدي يوسف)، دار التكوين للتأليف والترجمة والنشر، دمشق، 2010.

64. داود، **سنن أبي داود**، تحقيق تلطف حسين الدهلوي، المطبعة الأنصارية بدهلي، 1323هـ، 4 مج .

65. دكمجيان، ريتشارد هرير، **الأصولية في العالم العربي** (ترجمة: عبد الوارث سعيد)، 1989.

66. الدمياطي، أحمد بن محمد، **إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر**، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 3، 2006.

67. الدهلوي، أحمد بن عبد الرحيم بن الشهيد، **حجة الله البالغة**، دار الجيل، بيروت، 1426 هـ - 2005م.

68. الدولابي، أبو بِشْر محمد بن أحمد، **الكنى والأسماء**، تحقيق أبو قتيبة نظر محمد الفاريابي، 1421هـ 2000م، 3مج.

69. ديلايورت، ل.، **بلاد مابين النهرين**، (ترجمة: كريمة محرم كمال)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1997.

70. ديورانت، **قصة الحضارة**، دار الجيل، بيروت، 1988.

71. الذنون، عبد الحكيم، **التشريعات البابلية**، دار علاء الدين، دمشق، 1992.

72. الذهبي، شمس الدين، محمد بن أحمد، **سير أعلام النبلاء**، دار الحديث، القاهرة، 2006، 18 مج.

73. ـــــــــــ، **سير أعلام النبلاء**، ط 3، 1985.

74. الذهبي، محمد حسين، **أثر إقامة الحدود في استقرار المجتمع**، مكتبة وهبة، ط 2، 1986.

75. الرازي، فخر الدين محمد بن عمر، **مفاتيح الغيب**، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط 3، 1420هـ.

76. الراغب الأصفهاني، حسين بن محمد، **المفردات في غريب القرآن**، الدار الشامية، 1412هـ.

77. ابن رجب، زين الدين أبي الفرج، **الحكم الجديرة بالإذاعة**، دار المأمون، دمشق، 1990.

78. رزق، هاني خليل، **الجينوم البشري وأخلاقياته**، دار الفكر، دمشق، 2007.

79. رضا، محمد رشيد، **تفسير المنار**، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1990، 12 مج.

80. روسو، جان جاك، **دين الفطرة**، (ترجمة: عبد الله العروي)، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 2012.

81. الزجاج، أبو إسحاق إبراهيم بن محمد، **تفسير أسماء الله الحسنى**، تحقيق أحمد يوسف الدقاق، دار الثقافة العربية، 1974.

82. ـــــــ، **معاني القرآن**، تحقيق عبد الجليل عبده شلبي، 1988م، 5 مج.

83. الزركشي، محمد بن عبد الله، **البرهان في علوم القرآن**، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركائه، بيروت، 1957، 4 مج.

84. ـــــــــ، **البحر المحيط في أصول الفقه**، دار الكتبي، بيروت، 1994، 8 مج.

85. الزركلي، خير الدين بن محمود، **الأعلام**، دار العلم للملايين، بيروت، ط 5، 2002.

86. زكار، سهيل، **المحذوف من التوراة كاملًا**، دار قتيبة، لبنان، 2006.

87. الزمخشري، محمود بن عمر بن أحمد، **الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل**، ط 3، 1407هـ، 4 مج.

88. ابن أبي زمنين، أبو عبد الله محمد بن عبد الله، **تفسير القرآن العزيز**، تحقيق أبو عبد الله حسين بن عكاشة - محمد بن مصطفى الكنز، الفاروق الحديثة - مصر/ القاهرة 1423هـ - 2002م، 5 مج.

89. الزهري، **الناسخ والمنسوخ وتنزيل القرآن بمكة والمدينة**، تحقيق حاتم الضامن، ط 3، 1998.

90. سبينوزا، باروخ، **علم الأخلاق**، (ترجمة: جلال الدين سعيد)، 2009.

91. السخاوي، أبي الحسن علم الدين بن علي، **جمال القراء**، دار المأمون للتراث، دمشق، 1997.

92. السرخسي، شمس الدين، **المبسوط**، دار المعرفة، بيروت، 1993.

93. السمرقندي، أبي الليث نصر بن محمد، **بحر العلوم**، تحقيق محمد عوض، دار الكتب العلمية بيروت، 1993م.

94. السمعاني، أبي المظفر منصور بن محمد، **تفسير السمعاني**، تحقيق ياسر بن إبراهيم وغنيم بن عباس بن غنيم، دار الوطن، الرياض، 1997.

95. السيالكوتي، عبد الحكيم بن شمس الدين، **الحاشية على شرح المواقف لإيجي**، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 2، 2005.

96. سيبويه، عمرو بن عثمان، **الكتاب**، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط 3، 1988.

97. السيرافي، أبو سعيد الحسن بن عبد الله بن المرزبان، **شرح كتاب سيبويه**، دار الكتب العلمية، بيروت، 2008.

98. السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، **الدر المنثور**، دار الفكر، بيروت، 2011م، 8 مج.

99. ــــــ، **معترك الأقران في إعجاز القرآن**، دار الكتب العلمية، بيروت، 1988، 3 مج.

100. الشاطبي، إبراهيم بن موسى، **الموافقات**، تحقيق بن حسن آل سلمان، دار ابن عفان، 1997، 7 مج.

101. الشافعي، محمد بن إدريس، **ترتيب مسند الشافعي**، تحقيق يوسف الحسني وعزت العطار الحسيني، دار الكتب العلمية، بيروت، 1951م، 2 مج.

102. الشنقيطي، محمد الأمين، **أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن**، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 1995.

103. الشهرستاني، أبو الفتح محمد بن عبد الكريم، **الملل والنحل**، تحقيق عبد العزيز الوكيل، مؤسسة الحلبي، بيروت، 1968، 3 مج.

104. الشوكاني، محمد بن علي بن محمد، **السيل الجرار**، دار الكتب العلمية، بيروت، 1405هـ.

105. ـــــــ، **فتح القدير**، 1414هـ.

106. ابن أبي شيبة، **مصنف ابن أبي شيبة**، مكتبة الرشد، الرياض، 1409هـ 7 مج.

107. الصميدعي، محمود، **منهج القرآن في تحصين الأمة من الفرقة والاختلاف**، مركز البحوث والدراسات الإسلامية، ديوان الوقف السني، جمهورية العراق، 2007.

108. الصنعاني، عبد الرزاق بن همام، **تفسير عبد الرزاق**، تحقيق محمود محمد عبده، دار الكتب العلمية، بيروت، 1419هـ 3 مج.

109. ـــــــ، **المصنف**، 1403 هـ - 1983، 12 مج.

110. الطبراني، أبي القاسم سليمان بن أحمد، **كتاب الدعاء**، دار الكتب العلمية، بيروت، 1413هـ.

111. الطبري، محمد بن جرير، **جامع البيان عن تأويل آي القرآن**، 2000.

112. الطحاوي، أبو جعفر أحمد بن محمد، **شرح مشكل الآثار**، 1415هـ 16 مج.

113. الإطرابلسي، خيثمة بن سليمان، **جزء من حديث خيثمة بن سليمان**، تحقيق عمر تدمري، 1980.

114. الطيالسي، **مسند أبي داود الطيالسي**، تحقيق محمد بن عبد المحسن التركي، دار هجر، 1999م، 4 مج.

115. ابن عاشور، محمد ابن الطاهر، **التحرير والتنوير**، الدار التونسية للنشر، تونس، 1984، 30 مج.

116. ابن عبد البر، **التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد**، تحقيق مصطفى بن أحمد العلوي ومحمد عبد الكبير البكري، وزارة عموم الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، 1387 هـ، 24 مج.

117. عبد الرحمن، طه، **بؤس الدهرانية**، 2014.

118. ـــــــ، **روح الحداثة: المدخل إلى تأسيس الحداثة الإسلامية**، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 2006.

119. عبد الرزاق، زكريا، **الدين الإلهي ضرورة الالتزام به وخطورة الانحراف عنه علم الأديان المقارن**، دار لبنان للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 2012.

120. العبدري، ابن الحاج، **المدخل**، دار التراث، بيروت، (د.ت).

121. ابن عجيبة، أبو العباس أحمد بن محمد بن المهدي، **البحر المديد في تفسير القرآن المجيد**، تحقيق أحمد عبد الله القرشي رسلان، ار الكتب العلمية - بيروت، 1419هـ.

122. ابن عدي، أبي أحمد عبد الله الجرجاني، **الكامل في ضعفاء الرجال**، تحقيق عادل أحمد عبد الموجود-علي محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، 1997.

123. العراقي، أبو الفضل زين الدين عبد الرحيم، **طرح التثريب في شرح التقريب**، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (د.ت).

124. ابن عرفة، أبو عبد الله محمد بن محمد، **تفسير ابن عرفة**، دار الكتب العلمية، بيروت، 2008، 4 مج.

125. العزبن عبد السلام، عز الدين عبد العزيز، **تفسير العزبن عبد السلام**،1996، 3 مج.

126. ____، **قواعد الأحكام في مصالح الأنام**، مكتبة الكليات الأزهرية، ط 2، القاهرة 1991.

127. عساف، ميخائيل، **الأخلاق المسيحية**، المطبعة المخلصية، 1948.

128. العسكري، أبو هلال، **الوجوه والنظائر**، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2007.

129. ابن عطية، أبو محمد عبد الحق بن غالب، **المحرر الوجيز المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**، دار الكتب العلمية، بيروت، 1422هـ.

130. العفاني، سيد بن حسين، **وامحمداه إن شانئك هو الأبتر**، دار العفاني، القاهرة، 2006.

131. عويضة، كامل، **برتراند راسل فيلسوف الأخلاق والسياسة**، بيروت، دار الكتب العلمية، 1993.

132. العيد، ابن دقيق، **إحكام الأحكام في شرح عمدة الأحكام**، تحقيق محمد حامد الفقي، 1407 هـ - 1987 م.

133. الغزالي، أبو حامد، محمد بن محمد، **المقصد الأسنى في شرح معاني أسماء الله الحسنى**، الجفان والجابي، قبرص، 1987.

134. ____، **معارج القدس في مدارج معرفة النفس**، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط 2، 1975.

135. ____، **إحياء علوم الدين**، دار المعرفة، بيروت، (د.ت)، 4 مج.

136. ____، **المنقذ من الضلال**، المكتبة العصرية، بيروت، 2019.

137. ____، **ميزان العمل**، دار المعارف، مصر، 1964.

138. غلاب، محمد، **الأخلاق النظرية**، المطبعة المصرية الأهلية الحديثة، القاهرة، 1933.

139. فاغليري، لورافيشيا، **دفاع عن الإسلام**، (ترجمة: منير البعلبكي)، دار العلم للملايين، ط 5، 1981.

140. ابن الفرس الأندلسي، أبو محمد عبد المنعم بن عبد الرحيم، **أحكام القرآن**، 2006.

141. فرويد، سيغموند (ترجمة: بوعلي ياسين)، **الطوطم والتابو**، دار الحوار، اللاذقية، 1983.

142. فوكوياما، فرانسيس، **نهاية التاريخ والإنسان الأخير**، (ترجمة: فؤاد شاهين والآخرون)، مركز الإنماء القومي، لبنان، 1993.

143. فيرم، غيزا، **النصوص الكاملة لمخطوطات البحر الميت**، (ترجمة: سهيل زكار)، دار قتيبة، لبنان، 2006.

144. الفيروزآبادي، محمد بن يعقوب، **بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز**، تحقيق محمد علي النجار، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، 1416هـ - 1996م، 6 مج.

145. القاسمي، **محاسن التأويل**، دار الكتب العلمية، بيروت، 1998.

146. القرافي، أحمد بن إدريس، **شرح تنقيح الفصول**، تحقيق طه عبد الرؤوف سعد، شركة الطباعة الفنية المتحدة، 1973.

147. ـــــــ، **نفائس الأصول في شرح المحصول**، دراسة وتحقيق عادل أحمد عبد الموجود، علي محمد معوض، مكتبة نزار مصطفى الباز، مكة، 1995.

148. القرطبي، محمد بن أحمد، **الجامع لأحكام القرآن**، دار الكتب المصرية، القاهرة، 1964، 10 مج.

149. قرقول، **مطالع الأنوار**، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر، ط 2، 2012.

150. القسطلاني، أحمد بن محمد، **إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري**، تحقيق المكتب العلمي بدار الكمال المتحدة، دار عطاءات العلم، 2021.

151. القشيري، عبد الكريم بن هوازن، **لطائف الإشارات**، تحقيق إبراهيم البسيوني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط 3، (د.ت).

152. القيسي، مكي بن محمد، **الهداية إلى بلوغ النهاية في علم معاني القرآن وتفسيره، وأحكامه، وجمل من فنون علومه**، الإمارات العربية المتحدة، جامعة الشارقة، 2008.

153. ابن القيم، محمد بن أبي بكر، **مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة**، دار الكتب العلمية، بيروت، (د.ت).

154. ـــــــ، **فائدة جليلة في قواعد الأسماء الحسنى**، تحقيق عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر، غراس، الكويت، 2003.

155. ـــــــ، محمد بن أبي بكر، **طريق الهجرتين وباب السعادتين**، الدمام، دار ابن القيم، ط 2، 1994.

156. ـــــــ، **مدارج السالكين**، تحقيق محمد المعتصم بالله البغدادي، ط 3، 1996.

157. ـــــــ، **إعلام الموقعين عن رب العالمين**، تحقيق محمد عبد السلام إبراهيم، دار الكتب العلمية، بيروت، 1991.

158. ـــــــ، **الفوائد**، دار الكتب العلمية، ط 2، بيروت، 1973.

159. ـــــــــ، **شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل**، دار الفكر، بيروت، 1978.

160. الكاساني، علاء الدين أبي بكر، **بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع**، دار الكتب العلمية، بيروت 1986.

161. كتاب المزامير الشريف لداود النبي والملك، طبعة فريد ورزق الله فتح الله عرمان، بيروت، 1954.

162. ابن كثير، عماد الدين أبو الفداء، **تفسير القرآن العظيم**، دار الكتب العلمية، بيروت، 1419هـ.

163. الكرجي، محمد بن علي، **النكت الدالة على البيان في أنواع العلوم والأحكام**، دار القيم - دار ابن عفان، القاهرة، 2003.

164. كريل، هـ ج.، **الفكر الصيني من كنفوشيوس إلى ماوتسي تونج**، (ترجمة: عبد الحليم سليم)، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، القاهرة، 1971.

165. الكفوي، أيوب بن موسى، **الكليات: معجم في المصطلحات والفروق اللغوية**، تحقيق عدنان درويش ومحمد المصري، ط 2، 1998 .

166. كمال، محرم، **الحكم والأمثال والنصائح عند المصريين القدماء**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1998.

167. كنزا ربا (اليسار).

168. كنزا ربا (اليمين).

169. كولر، جون، **الفكر الشرقي القديم**، (ترجمة: كامل يوسف حسين)، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1995.

170. كونكه، زيجريد، **الله ليس كذلك**، (ترجمة: غريب محمد غريب)، ط 2، 1996.

171. كيفلس، دانييل، وهود ليروي، [محرران] **الشفرة الوراثية للإنسان**، (ترجمة: أحمد مستجير)، عالم المعرفة، الكويت، 1997.

172. لوبون، غوستاف، **حضارة العرب**، (ترجمة: عادل زعيتر)، الأهلية للنشروالتوزيع، الأردن، ط 3، 2019.

173. ليبس، يوليوس، **أصل الأشياء: بدايات الثقافة الإنسانية**، (ترجمة: كامل إسماعيل)، دار المدى للثقافة والنشر، سورية، ط 2، 2006.

174. الماتريدي، أبو منصور، **تأويلات أهل السنة**، تحقيق مجدي باسلوم، بيروت، دار الكتب العلمية، 2005.

175. ابن المبارك، عبد الله، **الزهد والرقائق**، دار الكتب العلمية، بيروت، (د.ت).

176. الماجدي، خزعبل، **الحضارة الآشورية**، الرافدين، بيروت، 2021.

177. ـــــ، **الديانة السومرية**، دار نينوى، دمشق، 2017.

178. ابن ماجه، بو عبد الله محمد يزيد، **سنن ابن ماجه**، تحقيق عصام موسى هادي، دار الصديق للنشر، السعودية، 1435 هـ - 2014 م .

179. المازري، **المعلم**، الدار التونسية للنشر، تونس، ط 2، 1988.

180. ابن مالك، جمال الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله الطائي الجياني، **تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد**، تحقيق محمد كامل بركات، بيروت، 1967.

181. الماوردي، علي بن محمد، **النكت والعيون**، تحقيق السيد ابن عبد المقصود بن عبد الرحيم، دار الكتب العلمية، بيروت، (د.ت).

182. ابن المبارك، عبد الله، **الزهد والرقائق**، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ط، (د.ت).

183. المبرد، أبو العباس محمد بن يزيد، **الكامل في اللغة والأدب**، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، القاهرة، ط 3، 1997.

184. مجاهد بن جبر، **تفسير مجاهد**، دار الفكر الإسلامي الحديثة، مصر، 1989.

185. مجموعة من المؤلفين، **شريعة حمورابي وأصل التشريع في الشرق القديم**، (ترجمة: أسامة سراس)، دار علاء الدين، دمشق، 1993.

186. مجموعة من المؤلفين، شريعة حمورابي،(ترجمة: محمود الأمين)، شريعة حمورابي، لندن، دار الوراق، 2007.

187. المحاسبي، الحارث بن أسد، **آداب النفوس**، دار الجيل، بيروت (د.ت).

188. المروزي، محمد بن نصر، **السنة**، تحقيق سالم أحمد، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، 1408هـ.

189. مزمار، 5-86، 8-103، 12-62.

190. مسلم بن الحجاج القشيري، **صحيح مسلم** تحقيق محمد ذهني أفندي، دار الطباعة العامرة، تركيا، 1334هـ.

191. المطيري، حاكم عبيسان، **الحرية أو الطوفان**، 2003.

192. المقريزي، تقي الدين أبي العباس، **المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار**، دار الكتب العلمية، بيروت، 1418 هـ.

193. منده، محمد بن إسحاق، **التوحيد**، تحقيق محمد الوهيبي وموسى الغصن، دار الهدي النبوي، 2007م.

194. المنشا، القسم الرابع.

195. ميتشل، ريتشارد، **أيديولوجية جماعة الإخوان المسلمين** (ترجمة: عبد السلام رضوان ومنى أنيس)، مكتبة مدبولي، القاهرة، (د.ت).

196. النسائي، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب، **السنن الكبرى**، تحقيق حسن عبد المنعم شلبي، 2001م، 12 مج.

197. النشار، علي سامي، **ديموقريطس فيلسوف الذرة وأثره في الفكر الفلسفي حتى عصورنا الحديثة**، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، الإسكندرية، 1972.

198. النفراوي، ابن غانم، **الفواكه الدواني على رسالة ابن أبي زيد القيرواني**، دار الفكر، 1995.

199. نيتشه، فريديريتش، **في جنيالوجيا الأخلاق**، (ترجمة :فتحي المسكيني)، دار سيناترا، المركز الوطني للترجمة، تونس، 2010.

200. ـــــ، **ما وراء الخير والشر**، (ترجمة: جيزيلا فالور)، دار الفارابي، بيروت، 2003.

201. النيسابوري، **غرائب القرآن ورغائب الفرقان**، دار الكتب العلمية، بيروت، 1416هـ.

202. هاينسهالم، **الغنوصية في الإسلام**، (ترجمة: رائد الباش)، دار الجمل، بيروت، ط 2، 2010.

203. الهروي، علي بن سلطان محمد، **مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح**، دار الفكر، بيروت - لبنان، 1422هـ - 2002م.

204. هونكه، زيغريد، **شمس العرب تسطع على الغرب: أثر الحضارة العربية في أوروبة**، (ترجمة: فاروق بيضون وكمال دسوقي)، دار العالم العربي، بيروت، ط 8، 1413هـ

205. الواحدي، أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد، **التفسير البسيط**، عمادة البحث العلمي - جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، 1430هـ، 25 مج.

206. الوردي، علي، **مهزلة العقل البشري**، دار كوفان، لندن، ط 2، 1994.

207. ابن الوزير، محمد بن إبراهيم بن علي، **العواصم والقواصم في الذب عن سنة أبي القاسم**، ط 3، 1994، 9 مج.

208. ولسون، كولن، **التاريخ الإجرامي للجنس البشري سيكولوجية العنف**، (ترجمة: رفعت السيدعلي)، حور الثقافة، القاهرة، 2001.

209. التيمي، يحيى بن سلام، **تفسير التيمي، يحيى بن سلام**، تحقيق هند شلبي، بيروت، دار الكتب العلمية، 2004.

210. يلماز، عرفان، **التطور نظرية علمية أم إيدلوجيا**؟، دار النيل، القاهرة، 2013.

ثانيًا: المجـلات

1. الكرملي، أنستانس،»هيكل أدب«، مجلة لغة العرب العراقية، ع 87، العدد 87، 02/ 1931م.

ثالثًا: المصادر الأجنبية

1. Damasio, Antonio R. "Emotion in the Perspective of an Integrated Nervous System." Brain Research Reviews, vol. 26, 1998, pp. 8386-.
2. Ha-Levi, Japheth ben Ali, A Commentary on The Book of Daniel, ed. and tr. by D.S. Margoliouth Margoliouth, Oxford, 1899.

فهرس المحتويات

مقدمة........ 9
أهمية الموضوع 11
مشكلات البحث........ 12
منهجية البحث........ 13
الدراسات السابقة........ 15
أسئلة الدراسة 16
خطة البحث........ 18
الفصل الأول: الرحمة والأنثروبولوجيا 21
المبحث الأول: تأصيل بنيوية الرحمة في البشرية 23
المبحث الثاني: أثر الأخلاق في تاريخ الديانات القديمة........ 37
المبحث الثالث: الرحمة في نصوص الديانات قبل الإسلام 50
الفصل الثاني: نظرية الرحمة في القرآن الكريم 59
المبحث الأول: استقراء ألفاظ الرحمة في القرآن الكريم وتحليلها 64
المبحث الثاني: تأصيل نظرية الرحمة في علم الأسماء والصفات
لله تعالى........ 110

المبحث الثالث: علاقة الرحمة ببعث الرسل ومنهجهم في ممارستها 123

الفصل الثالث: النظرية الكونية للرحمة في القرآن الكريم 143

المبحث الأول: حقائق التراحم في تسيير الكون من خلال القرآن........... 150

المبحث الثاني: الرحمة في التشريع من خلال القرآن الكريم 170

المبحث الثالث: الحدود في القرآن ومقصدية الرحمة 189

الفصل الرابع: شبهات وردود........................... 201

المبحث الأول: مزالق الفهم لنظرية الرحمة وعلاقتها بالوسطية........... 205

المبحث الثاني: أسباب القنوط من رحمة الله في الفكر المتشدد............ 237

المبحث الثالث: نظرة الرسالة القرآنية إلى ميزان أعمال القلب

وما يترتب عليها من السلوك 255

الخاتمة 271

المصادر والمراجع 279

جامعة محمد بن زايد
للعلوم الإنسانية
MOHAMED BIN ZAYED UNIVERSITY FOR HUMANITIES

نبذة عن الكتاب

تكتسي الموضوعات عندما يتم دراستها بمنهجية النظريات انسيابيةً؛ مثل موضوع الرحمة الذي تم إثبات بنيويته الفيسيولوجية عن طريق علم الجينوم؛ بالإضافة إلى الإفرازات التراثية من خلال دلالات النصوص المقدسة في جميع الديانات وسائر التشريعات الوضعية، غير أن الموضوع كانت تكتنفه كومة من الجدليات الفلسفية والواقعية حتى أصبحت معالمه مكدَّرة جراء الفهم العقيم أو تبني الأفكار الهدامة المخالفة للتراحم.

ويهدف هذا البحث إلى إقامة الحجج العقلية والتاريخية والدينية والعلمية لإثبات بنيوية الرحمة في الأصل التكويني للإنسان، وأن الوجود كله مرتبط بالتناغم التراحمي بين مكوناته، وأن الخالق سبحانه لم يَخلقْ ليُعذِّب، وأن وجود جملة من الممحِّصات أو الابتلاءات في الدنيا فذلك راجع لسنة الله المُنطوية هي كذلك على الرحمة خلافًا لبعض التوجّهات الأيديولوجية المنطلقة من اجتزاء النصوص التراثية الدالة على المعاداة والتهلكة ثم بناء سلوك التنقيط من رحمة الله على ذلك الفهم المُعْوَجّ.

وكان من بين نتائج البحث أن الرحمة تتعلق بالرحِم المشتملة على جينات التراحم وتتشكل ميتافيزيقياتها برحمة الله التي تغلب غضبَه. كما تفيض النصوص المقدسة في كل الديانات بدلالات الرحمة والمرحمة والتعاطف والتعايش بين الخلق. وأنه يجب النظر إلى القرآن بأنه كتاب كريم من ربٍّ رحيم وأنه نزل ليشرع الرحمة ويكرس تعايش الخلق وأن أي دلالة يتخذها المتشددون خلافا للتراحم فإنما ذلك ضرب من التأويل الخاطئ أو البتر من سياقٍ له عللُه وملابساتُه.

ISBN 9789948676591

9 789948 676591

mbzuh MBZ university for humanities mbzuh.ac.ae